الإسلام في المغرب والأندلس

تأليف

إ. ليفي بروفنسال

ترجمة

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم و الأستاذ محمد صلاح الدين حلمي

راجعه

الدكتور لطفي عبد البديع

١٩٩٠

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
ت ٤٨٣٩٤٧٦ اسكندرية



الاسلام في المغرب والأندلس

الإسلام في المغرب والأندلس

تأليف

ا. ليفي پروفنسال

ترجمه

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم و الأستاذ محمد صلاح الدين حلمي

راجعه

الدكتور لطفي عبد البديع

١٩٩٠

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
ت : ٤٨٣٩٤٧٢ إسكندرية


مكتبة لسان العرب
مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل
lisanerab.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للمغرب والأندلس كيان خاص بهما ، جعل منهما جزأين متماثلين لعالم واحد كان يعرف فى القديم عند المشارقة بالمغرب الإسلامى ، وإن كانوا قد قصروا اسم المغرب بالذات على الرقعة التى تمتد من مليانة إلى جبال السوس الأقصى التي وراءها البحر المحيط .

فقد ظل المغرب والأندلس يتعاطيان طوال العصور الوسطى حضارة واحدة تختلف عن حضارة المشرق ، وما زال الأمر بينهما على هذا النحو إلى أن زال سلطان الإسلام عن الأندلس ، فأقبل المغرب على تراثها يتغذى منه ويرتوى فى أسلوب حياته وطريقة تفكيره ، بحيث صارت البيئة المغربية أشبه شيء بالوثيقة الحية لإسبانيا الإسلامية .

واستهل العصر الحديث والمغرب لا يكاد يعرفه إلا فئة قليلة من الباحثين فى الشرق ، ولا يرد على الخاطر إلا حين يذكر فى معرض الجهاد والأحداث ؛ أما الأندلس فكانت مثارا للذكريات تغذيها روح رومانتيكية أصلها ثابت فى النفس العربية .

وضرب الدهر ضرباته ، وزال ما كان قد ران على القلب العربى ، فخفق جناح العروبة الأيسر مع جناحها الأيمن ؛ وكان لابد حينئذ من إدراك حقيقة الحياة المغربية بعد اتصالها بحياة العالم العربى ، وإدراك الوجود الأندلسى باعتباره جزءاً من تراث الإسلام .

وللمستعربين فضل لا ينكر فى تجلية الحضارة الأندلسية والمغربية ، فقد استهوى تراث الإسلام فئة عاملة من الباحثين ، كان من روّادهم فى هذا الباب كُودِيْرا الإسبانى ودُوزى الهولندى .

ثم تعاقب على حقل الدراسات الأندلسية والمغربية باحثون آخرون من أعلامهم فى وقتنا هذا غرسية جوميث وليفى بروفنسال : أولهما فى الشعر والأدب وما يتصل بهما ، وثانيهما — وهو صاحب هذه الفصول — فى التاريخ والحضارة .

* * *

وتواليف ليفى بروفنسال فى حضارة المغرب ترجع إلى سنة ١٩١٧ ، فقد ظهر حينئذ أول أبحاثه (١) ، ثم لم يلبث أن لحق بزمرة المستشرقين الفرنسيين الذين أصدروا مجلة هسبريس Hespéris فى سنة

---

(١) انظر قائمة بهذه الأبحاث فى فصل عقده غرسية جوميث بمجلة الأندلس Al-Andalus, 1956, vol xxi, p. iv. وكان جل اعتمادنا على هذا الفصل فيما أوردناه فى هذه المقدمة عن حياة ليفى العلمية ومصنفاته .

١٩٢١ ، وفيهم يومئذ الأثرى هنرى تراس واللغوى جورج كولان؟ واختص ليفى بالتاريخ ومتعلقاته ، وأخرج فى تلك الحقبة المجلد الأول من المخطوطات العربية فى الرباط: Les manuscrits arabes de Rabat وبحثا عن نسخة ملوكية من المصحف الشريف ترجع إلى القرن الرابع عشر Note sur un Coran royal du xiv siecle ؛ وكتابا فى مؤرخى الأشراف السجلماسيين والعلويين Les historiens des Chorfa وهو من أجل مصنفاته : ودراسة عن مخطوطتين جديدتين لكتاب « روضة النسرين » Deux nouveaux mss de La «Rawdai al-nasrin» وبحثا عن نسخة من « كتاب العبر » التى أهداها ابن خلدون مكتبة القرويين فى فاس Note sur l'examplaire du « kiàb al-'ibar » offert par Ibn khaldoun à la bibliotheque de al-karawiyin a Fés. ولما مات هنرى باسيه فى سنة ١٩٢٦ خلفه ليفى فى إدارة المجلة وإدارة معهد الدراسات العليا المراكشية .

أما اتصاله بالأندلس وتراثه فيؤرخه صديقه غرسيه جوميث بالسنة التى قدم فيها إسبانيا ليضع فهرسا عن المخلوطات العربية فى الإسكوريال يكمل به فهرس درنبورج ، وكان من ثمرة هذا العمل الجزء الثالث وقد ظهر فى باريس سنة ١٩٢٨ .

وأكثر ما كتبه ليفى عن الأندلس أبحاث اعتمد فيها على حقائق تضمنتها مخطوطات غير منشورة ، مما أضفى عليها جدة وأصالة ، يخرج

من النص الذى يقف عليه بالحقيقة الجديدة التى تزيل إبهاماً أو تكشف غامضاً فى الموضوع الذى ينصب عليه البحث .

وكان الرجل موفقا فى المخطوطات التى يعثر عليها ، لا يسوقه جده إلا على السمين منها ، وهذا مما عرف عنه واشتهر ؛ قال لى يوما الأستاذ منندث بيدال شيخ الباحثين الإسبان فى دراسات العصور الوسطى ، وكنا نتحدث عن الجزء الذى وقف عليه ليڤى من المقتبس لابن حيان : « هذا إنسان يضرب الأرض برجله فتخرج له المخطوطات المخبوءة! » ومن أجل ما وقف عليه فى هذا الباب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق نشرها فى كتابه «وثائق لم تنشر فى تاريخ الموحدين» Documents inedits d'histoire almohade. (سنة ١٩٢٨) ؛ و«صفة جزيرة الأندلس» منتخبة من كتاب «الروض المعطار فى خبر الأقطار» لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى ، والجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى (سنة ١٩٣٠) ؛ ومذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة المسماة بكتاب التبيان (نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥) ، كما وقف على قطعة كبيرة من كتاب المقتبس لابن حيان أطلعنى عليها وأنا فى باريس فى صيف عام ١٩٥٣ ؛ وثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب (نشرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٥) تشتمل على رسالة ابن عبدون

فى القضاء والحسبة ، ورسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرءوف فى آداب الحسبة والمحتسب ، ورسالة عمر بن عثمان بن العباس فى الحسبة .

وكان يرجو أن يجمع من أمثال هذه النصوص جملة تتضح بها الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الأندلس ، فكانت هذه الرسائل الثلاث الحلقة الأولى من سلسلة الوثائق التى وسمها بعنوان « وثائق عربية لم تنشر عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المغرب الإسلامى فى العصر الوسيط » Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge
وكان من ثمرات اهتمامه بهذا الجانب الفصل الذى كتبه عن الحياة الاقتصادية لإسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر La vie économique de l'espagne musulmane نشر فى (مجلة Revue Hispanique)
وقد توسع فى هذا الموضوع بعد ذلك فأخرج كتابه الذى عنوانه إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر : النظم والحياة الاجتماعية :
L' Espagne Musulmane au xe siècle : Institutions et vie sociale (نشر فى سنة ١٩٣٢) .

ويطول بنا القول لو عددنا الآثار التى خلفها ليفى بروفنسال ، ولكن إن جاز لنا أن نضرب عن ذكر بعضها فلا يجوز أن نغفل كتابه فى تاريخ إسبانيا الإسلامية Histoire de l' Espagne musulmane ، فى ثلاثة أجزاء كبيرة ، انتهى فيه إلى عصر الخلافة ، وكان فى نيته أن يمضى فى تاريخ إسبانيا الإسلامية بعد تلك الحقبة لولا أن عاجلته منيته فى ٢٧ مارس

سنة ١٩٥٦ ؛ فقد بلغ فى هذا الكتاب الغاية من حيث إحكام المنهج العلمى ، والترتيب المنطقى للبحث والدقة فيـــه ، والتماس الحقائق من أصولها ومظانها الأولى ما وسعه ذلك ، وتوثيق الرأى الذى يسوقه بحيث صار المرجع الأول للباحثين فى تاريخ الأندلس إلى الحقبة التى انتهى إليها ؛ ونقله إلى لغة الضاد فريضة يجب أن تؤدى قياما بحق التراث العربى فى إسبانيا .

تلك آثار مؤلف هذه الفصول الذى كان أستاذا للحضارة العربية بالسربون ، ومديراً لمعهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس ، وأستاذاً زائراً بالجامعات المصرية ، فكان لوفاته رنة أسى فى قلوب عارفيه من أبناء الأقطار العربية .

* * *

أما الفصول المترجمة فى هذا الكتاب فقد تباعدت بينها المسافة الزمانية والمكانية ، وإن كانت على تنوعها تتصل بتراث الإسلام فى المغرب والأندلس ، مما جاز معه جمعها بين دفتى كتاب واحد . ومن هذه الفصول ، وهى عشرة ، أربعة عن المغرب هى : تأسيس مدينة فاس ، وملاحظات عن أسماء المدن والمواضع فى المغرب والأندلس وتأملات فى إمبراطورية المرابطين فى مطلع القرن الثانى عشر ، ثم مولد إمبراطورية ابن تومرت وعبد المؤمن فقيه سوس وسراج الموحدين .

وأما الخمسة التى عن إسبانيا الإسلامية فهى : تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة فى القرن الحادى عشر ، وألفونس السادس واستيلاؤه على طليطلة ، « وزايدة المسلمة » زوجة ألفونس السادس وابنها الأمير سانشو ، والسيد فى التاريخ . واستيلاء السيد على بلنسية فى المصادر الإسلامية ، والأصل العربى « للمدونة العامة فى إسبانيا » ثم الشعر العربى فى إسبانيا والشعر الأوربى فى العصور الوسطى .

بقى الفصل العاشر عن الدور الروحى لإسبانيا الإسلامية ، وقد نقل إلى العربية من قبل ، ونشر فى مجلة الكاتب المصرى بعددها الصادر فى يناير ١٩٤٧ فلم نر إعادة نشره .

وهذه الفصول من قبيل الأبحاث المفردة التى تنصب على موضوع بذاته فى اتجاه رأسى لاستقصاء جزئياته ، وتفريع مسائله ، واستخراج الحقائق التى ينبنى عليها البحث الكلى ، فلا يتأتى هذا إلا بذاك .

ونحن فى العالم العربى لانولى البحث المفرد من الأهمية مانولى البحث العام الذى تجمع فيه المعلومات قبل تمحيصها ، وتسرد المسائل قبل تحقيقها ، وربما كان من أسباب ذلك الافتقار إلى المجلات العلمية بمعناها الدقيق ، فهى مجال تلك الأبحاث التى تخلق البيئة العلمية السليمة وتهيىء السبيل للكتاب القيم .

وعسى أن يكون فى هذه الفصول مايسد فراغا فى المكتبة العربية، وما يشفى غلة المتطلعين من الناطقين بالضاد للوقوف على جانب التراث العربى المجيد فى المغرب والأندلس ، والله المستعان .

القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٥٦

لطفى عبد البديع

الفصل الأول

تاسيس مدينة فاس

ظهر هذا المقال فى حوليات معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر ، الجزء الرابع سنة ١٩٣٨ ، ص ص ٢٣ — ٥٣ .

Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de l'Université d'Alger.

— ١ —

هناك رواية شائعة وردت فى سائر الكتب الخاصة بتاريخ شمال إفريقية تعزو تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الثانى بن إدريس الأول وخليفته ، وهى رواية قديمة جدا ، نجد أول صدى لها فى كتاب لمؤلف جغرافى مشرقى من أهل القرن العاشر الميلادى ، ونعنى به ابن حوقل [1] .

---

(١) انظر : كتاب « جزائر بنى مزغنة » المنشور تحت عنوان : Description de l'Afrique septentrionale ترجمة De Slane الواردة فى Journal Asiatique سنة ١٨٤٢ ص ٢٣٦ ، طبعة De Goeje ، ليدن ، ١٨٧٣ ، ص ٦٥ ، وكذا طبعة جديدة للأستاذ J. H. Kramers ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ص ٩٠ . هذا وقد جمع الأستاذ ر . بلاشير R. Blachère هذه البيانات فى مقال له بعنوان : « فاس عند الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى » ، المنشور فى مجلة Hespéris ج ١٨ سنة ١٩٣٤ من ص ٤١ — ٤٨ .

وفى النصف الثانى من القرن التالى ، ردد هذه الرواية المؤرخ والجغرافى الأندلسى أبو عبيد البكرى[١] ، عند ما رسم — تبعاً للبيانات التى جمعها — أول وصف شامل لمدينة فاس أمكننا الوصول إليه ، فقال إن هذه المدينة تتكون من مدينتين مختلفتين ويحيط بكل منهما أسوار ، كما يفصلهما نهير شديد التيار ، وهو يسمى إحداهما « ضفة القرويين » ، والثانية « ضفة الأندلسيين » . وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية . وهو يقرر فى وصفه هذا أن المدينة الواقعة على « ضفة الأندلسيين » قد تأسست عام ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) ، وأن مدينة « ضفة القرويين » قد أسست فى السنة التالية ، فى عهد إدريس بن إدريس .

وهناك جغرافيون آخرون قدامى - منهم اليعقوبى[٢] والمقدسى[٣] - يقررون أيضاً وجود مدينتين منفصلتين ، بل ويعينون الأمراء

(١) انظر : « جزائر بنى مزغنة » أو Description de l'Afrique Septentrionale طبعة De Slane الطبعة الثانية ، الجزائر ، ١٩١١ ، ص ١١٥ ، وكذلك طبعة أخرى جديدة ، بالجزائر ، ١٩١٣ ، ص ٢٢٦ .

(٢) انظر « صفة المغرب » المأخوذة من كتاب « البلدان » لأحمد بن أبى يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ، نشره M. J. de Goeje تحت عنوان : Descriptio Al Magribi, sumta ex - libro regionum Al Jacubii طبعة ليدن ، ١٨٦٠ ، ص ١٩ من النص العربى ، وكتاب « البلدان » طبعة De Goeje ، ليدن ، ١٨٩٢ ، من ص ٣٥٧ — ٣٥٨ . وكذلك الترجمة الفرنسية للأستاذ G. Wiet تحت عنوان Les Pays طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ من ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٣) انظر : « أحسن التقاسيم » طبعة De Goeje ليدن ١٩٠٦ ص ٢٢٩ .

الذين حكموهما فى الوقت الذى كتبوا فيه ، وإن لم يذكروا شيئاً عن تأسيس المدينتين . وحتى الإدريسى نفسه لا يذكر شيئاً[١] . ومع أنه ألف كتابه فى مطلع القرن الثانى عشر ، إلا أنه يتكلم أيضاً عن مدينتين منفصلتين ، مع أنهما كانتا قد اتحدتا فى مدينة واحدة قبل ذلك بعشرات السنين . أما « كتاب الاستبصار »[٢] ، الذى يرجع تاريخه إلى ما بعد ذلك بقليل ، فإنه يقتصر على إيراد ما ذكره البكرى[٣] من قبله .

ولو أن الوثائق الخاصة بنشأة مدينة فاس كانت على هذا النحو من الفقر ، لكانت ضئيلة القيمة ، ولكن كان من حسن التوفيق أن وردت الرواية الخاصة بهذه النشأة فى السنين الأولى من القرن الرابع عشر الميلادى ، مع تفاصيل أكثر على خلاف العادة ، وخاصة فى المصنفات التاريخية المغربية ، التى تشير بذلك إلى ما ذكره المؤرخ ابن أبى زرع

---

(١) انظر : Description de l'Afrique et de l'Espagne نشر وترجمة Dozy و De Goeje ، ليدن ، ١٨٦٤ ـ ١٨٦٦ ، النص من ص ٧٥ ـ ٧٦ ، والترجمة من ص ٨٦ ـ ٨٧ و ٩٠ .

(٢) انظر طبعة A. de Kremer : Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VI eme siècle de l'hégire طبعة فينا ، ١٨٥٢ ص ٦٩ . وترجمة De Fagnan :
L'Afrique septentrionale du XII e Siècle de notre ère. طبعة قسطنطينة ، ١٩٠٠ ، من ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٣) للجغرافى الشرقى ياقوت أيضا كتاب « معجم البلدان » طبعة Wustenfeld ، ليبزج ، ١٩٢٤ ، الطبعة الثانية ، ج ٣ ص ٨٤٢ وما يليها ، طبعة القاهرة ، ١٩٠٦ ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ وما يليها .

مؤلف « روض القرطاس »[1] . والرواية التى ساقها ، نقلها عنه بعد ذلك بنفس العبارات اثنان من مؤرخى فاس ، وهما الجزنائى

---

(١) يسمى على وجه التحديد باسم « كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » . وبناء على ما ورد فى بيانات متفقة فى عدة مؤلفات عن التراجم المراكشية ، وبخاصة فى ذكر مشاهير أهل فاس فى القديم (وهو الذى سنبحثه فيما بعد) ـ نجد أن نسختين من هذا الكتاب تحملان عنواناً واحداً . أما أقدم وأفضل هذه النسخ ، فربما كان كتاب أبى العباس أحمد بن أبى زرع الذى كان إماماً وواعظاً فى مسجد القرويين الكبير بفاس ، ثم مات بهذه المدينة بين سنتى ٧١٠ و ٧٢٠ هـ (١٣١٠ ـ ١٣٢٠ م) . أما النسخة الأكثر اختصاراً ، فربما كان مولفها المؤرخ صالح بن عبد الحليم المتوفى سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦ م) ، والذى ترك كتاباً آخر عنوانه « زهر البستان فى أخبار الزمان » ؛ وهو بلا شك نفس مؤلف كتاب « مفاخر البربر » . انظر :

E. Lévi - Provençal : Fragments historiques sur l'histoire des Berbères au moyen - âge

طبعة الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٧٥ . وهذه النسخة هى الأفضل . وقد طبع نصها عدة مرات ، ولكنها لم تكن مرضية أبداً . ولا زلنا ننتظر طبعة نقدية ، وعلى الأخص ترجمة دقيقة لهذا النص الرئيسى لتاريخ مراكش فى العصور الوسطى . هذا وقد اعتاد الناس فى مراكش اختصار هذا العنوان الطويل وهو « كتاب الأنيس المطرب الخ .. » إلى كلمتى « روض القرطاس » أو « القرطاس » . على أننا لن نحيل القارئ فى الصفحات التالية إلى هذه الطبعات المتعددة من كتاب « القرطاس » فيما يختص بالعناصر المختلفة من قصة تأسيس فاس . ونظراً إلى أن هذه المراجع ستزيد الحواشى ، لهذا سيكون من السهل دائماً العثور على فقرات نافعة ، إما فى الكتاب نفسه ، أو فيما ورد ذكره فى كتاب « زهرة الآس » ، وكذلك فيما ورد فى الجزء الأول من كتاب « الاستقصاء » ، طبعة مصر ، ١٣١٢ هـ ، وهو الجزء الخاص بالأدارسة ، والذى ترجمه A. Graulle فى المجلد ٣١ من Archives Marocaines ، طبعة باريس ، ١٩٢٥ .

فى « زهرة الآس »[١] ، وابن القاضى فى « جذوة الاقتباس »[٢] .

على أن المادة التى نجدها فى « القرطاس » غير منظمة ، إذ نجد المؤلف يخلط رواياته — المستمدة من عدة مراجع أخرى تعد اليوم مفقودة — بمعلومات وبيانات دقيقة تعتبر جديدة فى بابها . أما رواية « زهرة الآس » الواردة بطريقة أكثر منطقية ، فإنها تقدم لنا عدداً قليلا من المعلومات التكميلية التى لا نجحد قيمتها ، فى حين أننا نجد ابن القاضى الذى يكتب فى آخر القرن السادس عشر لا يحوى كتابه إلا بعض تفاصيل مختلفة . فهذا التقارب والنقل الذى تصوره هذه النصوص يبين فى النهاية أن ما تقرره هذه المراجع الثلاثة ، على الأقل بالنسبة للمدة الواقعة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، ما هو إلا صدًى حقيقى للآراء الشائعة فى نفس ذلك العهد ، سواء أكان فى فاس أم فى بقية مراكش ، عن أصول المدينة المذكورة .

وهل هناك حاجة إلى أن نلاحظ أنه فى هذه الفترة كانت قد مضت

---

(١) نشرها وترجمها وعلق عليها A. Bel باسم « زهرة الآس » . وهى تتناول تأسيس مدينة فاس ، طبعة الجزائر ، ١٩٢٣ .

(٢) مطبوعة طبع حجر فى فاس سنة ١٣٠٩ هـ . انظر كتابي :

Historiens des Chorfa, essai sur la littérature historique et biographique au maroc du XVI e au XX e Siècle

طبعة باريس ، ١٩٢٢ ، من ص ٢٤٨ — ٢٥٠ . انظر فى نفس الكتاب ص ٢١١ والحاشية ١ ، وكيف أن مؤرخاً مراكشياً من القرن التاسع عشر وهو أكنسوس Akensus قد انخدع تماماً ، فيما يتعلق بالقرطاس ، وذلك عندما أخذ هذه الكلمة على أنها لقب للمؤرخ ابن أبي زرع .

مئات من السنين كانت مليئة بتاريخ مضطرب ، منذ أن ظهرت فاس على المسرح فى بلاد المغرب ؟

ومن العجيب أن نفس الرواية لم تزل بعد قائمة ، على ما هى عليه إلى اليوم ، ويكفى للاقتناع بذلك سؤال علماء فاس ممن اشتهروا باهتمامهم بمعرفة الماضى البعيد لمدينتهم ، إذ أن رواية « القرطاس » والروايات المأخوذة عنه كافية تماماً لإرضاء حب استطلاعهم ، إذ يبدو أنها صارت فى نظرهم شيئاً مقدساً لا تليق مناقشته أو الجدل فيه.

والشائع فى فاس هو ذلك الدور الذى قام به إدريس الثانى فى تأسيس المدينة . وعلى الرغم من عدم التمكن من ثبوت هذه الفكرة ، إلا أن القليل منها يعد كافياً لإثبات هذه المعجزة . وهنا يدرك الإنسان كيف أصبح إدريس الثانى – مولاى إدريس – منذ نحو أربعة قرون من أعظم أولياء الله فى مراكش ، إن لم يكن أعظمهم ، إلى حد أن طائفة من سكان المدينة اعتنقت كلها مذهب الولاء لهذا المؤسس العظيم . وهكذا حاك الرأى العام حول اسمه هالة من الأساطير الذهبية[1] ، التى لم يكن لتأسيس فاس نصيب فيها ، ولكنها اتخذت على مرور الزمن طابعاً يشبه الكرامات .

---

(١) تجدها مذكورة فى عدة مؤلفات للتاريخ المراكشى ، وبخاصة فى « الدر النفيس فى مناقب الإمام إدريس بن إدريس » لأحمد الحلبى ، وهو مشرقى استقر فى فاس حيث مات فى سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٨ م) ، انظر كتابى : Historiens des Chorfa ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ . وقد طبع هذا الكتاب طبع حجر فى فاس سنة ١٣٠٠ و سنة ١٣١٤ هـ .

وهذه هي خلاصة ما تقوم عليه هذه الرواية ، كما وردت فى كتاب « القرطاس » ، والمصنفات الأخرى التى نقلت عنه ، وسنقتصر فى إيرادها على الجوانب المهمة منها :

ولد إدريس الثانى فى أوليلى ، أو على الأصح وليله[1] ، فى كتلة زَرْهُون الجبلية (جبل زَرْهُون) ، بعد وفاة أبيه إدريس الأول بشهرين ، وكان موت أبيه حادثاً محزناً لوفاته مسموماً على يد رسول خاص كان قد أوفده الخليفة العباسى هرون الرشيد سنة ١٧٥ هـ (٧٩١م) أو ١٧٧ هـ (٧٩٣م) . وقد تولى رشيد — عتيق إدريس الأول ورفيقه المخلص — مهمة تعليم الطفل حتى كبر وصار حاكما سنة ١٨٨ هـ (٨٠٤م) بإجماع قبائل البربر بمراكش ، ثم مات رشيد بعد هذا بقليل . وفى نهاية السنة التالية — وهى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥م) — وجد إدريس الثانى أفواجاً من الهجرات العربية تنثال عليه ، مما جعل إفريقية وإسبانيا تأتى إليه اترتبط مصيرها بمصيره ، حتى ضاق مقامه بوليلة عن استيعاب هذا النمو المطرد من السكان ، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة لمملكته ، وكان أن وجد فى سنة ١٩٠ هـ

---

(١) على الرغم من أن كتابة كلمة أوليلى بصورة وليلى تقرب جداً من الاسم اللاتينى Volubilis . إلا أنه يجب تفضيل كلمة وليلة المكتوبة على جميع العملة المضروبة فى هذه المنطقة . انظر بشأن هذه المسألة :

G. S. Colin : Monnaies de la période idrisite trouvées à Volubilis فى مجموعة Hespéris ج ٢٢ سنة ١٩٣٦ ص ١٢٠ والحاشية رقم ١ .

(٨٠٦ م) مكاناً مناسبا ، يقع على السفح الشمالى لجبل زَلَغ[١] . وبدأ فعلا فى بناء المدينة ، غير أن عاصفة عاتية ما لبثت أن حطمت الأسس والمعدات ، فوقف دولاب العمل .

وفى السنة التالية ـ عند مطلع سنة ١٩١ هـ (نوفمبر ٨٠٦ م) ـ قرر إدريس الثانى الاستقرار بجوار الضفة اليسرى لنهر سبو Sebou ، على مقربة مباشرة من ينابيع خولان[٢] الساخنة ، حيث استحضر المواد اللازمة للعمل ، غير أن تخاوفه من عواقب الفيضانات الفصلية للنهر ، أجبرته على إهمال مشروعه .

أما المحاولة الثالثة فإنها ستكون أوفر حظاً ، إذ يختار للمدينة أرضاً مغطاة بأعشاب جافة متشابكة ومغمورة بالمياه الجارية ويعبرها نهير تغذيه ينابيع مجاورة . وهذا الموقع لحظه عُمَير وزير إدريس الثانى واقترحه عليه ، وكان قد اشتراه المحتلون من بربر زناتة المنتمين إلى أحزاب منافسة والمنتمين للإسلام والمسيحية واليهودية وحتى لمذهب عبادة النار نفسه .

ثم يأتى إدريس الثانى نفسه ليستقر فى هذا المكان ، بل ويصدر الأمر بيده إنشاء المدينة على التحقيق فى أول أيام شهر ربيع الأول

---

(١) جبل يدعى ولخ Oualikh كما ذكره Beaumier وكذلك :
E. F. Gautier : Les Siècles Obscurs, p. 283.

(٢) تسمى اليوم باسم سيدى حرازم Sidi Hrazem ، وهى على بعد ١٥ كيلومتراً شرق فاس . وكان اسم خولان لا يزال مستعملا فى القرن الثامن عشر .

سنة ١٩٢ هـ (٤ يناير ٨٠٨ م) ، حيث يشرع فى بناء حى تخترقه ستة أبواب على الأرض الواقعة على الضفة اليمنى من النهير . أما فى الداخل فيبنى مسجداً بجانب الآبار على مقربة من معسكر إدريس الذى يحميه سور من خشب . وقد أصبح هذا الحى أحد أحياء المدينة ، وسمى باسم « حى الأندلسيين » .

بعد ذلك بعام على التحقيق — بحسب التوقيت الهجرى الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٨ م — شرع إدريس الثانى فى تشييد حى جديد مواجه للحى الأول . وقد أدى إنشاء هذا الحى إلى إغلاق أسواره لجزء صغير من مجرى النهير ، كما أدى إلى امتداده بشكل ملحوظ على الضفة اليسرى من هذا النهير . ذلك الحى من المدينة هو الذى سوف يطلق عليه اسم « حى القرويين » الذى كان يشبه الحى المقابل له فى إقامة ستة أبواب له أيضا . أما فى داخله فنجد الحاكم يأمر ببناء مسجد ما لبث أن أقيمت حوله أسواق وقيسارية وقصر .

ثم لا يلبث هذا الإنشاء المزدوج الذى قام به إدريس الثانى إلا قليلا حتى يمتلئ بالسكان بسرعة ظاهرة ، وذلك بفضل التسهيلات العديدة التى منحها الأمير من وفدوا للإقامة فيه ، وإن كان معظم النازحين إلى المدينة الشرقية من البربر ، فى حين أن أكثر الوافدين إلى المدينة الغربية من العرب . وبسرعة كبيرة تختلط بهؤلاء المسلمين طائفة ملحوظة من اليهود ، ويأخذ هذا التجمع اسم مدينة فاس ، ويستقر فيها مع الأمير أسرته وحاشيته . ولم يكن فى ذلك الوقت

قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ، وظل بها إلى سنة ١٨٧ هـ (٨١٢ — ٨١٣ م) ، ثم رحل بعد ذلك فى حملة إلى الأطلس الكبرى عاد بعدها إلى مدينة فاس ، ثم غادرها سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ — ٨١٥ م) متجهاً إلى تِلمْسان ؛ وبعد هذا بثلاث سنوات عاد إلى عاصمته ، التى استقبلت فى ذلك الحين حملة قوية من عساكر الأندلس ، ممن طردهم الحكم الأول أمير قرطبة الأموى ، وذلك عقب « وقعة الربض » ، وسمح لهم إدريس الثانى بالقرار فى الحى الشرقى . ومنذ ذلك الوقت لم يبرح إدريس مدينة فاس .

بعد هذا بعشرة أعوام — فى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) — مات إدريس فى ظروف غامضة ، فى فاس نفسها ، أو فى وليلة ، تاركا مدينته المزدوجة يانعة مزدهرة ، كما ترك عند وفاته أطفالا كثيرين ، كان منهم على الأقل اثنا عشر ولداً تقاسموا أملاكه .

وينبغى أن نكرر هنا أننا ارتبطنا بعرض هذا الموضوع عرضاً سريعا ؛ ومع هذا فإننا نجد فى رواية صاحب « القرطاس » تفاصيل كثيرة عن كل مرحلة من مراحل إنشاء المدينة المزدوجة ، وكذلك عن المحاولات الفاشلة التى سبقته . ونجد المؤرخ المذكور يحيط اسم فاس بقصص مبتكرة ، لا تخلو من الطرافة أحياناً . على أن مرجعه يعد ذا قيمة نادرة بفضل معلوماته الطبوغرافية فيما يتعلق برسم وتخطيط الحيّيْن وأبوابهما ، حيث تعتبر هذه المعلومات وحيدة فى بابها إذا أضفنا إليها روايات البكرى ، وهى تفيدنا فى موازنة

خريطة فاس الحالية بنظائرها التى كانت لنفس الموقع طوال القرون الأولى من التاريخ الإسلامى .

ويؤكد مؤلف القرطاس ، كما يؤكد المؤرخون من بعده ، نقلا عنه ، كيف أن مدينتى إدريس الثانى اللتين لا يفصلهما أى فاصل طبيعى مهم ، قد نمتا وترعرعتا ، ولكن هذا لم يمنع أن يكون مصير إحداهما غير مصير الأخرى . وسنراهما فى القريب تعيشان عيشة مضطربة خطرة ، فهما تارة متضادتان ، وتارة متفقتان . ثم تمضى بعد ذلك سنونٌ عدة قبل أن يأتى من الصحراء الغازى يوسف بن تاشفين محطماً الحواجز التى تفصلهما ، وموحداً إياهما نهائياً فى مدينة واحدة .

وكان ذلك سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ؛ وهنا على موقع مدينتى هذه المؤسسة الإدريسية ، بدأت تستقر منذ ذلك الحين هذه المدينة الكبرى فى العصور الوسطى ، التى لم تلبث أن أصبحت مركز الإسلام ، تزخر بمواردها العلمية والصناعية والتجارية . هكذا صارت فاس ، كما رآها المؤرخ ابن أبى زرع فى الوقت الذى وصفها فيه بحماسة .

— ٢ —

من هذه الرواية المتواترة عن نشأة مدينة فاس ، يبقى أمامنا أمران هما : نشأة مدينتين إحداهما قريبة جداً من الأخرى ، وإن بقيتا مستقلتين برغم هذا خلال سنة واحدة ، ثم نسبة هذا الإنشاء المزدوج إلى إدريس الثانى ، لدرجة أنه فى سنة ٨٠٨ م اشتهرت عاصمة شمال مراكش بأنها بدأت وقتئذ مصيرها المجيد ، بفضل عبقرية أمير فى السابعة عشرة من عمره .

وقد يكون من الجرأة إثارة الشك فى القيمة التاريخية لهاتين الحقيقتين . على أن ذلك لا يمنع من أن نتساءل : كيف استطاع إدريس الثانى على الرغم من صغر سنه تنفيذ مشروع ضخم كتأسيس مدينتين متباينتين فى مكان واحد ؟ وإذا سلمنا بأن هاتين المدينتين لم تكونا سوى حَيَّيْن لمدينة واحدة ، فلماذا جعل لكل منهما سوراً خاصاً بها بدلا من إحاطتهما معاً بسور واحد ؟ ولم آثر إيجاد هذا التعارض العنصرى والسياسى والاجتماعى لمدينتين متماثلتين ؟ وهو تعارض قد تجلى عقب وفاته بقليل .

ويبدو أننا لم نجد إجابة واضحة إلى الآن على هذه الأسئلة . فالمؤرخون — القدامى منهم والمحدثون — ممن تحدثوا عن الإدريسيين ونشأة فاس ، لم يفعلوا أكثر من أنهم سجلوا الرواية التقليدية القديمة

على أنهـا حقيقة لا جدال فيها منذ أمد بعيد[١].

ولعلنا ندهش إذا رأينا أن إ. ف. جوتييه E. F. Gautier في بحثه العميق الذى كتبه عن نشأة العاصمة[٢]، لم ير ضرورة لذكر وجود مدينتين فى مكان فاس فى وقت واحد، وذلك رغم قبوله لتلك الرواية، على أن قراءته الدقيقة لكتاب «روض القرطاس» قد هدته بالضرورة إلى هذا الرأى، إذ الواقع أن ذكره لهذه الحقيقة قد يضعف من قيمة الحجج التى ساقها ليبين كيف أن دراساته التى يعرضها لشرح معجزة فاس منذ نشأتها بسبب استيعابها ظروف الدولة

---

(١) عرض تفاصيل هـذه الرواية منذ سنة ١٨٧٥ الأستاذ H. Fournel فى كتابه الكبير:

Les Berbères, Étude sur la conquête de l'Afrique par les arabes, d'après les textes imprimés. طبعة باريس، ١٨٧٥، فى مجلدين، فى حجم الربع، ورد فيهما وصف تأسيس فاس فى الجزء الأول من ص ٤٦١ — ٤٦٦.

وأما عن قيمة هذا الكتاب فانظر:

W. Marçais : Le passé de l'Algérie Musulmane

وهو الذى ورد فى كتاب:

Histoire et historiens de l'Algérie, collection du centenaire de l'Algérie

طبعة باريس، ١٩٣١، من ص ١٦٨ — ١٦٩. أما كتاب:

Gaillard : Une ville de l'Islam : Fès

طبعة باريس سنة ١٩٠٥ عن فاس، فلم يزل أحسن كتاب يقرأ إلى الآن عن العاصمة المراكشية. وقد تمسك هو الآخر بصحة رواية «القرطاس».

(٢) Les siècles obscurs du Maghreb ص ٢٨٢ وما يليها.

الشرقية وانطباقها عليها ، وكأنها كانت «معجزة التكيف بظروف الدولة الشرقية » ، وذلك بفضل تشعب قنوات نهيرها .

ولقد كان للبحاثة م. هنرى تيراس M. H. Terrasse[1] فضل التنبيه إلى هذا الازدواج فى المدينة ، وما به من طابع شاذ[2] ، وذلك بإشارته إلى ذلك بدلا من تفاديه ما ينطوى عليه هذا الوضع من صعوبات . إذ حاول أن يشرح هذا الازدواج مستعيناً بأمور كان يمكن أن تقنع الباحث ، لو أن الأمر كان على هذا النحو ؛ وهو ليس كذلك .

وأمام هذا الوضع ، نجد أن المشكلة ستكون فيما بقى من المسائل صعبة الحل بغير الالتجاء إلى الافتراضات الضعيفة ، ما دمنا لا نملك المعلومات التى تبينها لنا كتب التاريخ عن نشأة فاس ، مما يمكن التعويل

---

(١) انظر : H. Terrasse : Villes Impériales du Maroc طبعة جرينوبل ، سنة ١٩٣٧ ، ص ٢٨ ، ونجد فى نفس الكتاب ص ١٨ مناقشة لنظرية E. F. Gautier

ونحن نتفق تماماً مع M. H. Terrasse فى تقرير أن « هناك أسباباً أخرى ـ فيما عدا ذلك الهدوء الجبلى لنهير فاس ـ قد أثرت فى حياتها ومولدها » .

(٢) لا يمكن الاستناد إلى أكثر من ذلك فى حالة تلمسان التى تكونت من تقابل مدينتين متجاورتين ولكنهما بنيتا الواحدة بعد الأخرى بزمن طويل ، وهما أجادير Agadir وتاجرارت Tagrart . فالأولى كانت موجودة فعلا على موقع پوماريا Pomaria الرومانية سنة ١٧٤ هـ (٧٩٠م) ، عندما غزاها إدريس الأول . أما الثانية ـ وتقع غرب أجادير ـ فهى مؤسسة المرابطين ، وكانت فى موقع معسكر يوسف بن تاشفين منذ سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، انظر :
W. & G. Maçais : Les monuments arabes de Tlemcen
طبعة باريس ، ١٩٠٣ ، ص ١٤ ـ ١٦ .

عليه . ولكن لدينا منذ عهد بعيد الدليل المادى الذى يثبت أن ما ورد فى كتب التاريخ أمر يبعث على الريبة ، ولم نفقد من هذا الدليل شيئاً ، مع أنه ثابت لا سبيل إلى دحضه ، لأنه مبنى على وثائق لا يرقى إليها الشك ، ونعنى بذلك النقود المؤرخة .

فى المكتبة الأهلية بباريس درهم كان قد ضُرب فى مدينة فاس فى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) ، أى قبل التاريخ المتواتر عن تأسيس مدينة إدريس الثانى بسنتين .

وقد أشار لافوا Lavoix [1] ، الذى نشر هذه القطعة فى سنة ١٨٩١ ، إلى وجود درهم آخر فى متحف مدينة خاركوف[2] ، ضرب فى فاس وعليه تاريخ عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) .

وبعد لافوا نبه ل. ماسينيون L. Massignon فى سنة ١٩٠٦ إلى هذا الشذوذ[3] ، وذلك فى نفس الوقت الذى ذكر فيه السنة التى

---

(١) انظر هـ . لافوا H. Lavoix فى كتابه :

Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Espagne et Afrique

طبعة باريس ، ١٨٩١ ، ص ٤٤ من المقدمة ، رقم ٨٩٩ ، ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٨ : « نشر الأستاذ Tiesenhausen درهماً من مجموعة متحف جامعة خاركوف نقلا عن مخطوطات Froehn . وقد ضرب هذا الدرهم فى فاس سنة ١٨٥ ــ انظر :

Revue Belge de Numismatique

ج ٣١ ، ص ٣٥٨ » .

(٣) انظر ل . ماسينيون :

=

عيّنها ليون الإفريقي Léon l'Africain[1] لهذا الإنشاء : وهى سنة ١٨٥ هـ . أضف إلى ذلك أنه فى هذا التاريخ الذى ضربت فيه عملة فى فاس ، كان إدريس الثانى يبلغ من العمر عشر سنوات على الأكثر ، وكان اسمه يظهر فعلا على قطع ضربت فى وليله وتُدْغَه ، تحمل التواريخ المتتابعة لسنوات ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣ .

وهناك حقيقة أخرى لا تقل اضطراباً ، ويبدو أنها لم تبحث إلى الآن إطلاقاً ، وهى إيقاف ضرب العملة منذ السنة التى قيل إن فاس قد تأسست فيها على يد إدريس الثانى ، وأن كلا من المدينتين

= L. Massignon : Le maroc dans les premières années de XVI e siècle, tableau géographique d' après Léon l'Africain طبعة الجزائر ، ١٩٠٦ ، ص ٢٢٣ و ٢٣٨ . وقد لاحظ حديثاً ج . س . كولان G. S. Colin فى مقاله المذكور ص ١٢٠ وحاشيتها رقم ٢ ، أن المتناقضات فى التواريخ الإدريسية ، كما أوردها المؤرخون ، أو بحسب العملات النقدية مايلى : « تسمح البيانات الدقيقة المستنتجة من العملات بالشك فى بعض التواريخ التى أوردها المؤرخون المتأخرون بعدة قرون ، عن حوادث يحكونها ، ثم قبلت بعد ذلك بدون تحقيق إلى الآن » .

(١) انظر حنا ليون الإفريقى Jean Léon l'Africain فى كتابه :
Description de l'Afrique, tierce partie du monde
طبعة شفر Schefer ، باريس ، ١٨٩٧ ، ج ٢ ، ص ٥٧ حيث ورد ما يلى :
« بنى مدينة فاس كافر فى عصر البابا آرون Aron ، وكان ذلك فى سنة مائة وخمس وثمانين من الهجرة » . انظر :
Marmol : Description General de Affrica
طبعة غرناطة ، ١٥٧٣ ، ج ٢ ، ورقة ٨٤ خلف ، وفيه يذكر سنة ١٨٥ هـ أيضاً ، وإن كان ذلك مقترنا بالتاريخ الخطأ وهو سنة ٧٩٨ ميلادية .

ـــ لو صدقنا « روض القرطاس » ـــ كانت تمتاز بدار خاصة للسكة ، مما يجعلنا نتساءل عما إذا لم تكن توجد قطع إدريسية مضروبة فى فاس بعد سنة ٨٠٨ م من بين القطع التى ظهرت إلى الآن ؟

أما عن القطعتين الوحيدتين المعروفتين فى هذا الشأن فالمظنون أنهما ترجعان إلى سنتى ١٨٥ و ١٨٩ ﻫ . وأما بالنسبة لحكم إدريس الثانى ، فمعظم القطع التى تحمل اسم هذا الأمير كان مقر ضربها مدينة العالية . وقد ذكر لافوا فى المصنف الذى وضعه عدة دراهم ضربت فى مدينة العالية ، تحمل اسم إدريس الثانى فى سنوات ٢٠٤ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢١٠[1] . وأنا شخصياً أقتنى منها أربعاً لم تنشر بعد ، وترجع بالتوالى إلى سنوات ١٩٨ و ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢١٤ ﻫ . والقطعة الأخيرة ينبغى الإشارة إليها فى هذا العرض ، وهى ترجع إلى تاريخ متأخر سنة عن وفاة إدريس الثانى ، كما هو معروف .

ومن حيث أن اسم العالية يعنى بدقة معنى قولهم « المرتفعة » ، لهذا نتساءل : أليس من المعقول أن ما افترضناه آنفاً[2] ، لا ينطبق إلا على إحدى المدينتين المنشأتين على موقع فاس فى العهد الإدريسى ؟

(١) انظر : ﻫ . لافوا H. Lavoix فى كتابه المذكور ص ٣٧٦ ـــ ٣٧٧ . وقد ذكر أيضاً أحد دراهم سنة ٢٠٥ ﻫ المضروب فى العالية فى متحف برلين فى كتاب :
H. Nützel : Katalog der Orientalischen Münzen
طبعة برلين ، ١٩٠٢ ، ج ٢ ص ٢٠٥ رقم ٨٤٨ .

(٢) انظر : ﻫ . لافوا H. Lavoix فى كتابه المذكور ص ٣٧٧ وكذلك : ل . ماسينيون L. Massignon فى كتابه المذكور ص ٢٢٣ . وهذا مع احتمال إمكان إطلاق هذا الاسم على « ضفة الأندلسيين » .

ويحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى تسمية رسمية سوف تطلق فيما بعد على العملات الخاصة بالأسرة الإدريسية حتى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ — ٨٤٥ م) ، ثم تختفى بعد ذلك نهائياً من تعداد أماكن ضرب العملة فى بلاد المغرب ، ولايورد المؤرخون والجغرافيون العرب أى إيضاح عنها . ويمكن بوجه عام ربطها باسم الجد الأكبر لإدريس ، وهو « على » : وفى هذه الحالة لعل الأمر يتعلق بتحريف لفظ العالية عن العلوية ، أو لعل الأقرب إلى الذهن أن هذه الصفة ، ما هى إلا صفة « الحضرة العلية » ، وهو تعبير شائع على ألسنة أهل المغرب من المتصلين بالقصر ، وقد ينصرف المعنى إلى ارتفاع أو علو المدينة بالنسبة لما جاورها ، ويتجلى هذا بوضوح فى فاس مدينة القرويين بالنسبة إلى مدينه الأندلسيين .

وتنهض بعد ذلك بكثير تحت حكم بنى مَرين مدينة جديدة هى فاس الجديدة عند وادى فاس الأعلى ، إلى الغرب من الموقع الذى كان محتلا فعلا حيث تسمى بعد ذلك رسمياً باسم « المدينة البيضاء » ، كما تسمى أيضاً باسم « فاس العليا » .

ومهما تكن قيمة هذا الفرض الأخير ، فإنه لم يبق له إلا بعض روايات قديمة عن نشأة فاس ، قد أضيف إليها أمران آخران فيهما يقين ، لأنهما مبنيان على الحقائق المستمدة من النقود . فقد كانت فاس مركزاً لسك العملة قبل سنة ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) ، إذ يختفى هذا الاسم منذ سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ — ٨١٤ م) وما بعدها ، ويظهر بدلا منه اسم

العـالية . ولا يعود اسم فاس إلى الظهور بعد هذا فى العملة المراكشية إلا منذ سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ — ٩٨٠ م) ، على درهم فاطمى ، ثم يعود بعد ذلك على قطع أموية مضروبة ، تحمل اسم هشام الثانى ، ومؤرخة فى فترة تتراوح بين سنتى ٣٧٧ هـ (٩٨٧ — ٩٨٨ م) و ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨)[١] .

هل فى تقرير هذه الحقائق جرأة ومجازفة ، اعتماداً على صفتها الحقيقية التى لا تجحد ، وذلك على فرض أن مدينتى موقع فاس — اللتين يعد وجودهما المتوالى الطويل حقيقة تاريخية ثابتة — ليستا كما اعتقدنا إلى الآن متقاربتين فى النشأة بمدة سنة ، ولـكن إحداهما بنيت قبل الأخرى منذ طفولة إدريس الثانى ، بل وفى عهد أبيه إدريس الأول ؟

هذا الفرض الذى يحل المشكلة الغامضة للتأسيس المزدوج المتقابل ، بالإضافة إلى دراسة عدد معين من النصوص التاريخية التى لم يأبه

---

(١) انظر خاصة : ف . كوديرا F. Codera فى :
Cecas Arabigo - espanola
طبعة مدريد ، ١٨٧٤ ، ص ٥٠ — ٥١ ، هـ . لافوا H. Lavoix فى كتابه المذكور ص ٩١ رقم ٣٢٨ — ٣٢٩ (سنة ٣٨٨ هـ) ، هـ . نوتزل H. Nützel فى كتابه المذكور ص ٥٤ — ٥٥ رقم ٣٩٠ — ٣٩٨ (سنوات ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٢ هـ) . وكذلك :
A. Prieto y Vives : Numismatica Africana : Los Fatimitas en Fez
المنشور فى :
Homenaje a D. Francisco Codera
طبعة سرقسطة ، ١٩٠٤ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

لها النقاد إلى الآن لمخالفتها الفكرة الشائعة ، كل هذا يؤيد ذلك الحل كل التأييد ، بل إنه ليحيله إلى تأكيد لا نقاش فيه ولا جدال .

* * *

ومؤلف أول هذه النصوص هو القرطبي أبو بكر أحمد بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وهو أقدم مؤرخى العرب للأندلس[١] . على أن كتابه نفسه لم يصلنا ، ولكن الاقتباسات الكثيرة التى أخذتها عنه الروايات التالية ، وبخاصة ما ورد فى كتاب « الكامل » لابن الأثير[٢] ، تسمح بوضع تاريخه فى المقام الأول .

وعلى هذا نسوق إليك خلاصة ما ورد فى كتاب « الحلة السيراء » لابن الأبار[٣] ، فى سياق خبر عن إدريس الثانى :

(١) انظر مقالى فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ من ص ١٢١٥ - ١٢١٦ تحت مادة الرازى .

(٢) انظر دراسة :

Cl. Sanchez-Albornoz - Rasis fuente de Aben Alatir

الوارد فى مجلة Bulletin hispanique ج ٤١ سنة ١٩٣٩ ص ٥ — ٥٩ . هذا وينبغى بهذه المناسبة ملاحظة أن ابن الأثير لا يذكر شيئاً عن تأسيس فاس .

(٣) فى الجزء من هذا الكتاب الذى نشره :

M. J. Müller: Beiträge zur Geschichte der Weltlichen Araber

طبعة ميونخ سنة ١٨٧٨ ص ٢٠١ . ولم تفلت هذه الفقرة من الحلة من يد فورنل Fournel ، حيث ذكرها فى كتابه ج ١ ص ٤٦٤ حاشية ٤ ، نقلا عن غزيرى Casiri . غير أن البيانات التى ذكرها قد رفضها هو نفسه لأنها لا تتفق مع الروايات المتواترة .

ذكر الرازى أن إدريس بن عبد الله — أى إدريس الأول — دخل المغرب سنة ١٧٢ ﻫ فى شهر رمضان (فبراير ٧٨٩ م) ، وذلك بعد أن هرب للخلاص من تعقب أبى جعفر له ، حيث يقف فى بقعة تدعى وليله قرب وادى الزيتون ، حيث اجتمعت حوله قبائل البربر ، واتخذته زعيما لها ، فأسس مدينة فاس التى كان موضعها بركة مغطاة بالأعشاب . وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا فى حفر أساسها وجدوا فأساً فى موضع الحفر ، وسكنها البربر . ولم يطل حكم إدريس الأول إذ انتهى فى سنة ١٧٤ ﻫ (٧٩١ م) حيث ترك أَمَةً حاملا منه ، وضعت بعد وفاته ابناً سمى إدريس ، وهو الذى صار بعد أبيه ملكا على مدينة فاس ، وكان حكمه طويلا . وقد مات فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ ﻫ (مايو — يونيه ٨٢٨ م) . وكان ميلاده فى شهر ربيع الثانى سنة ١٧٢ ﻫ (أغسطس ٧٩١ م) .

هذه العبارة ليست أكثر وضوحاً ولا أكثر دقة ، إذ أنه بناء على ما ذكره الرازى تبدو مدينة فاس منشأة مدنية من صنع إدريس الأول وترجع على أكثر تقدير إلى سنة ١٧٢ ﻫ ، وهى سنة وصوله إلى مراكش ، كما لا يتأخر تاريخ إنشائها تبعاً لهذا عن سنة ١٧٤ ﻫ التى تولى فيها . وعلى هذا يكون إدريس الأول المؤسس الأصلى لها ، كما تعد هذه المؤسسة — التى تأخذ منذ عهده اسم فاس — مدينة بربرية .

وهناك شهادة أخرى لابن سعيد المغربى[1] — الذى استق معلوماته بوجه عام من مصدر وثيق لا يقل عن سابقه فى الأهمية. وها هو ذا نصه كما ورد فى « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العُمَرى[2] ، وفى « صبح الأعشى » للقلقشندى[3] :

« قال ابن سعيد فى المُغرِب : وهى مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبد الله (أى إدريس الأول) ، أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب ، وتعرف بعُدوة الأندلسيين ، والأخرى بُنيت بعدها وتعرف باسم عدوة القرويين ».

---

(١) لا نملك مع الأسف هـذا الجزء من المغرب لابن سعيد الخاص بمراكش. والنسخة التى بخط المؤلف المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة لا تحوى غير أجزاء عن مصر وإسبانيا. [المترجم : نشرت هذه الأجزاء]

(٢) انظر ترجمة M. Gaudefroy Demombynes فى كتابه :
L' Afrique moins l'Egypte
طبعة باريس ، ١٩٢٧ ، ص ١٥٩ .
ونجد على نفس الصفحة فى الحاشية ٣ ترجمة مستخرج من كتاب « الروض المعطار » لابن عبد المنعم الحميرى متعلقة بتأسيس فاس كما أورده « صبح الأعشى » ، وإن لم يكن هنا أكثر من مجرد نقل روايات عن البكرى وكتاب « الاستبصار ». أما باقى الحاشية عن فاس ، فنجده فى كتاب ابن عبد المنعم الحميرى . انظر ليفى بروفنسال E. Lévi-Provençal فى كتابه :
La peninsule ibérique au 'moyen-âge d'après Le Kitab ar-Raud Al Mi'tar
طبعة ليدن ، ١٩٣٨ ، والحاشية المذكورة لا تقدم أى معلومات جديدة .

(٣) طبعة القاهرة (دار الكتب المصرية) ج ٥ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

أوليست هذه البيانات هى التى ذكرها الرازى ، وهى تثبت أن مدينة فاس التى تنسب إلى إدريس الأول هى تلك التى أطلق عليها فيما بعد عدوة الأندلسيين ؟

أما عن المدينة التى أطلق عليها اسم عدوة القرويين ، فهى من إنشاء إدريس الثانى ، وفيما عدا ذلك فها هو الدليل :

لم يفعل البكرى أكثر من وصف فاس فى عهده ، فقدم بعد وصفه لها ملحوظة قيمة عن تاريخ الأدارسة ، هذه الملحوظة التى استعان فى ذكرها بمؤرخ ضاع كتابه ، ونعنى به أبا الحسن النوفلى الذى ورد ذكره فى كتب التاريخ المغربى فى العصور الوسطى ، حيث يصرح هذا المؤرخ — فيما نقله عنه خاصة الجغرافى الأندلسى[1] — بأن إدريس الثانى وَفد سنة ١٩٢ هـ (٨٠٨م) للاستقرار فى مدينة فاس على « عدوة الأندلس وظل فيها شهرا » . حدث هذا فى نفس الوقت الذى قتل فيه أبو ليلى إسحق زعيم الاوْرَبيين ، وهذا مما يدل على أن مدينة فاس كانت موجودة فعلا فى هذه الفترة .

ويقرر نفس المؤلف بعد ذلك مباشرة ما نصه[2] :

(١) انظر : البكرى : « وصف ... » النص ص ١٢٣ .

(٢) الفقرة التالية توجد نصاً فى ابن عذارى « البيان المغرب » ج ١ طبعة دوزى Dozy ليدن ١٨٤٨ ص ٢١٨ ترجمة Fagnan طبعة الجزائر ١٩٠١ ص ٣٠٤ . وهذا هو كل ما ذكره هـذا المؤرخ الصبور عن تأسيس فاس . وقد جمع تاريخه عن المغرب الإسلامى فى سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) ، انظر مجلة Hespéris ج ١٨ سنة ١٩٣٤ ص ٥ وحاشية ١ .

فى هذه اللحظة (وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك) ، كانت عدوة القرويين غياضاً فى أطرافها بيوت زُواغَة ، فأرسلوا إليه ، ودَبّر فى البنـاء عندهم ، فكان ابتداء بناء فاس سنة مائة وثلاث وتسعين (٨٠٩ م) » .

وقد نقل هذا الرأى ابن الأبار فى كتابه « الحلة » نقلا عن النوفلى[١] ، عند كلامه على ثانى الإدريسين ، ويلاحظ أنه لم يشر إلى مدينة فاس ولا « عدوة الأندلسيين » : فقد ذكر أن البربر أعلنوا إدريس الثانى أميراً عليهم يوم الجمعة من شهر ربيع الثانى سنة ١٨٧ هـ (إبريل ٨٠٢ م) ، وكان عمره أحد عشر عاماً ، فأسس « مدينة القرويين » فى سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) ، ثم رحل إلى نَفّيس فى المحرم من سنة ١٩٧ هـ (سبتمبر — أكتوبر ٨١٢ م) ، ثم جرّد بعد ذلك حملة على نَفَزَة فى بلاد تِلِمْسان ، ومات فى سنة ٢١٣ هـ ، (٨٢٨ م) وعمره ثلاث وثلاثون سنة .

فهذه الفقرات الأربع التى أوردناها هنا ، تكفى تماماً لاستشهادنا ، ولنضف إليها فقرة خامسة — على الرغم من اللَّبس فى التاريخ بين إدريس الثانى وابنه القاسم — تحتفظ لنفسها على الأقل بقيمة ما . وهى توجد فى مجموعة متفرقات تاريخية لمؤلف مجهول كتبها فى فترة متأخرة نسبياً ، ولكنها كتبت فى الواقع فى القرن الرابع عشر فى عهد

---

(١) انظر M. J. Müller فى كتابه المذكور ص ٢٠٠ .

دولة بنى نصر ، ملوك غرناطة ، وعنوانها « الزهرة المنثورة فى الأخبار المأثورة »[1] ، حيث تبدو الملاحظات الواردة بها ، وهى كثيرة عن الغرب الإسلامى ، منقولة غالباً عن تاريخ الرازى . وقد تناولت الزهرة الخامسة والسبعون تاريخ الثوار القرطبيين الذين طردهم من عاصمته الأمير الأموى الحكم الأول .

والمعروف عن هؤلاء الثوار أن جزءاً منهم لجأ إلى مدينة طليطلة فى إسبانيا نفسها ، ولجأ جانب آخر إلى الإسكندرية ، ثم بعد هذا إلى كريت[2] ، وهاجر فريق ثالث إلى مراكش . ويذكر المؤرخ المجهول أن « هذا الفريق قد اتجه إلى شمال إفريقية فى بلاد البربر ، حيث استقر على « عدوة الأندلسيين » ، وهى جزء من مدينة فاس . وهنا أخذت هذه الضفة ذلك الاسم ابتداء من وقت استقرار تلك

(١) نقل عنه المقرى فى « نفح الطيب » وأمدت مما نقله فى كتابى :

L' Espagne Musulmane au Xe Siècle. Institutions et Vie Sociale

طبعة باريس ، ١٩٣٢ ، ص ٨٥ .

(٢) انظر . إ . ليفى پروفنسال :

Un Echange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IX siècle.

الوارد فى مجلة Byzantion ج ١٢ سنة ١٩٣٧ ص ٨ — ٩ وحاشية ١ (أدنى ص ٨٩) .

حاشية — ترجمنا هذا البحث فى هذا الكتاب — المترجم .

الهجرات ، وبدأت تسميتها منذ ذلك التاريخ باسم «عدوة الأندلسيين». ثم عمرت هذه العدوة بالسكان ، بفضل مجيء هذه الهجرات ، حتى وَعت عدداً عديداً من المستوطنين ، واتخذت شكل مدينة ، (أى تمدينت) . حدث هذا فى سنة ٢٠٢ ﻫ .

وكان أمير الإقليم فى ذلك الوقت القاسم بن الأمير إدريس بن إدريس المهاجر إلى المغرب ، وهو الذى كان ابناً لعبد الله . وقد مضت ثلاثون سنة بين إعادة تأسيس المدينة على يد الأندلسيين ، وبين تأسيس مدينة فاس القديمة . وحقيقة الأمر أن مدينة فاس قد بنيت فى سنة ١٧٢ ﻫ ، عند ما دخل المغربَ جد القاسم — وهو إدريس بن عبد الله — هارباً من تعقب أبى جعفر المنصور له ، حيث التف حوله البربر عند ذلك ، وجعلوه على رأسهم ، وبنوا له مدينة فاس على موقع مستنقع عشبى . وعندما حفرت الأسس ، استكشفت فأس فى الأرض ، وهكذا سميت المدينة باسم مدينة فاس . ويطول الكلام لو استطردنا فى سرد تفاصيل هذا الموضوع .

فهذا النص الذى نقل بدون تغيير فى جزئه الأخير نصَّ الرازى الذى أورده هنا ابن الأبار ، والذى نقلناه آنفاً ، هو النص الوحيد الذى يمدنا بمعلومات دقيقة عن استقرار القرطبيين فى فاس ، ثم إنه يؤكد نسبة مدينة فاس إلى إدريس الأول ، وفيه إشارة إلى أن هذه

المدينة أنشئت نحو سنة ١٧٢ هـ ، أى قبل قدوم جماعة اللاجئين الأندلسيين بثلاثين عاما .

* * *

وهذه النصوص السابقة التى لم يولها أحد أهمية حتى الآن ، مع أنها تؤيدها النقود ، تؤدى بالضرورة إلى افتراض تاريخ جديد لإنشاء المدينتين . وهناك ثلاث مراحل متعاقبة متمايزة وهى :

(أولا) مدينة على الطراز البربرى أسسها ، أو تأسست لإدريس الأول فى الجزء الواقع شرقى فاس الحالية فى سنة ١٧٢ هـ (٧٨٩ م) ، وتسمى باسم مدينة فاس ، وتضرب فيها النقود ابتداء من تاريخ غير محدد ، ولكنه يرجع على الأقل إلى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) .

(ثانياً) يمضى إدريس الثانى فى سنة ١٩٣ هـ (٨٠٨ — ٨٠٩ م) ، أى بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة ، إلى المدينة المؤسسة فى الفترة القصيرة من حكم والده ، وهى التى كان يحتلها البربر وحدهم . ونظراً لأن إدريس الثانى كان مولعاً بالتجديد — وهو وَلَع نجد منه أمثلة كثيرة لدى الحكام فى التاريخ الإسلامى فى جميع العصور — فقد بنى هو الآخر فى الجزء الواقع إلى الغرب من نفس الموقع ، والذى وجده الأفضل ، مدينة

جديدة على الطراز الشرقى ، أو إذا شئنا على الطراز الإفريقى . هذه المدينة أطلق عليها رسمياً اسم « العالية » ، ولعلهم سَمّوها أيضاً فيما ذكر اليعقوبى[١] باسم « إفريقية » ، وهو اسم له علاقة واضحة بالاسم الذى انتهى به الأمر إلى أن صار شائعاً على ألسنة الناس ، فقالوا « مدينة القرويين » أو « مدينة القيروانيين » .

(ثالثاً) بعد ذلك بتسع سنين ، فى سنة ٢٠٢ ﻫ (٨١٧–٨١٨م) ، كان حضور القرطبيين المعروفين باسم « ثُوار الرَّبض » إلى إدريس الثانى مؤدياً إلى إضعاف الصبغة التى اتّسمت بها مؤسسة أبيه الواقعة على الضفة اليمنى من وادى فاس ، حين استقروا فيها . وقد أنشأوا مدينة فاس على النمط الأندلسى ، وما لبثوا أن أعطوها طابعا جديداً لمدينة منظمة لم يكن لها من قبل ، وهكذا لم يلبث اسم « مدينة الأندلسيين » أن حل محل الاسم القديم وهو « مدينة فاس » ، فصار يطلق بعد ذلك على كل الإقليم والمدينتين القائمتين فيه .

والآن وقد استقر الرأى على هذا التاريخ ، لم يبق أمامنا إلا بيان كيف أن التأريخ الخاطئ بسنتى ١٩٢ ﻫ و١٩٣ ﻫ . وقد ظل معترفا

(١) يميز هذا المؤلف على عهده بين مدينتين كانتا موجودتين فعلا على موقع فاس : وهما مدينتا إفريقية من ناحية ومدينة أهل الأندلس من ناحية أخرى ، وكانتا منفصلتين إحداهما عن الأخرى بنهير اسمه فاس . وتؤكد قراءة كلمة إفريقية أيضاً المخطوط الذى استخدمه De Goeje لطبعاته لليعقوبى ، وهو يذكر لفظاً يمكن مع التسامح اعتباره قريباً من اللفظ البربرى « أفرج » Afrag وجمعها إفرجان Ifergan المذكورة قديماً بمعنى « حى به معسكر الحاكم » .

به لدى الناس كافة ـ قد استقر فى الرواية القديمة عن إنشاء مدينة فاس ، وحل محل التاريخ الحقيقى عن طريق كثير من المؤرخين منذ عصر متقدم .

ولا تعوزنا الحجج لتوضيح هذه النقطة . فأولا من المحقق أن لَبْسا قد وقع بين إنشائين : هما إنشاء مدينة فاس ومدينة إدريس الثانى الجديدة ، وخاصة منذ أطلق اسم فاس على مجموع المنشأتين معا . وينبغى أيضا مراعاة الظروف القليلة الذكر فى حوليات التاريخ الإسلامى عن حاكمين متتاليين يحملان نفس الاسم : فتشابه الإدريسين قد زاد اللَّبس . ولعل أساس هذا اللبس التاريخى يرجع إلى خطأ يسير فى القراءة . ويمكن أن تعد هذه الحجة قاطعة دامغة ، لاسيما إذا كان منها عندنا أمثلة كثيرة بسبب ضعف الخبرة فى المخطوطات العربية ، ويرجع ذلك إلى تشابه الألفاظ ، كلفظى «سبعين» و «تسعين» .

فعند ما ينقل ناسخ تاريخ سنة ١٧٢ هـ الخاص بتأسيس مدينة إدريس الأول نجده يحرفها بحسن نية إلى ١٩٢ هـ ، وهو لا يعتقد أو يشك فى أنه قد حدد بذلك مبدأ لرواية قد صارت مع الزمن تحمل طابع الحقيقة التاريخية . فمنذ اللحظة التى يصرف فيها النظر عن سنتى ١٧٢هـ و١٩٣هـ كتاريخين لتأسيس المدينتين ، إلى سنتى ١٩٢هـ و ١٩٣هـ ، فلا مجال للحديث عن إدريس الأول . وهكذا نرى أن الإنشاءين لا يفصل بينهما غير عام واحد ، وليس واحداً وعشرين عاما ، بحيث

أصبحتا بالضرورة منذ ذلك الحين تعتبران من إنشاء إدريس الثانى .

- ٣ -

ويبدو لنا بعد هذا التحديد الزمنى الجديد - كما استخرجناه من النصوص العربية التى ظلت غامضة إلى الآن - أن العرض الطويل الذى أورده « روض القرطاس » يعتوره بعض القصور . ومن هذه الأسس الجديدة تتضح لنا تفاصيل جديدة تتفاوت فى أهميتها ، وإن كان يصعب استخراجها . هذا مايهمنا عرضه الآن .

وأول هذه الأمثلة الفقرة الواردة فى الرازى وقد ذكرناها آنفا ، والتى أوردها أيضا كتاب « الزهرة المنثورة » فيما يختص بأسطورة الفأس التى كشفت فى أثناء حفر إدريس الأول لأسس مدينته ، تلك الأسطورة التى حكاها أيضا ابن أبى زرع الذى يحكى بدوره أنه أخذها عن كتاب « الاستبصار » ، حيث لانجدها على الرغم من ذلك ، أو على الأقل فى النص الذى نُشر . ألا يمكن والحالة هذه أن نفترض حدوث عدة تخريجات أخرى مماثلة من « روض القرطاس » ، حيث نجد إدريس الثانى يتدخل فيها كشخصية رئيسية أُقحمت على أصل إنشاء مدينة فاس على يد إدريس الأول كما رواها المؤرخون السابقون ؟

ويقل احتمال تحقيق هذا الفرض أو تأكيده فى يوم من الأيام عن طريق كشف المصادر التى نقل عنها ابن أبى زرع فى فصله

الخاص عن أصول المدينة . ومع هذا فإن هذه المصادر قليلة العدد . ومع أن كتاب « القرطاس » يذكر البكرى كثيراً فى معرض شرحه للنشاط السياسى للأدارسة الأول ، إلا أنه لا يذكر أبداً مرجعه الذى أخذ عنه ، عندما يتعرض لتأسيس فاس .

وفى هذا الموضوع نجده يستفيد خاصة من كتاب مؤرخ يدعى ابن غالب تختلف فيه الروايات التاريخية ، ولكنه يبدو أنه ترك تاريخا لفاس عنوانه « المِقباس » ، نسخه عنه عبد الملك الورّاق[1] ، فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . ولا نعلم كثيراً عن هذا المؤرخ الأخير الذى لا ينبغى خلط اسمه بسَمِيّه الأقدم منه محمد بن يوسف الوَراق[2] ، المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، ومؤلف عدة

(١) لا توجد لدينا بيانات أخرى عن المدة التى عاش فيها أكثر مما يذكره هو نفسه فى معرض حديثه عن المسجد الإدريسى فى تلمسان (نص « روض القرطاس » ، ص ٢٧ من طبعة تورنبرج Tornberg ، نقله الجزنائى فى « زهرة الآس » ، ص ٢٢ ، وترجمته ص ٦٠) : « قال أبو مروان عبد الملك الوراق : دخلت مسجد تلمسان سنة خمسمائة وخمس وخمسين (١١٦٠ م) » . ومع ذلك يمكن ملاحظة أن فى بعض نسخ « القرطاس » تاريخاً آخر وهو سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) .

(٢) انظر عن هذا المؤرخ :

Pons Boigues : Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y géografos arábigo - espanoles

طبعة مدريد ، ١٨٩٨ ، رقم ٣٩ ، من ص ٨٠ — ٨١ ، والمراجع المذكورة به ، وكذلك :

R. Brunschvig : Un aspect de la littérature historico-
= géographique de l'Islam

مؤلفات من بينها رسالة جغرافية عن شمال إفريقية ، التى كانت المصدر الرئيسى للبكرى . ولا يبدو « المقباس » لابن الوراق مذكوراً فى « القرطاس » إلا عن طريق ابن غالب . وهذه بغير شك هى نفس حالة ابن أبى زرع عندما نقل هو أيضاً بطريق غير مباشر شهادة مؤرخ آخر يدعى البرُنُسى . ولا يعلم عنه إلا أنه كان يسمى بالضبط باسم محمد بن حَمَدُوه البُرنسى ، وأنه كان من مدينة سَبْتَة ، وأنه عاش فى النصف الأول من القرن الثانى عشر [١] ، وأنه وضع تاريخا عن المغرب والأندلس عنوانه « المقتبِس » .

ذكرنا آنفاً أن مدينه فاس فى عصر إدريس الأول ، كانت لا تبدو أكثر من أنها مدينة بربرية صغيرة . ولم يزل بمراكش أمثلة عدة لهذا النوع من المدن مما يحمل طابع القرى الرعوية خاصة . وهى تكوّن غالبا تكتلات قليلة الكثافة إلى حد ما ، تنشأ فى طريق جبلى أو فى الجبل نفسه ، وتكون محصنة تحصينا بدائيا ، حيث نجدها متراصة بوجه عام ، على سفح ينحدر إلى بطن أحد الأودية ، ويمكن

= مستخرج من : Mélanges Gaudefroy - Démombynes طبعة القاهرة ١٩٣٧ ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

(١) كان تلميذاً للقاضى عياض اليَحصُبى السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ — ١١٥٠ م) . انظر R. Brunschvig فى كتابه المذكور ص ١٥٦ حاشية ٢ عند كلامه على مؤرخ آخر اسمه مشابه . وقد ذكر المؤلف المجهول لكتاب « مفاخر البربر » كتاب « المقتبس » كما ذكره ابن عذارى فى كتابه « البيان » والمقرى فى كتابه « أزهار الرياض » .

إقامة سوق متنقلة تحت حوائطها مرة كل أسبوع . أما فى الداخل فيلاحظ ـ فيما عدا البيوت ذات المظهر الفقير جدا ـ وجود مراع للماشية ، وفى بعض الحالات يلاحظ وجود مخازن جماعية ، تكون مخصصة لاختزان حبوب الأهالى . هذه المخازن الجماعية أو الأجادير ، تأخذ أحيانا مظهر قلاع حقيقية : وهى لم تزل للآن كثيرة جنوبى مراكش حيث بحثها الباحثون[1] ، وإن وجدت أيضا فى مراكش الوسطى .

وقد اختفى كثير من هذه المدن الصغيرة على مر الزمن ، غير أن البكرى فى القرن الحادى عشر ، بل وليون الإفريقى أيضا فى مطلع القرن السادس عشر يقرران وجود قليل من مثل هذه المدن الصغيرة المحصنة فى كل الجزء الغربى من بلاد البربر ، محاطة بحيطان من الأحجار . وقد ازدهر بعضها وصار مدنا حقيقية ، كما حدث فى مدينتى أغْمَات ونَفيس عند قاعدة الأطلس الكبرى ، وهما اللتان هدمتا منذ زمن طويل ، ومثل « المدينة المتسعة » التى كانت مِكْنَاس البدائية[2] . هذه كانت بلا شك فاس العتيقة .

---

(١) انظر :

. Montagne : Un magasin collectif de l'anti atlas l'Agadir des Ikounka

الوارد فى مجلة Hespéris ج ٩ سنة ١٩٢٩ ص ١٤٥ — ٢٢٦ . انظر خاصة نفس المرجع ص ٢٠١ — ٢٠٢ فيما يختص بالصوامع الجماعية فى شمال مراكش .

(٢) يرجع الفضل فى الحصول على بيانات وافية عن أصول مكناس إلى الكتيب =

وإنه ليتطرق إلينا الشك على الأقل عندما نفحص عن كثب البيانات التى أوردها « روض القرطاس »، بصدد التأسيس الإدريسى الأول، حيث نقرأ فيه أن إدريس بدأ بإقامة خيامه على الحافة الشرقية للموقع الحالى للمدينة، وأنه أحاط معسكره بجدار (جَدْر) من جذوع الشجر والغاب.

وكان فى داخل هذا الجَدْر — وهى كلمة كما أوردها المؤرخ، لا يمكن أن تكون غير مجرد نقل عربى للاسم القديم البربرى الفينيقى أجادير[1] — يجتمع مجلس مشايخ البربر ممن كانوا بقية اللاجئين

= الصغير الذى كتبه ابن غازى المتوفى سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) والمسمى : « الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون » (طبع حجر فى فاس سنة ١٣٢٦هـ) ترجم جزءاً منه :

O. Houdas : Monographie de Mequinez

الوارد فى Journal Asiatique، ١٨٨٥، مجلد ١ ص ١٠١ — ١٤٧.

انظر كتابى :

Historiens des Chorfa (من ص ٢٢٧ — ٢٢٩) والتعليقات التى ذكرها المؤرخ المعاصر عبد الرحمن بن زيدان العلوى فى المجلد الأول من تاريخه عن مكناس المسمى « إتحاف أعلام الناس »، طبعة رباط ١٩٢٩.

انظر أيضاً :

H. Terrasse : Villes impériales du maroc

ص ٢٠ و ١٣٠ — ١٣٢.

(١) تحولت إلى أجدير Adjdir فى بعض أسماء المواقع بمنطقة الريف. انظر : R. Montagne فى كتابه المذكور آنفاً ص ٢٠٢ وحاشية ٤، فيما يتعلق بجدر — أجادير djadr-agadir : انظر فيما يتعلق بأجادير تلمسان كتاب : =

إلى الشرق . ولا يزال يسمى إلى اليوم احد مجالس إقليم الريف باسم أجراو Agrau [1] ، وهى كلمة باقية من ذلك العهد تشير إلى موقع هذا المعسكر الذى سمى فى القرن الرابع عشر ، ولا يزال يسمى اليوم أيضا ، غاروواوا Garwawa .

وحتى جامع مدينة فاس الفطرى الذى لا نعرف عنه غير قليل من المعلومات ، يحمل هو أيضا فى نفس تسميته طابع البربرية ، وهو اسم « مسجد الشيوخ » ، أى شيوخ البربر وهم الإمْغَارِن

J. L. Bargès : Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce = nom ، طبعة باريس ١٨٥٩ ص ١٥٢ ــ ١٥٣ وكذلك كتاب :
W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen
ص ١٢ حاشية ٢ .

(١) انظر :
R. Montagne : Les Berbères et la Makhzen dans le Sud du Maroc
طبعة باريس سنه ١٩٣٠ ص ١٧٥ وحاشية ١ . والغريب أن البيذق ذكرهذا اللفظ منذ القرن الثانى عشر واستعمله فى المعنى العربى « مجلس » فى صدد الحديث عن ثوار غزوله ، واتحادهم السابق لذبحهم على يد الخليفة عبد المؤمن فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥م). انظر :
E. Lévi-Provençal : Documents inédits de l'histoire almohade
طبعة باريس ١٩٢٨ النص ص ٩٥ وترجمته ص ١٥٥ . انظر أيضاً ص ٢٣٢ . وهذا الاستشهاد القديم إلى هذا الحدبكلمة لاتزال إلى الآن مستعملة فى شمال مراكش يبدو أنه لم يذكر فى :
G. Marçais : Les phrases berbères des «Documents Inédits d'histoire almohade»
الوارد فى مجلة Hespéris ج ١٤ سنة ١٩٣٢ ص ٦١ وما يليها .

Imgharen الذين اعترفوا بزعامة إدريس ، ورافقوه فى رحلاته . هذا الجامع بلا شك — شأنه شأن كل المنشآت فى هذه المدينة الصغيرة البُدَائية — لا بد أنه كان شيئا بالغا غاية التواضع ، فالماء اللازم للوضوء فيه كان يستخرج من بئر ، ولم يكن هناك أحد فكر بعدُ فى حفر قنوات مائية تأخذ من النهير القريب . كما أن الأحياء الخاصة بالفروع القبلية من السكان لم تنشأ إلا فيما بعد ، وهى أحياء صِنْهاجَة واللَّوَاتَة ومَصْمُودة وآشنيخن Ashnikhen .

ويمكننا استنتاج أن مدينة فاس ، بعد وفاة إدريس الأول ، عاشت فى تراخٍ ودَعَةٍ تامة داخل حدودها ، وإن كان رشيد قبل تولية إدريس الثانى نفسه فى سنة ١٨٨ هـ (٨٠٤ م) قد أقام عليها ممثلا ، أو مندوبا عن حكومة المخزن فى وليلة . وعلى أى حال نكرر القول بأنه قد ضُربت فيها العملة فى سنة ١٨٥ هـ ، أى قبل هذه التولية بثلاث سنوات ، ثم فى سنة ١٨٩ هـ ، أى بعد ذلك بسنة أيضا .

ولم يجد البربر القاطنون فى وليلة هذه مناصا من ترك هذه البقعة للعرب . وكتاب « روض القرطاس » يصف لنا كيف تم هذا . وفى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) نجد إدريس الثانى — وقد أتم سنته الرابعة عشرة — يستقبل فى حفل من خمسمائة فارس عربى يصلون من إفريقية وإسبانيا ، حيث يجتمع ممثلو نخبة الأرستقراطية العربية ،

ممن ينتمون إلى قبائل قَيْس والأزد ومَذْحِج ويَحْصُب[١] والصَّدِف[٢].
ويظن أن هؤلاء كانوا ساخطين على الحكم الأموى فى بلاد الأندلس أو حكم الأغالبة فى إفريقية ، بحيث عد مجيئهم كَسْبًا نادراً ، وذلك لأن إدريس كان يشعر بالعزلة والوحدة فى الوسط البربرى الذى أحاط به منذ ولادته ، وأخذ يستغل وجود هذا الفريق المهم من العرب الخُلَّص من حوله للتخلص تدريجاً من البربر المحيطين به . ولا يلبث أن يصبح له بلاط عربى بحت ، له وزير وكاتم سر وقاض منتخبون من أفاضل الوافدين الجدد . ولا يلبث أن يقرر بناء على مشورتهم — وإن كان ذلك من غير الكياسة بل وربما من غير الصواب أيضا — أن يحتفظ بمقامه فى قلب أَوْرَبَه Awraba التى لم يكن يثق بها ، رغم ترحيب رجالها بأبيه ، وإقامتهم إياه أميراً عليهم منذ عدة سنوات مضت .

صار هذا القرار لامفر منه منذ اللحظة التى قتل فيها فى سنة ١٩٢ هـ الزعيم الحقيقى لحلفائه البربر وهو أبو ليلى إسحق . وعلى هذا يغادر إدريس الثانى مدينة وليلة مع حلفائه العرب ، ويلجأ إلى مدينة فاس ، لعله يأنس بأهلها ، ولا يجد فيهم الميول القبلية التى كانت لقبيلة أوربه . ومع هذا فإن وليلة لاتهجر هجراً تاما . إذ يعود إدريس الثانى إليها

---

(١) مثلثة الصاد . نسبة إلى يحصب بن مالك من قبيلة حمير فى اليمن . راجع القاموس المحيط ، مادة (حصب) واكتفاء القنوع بما هو مطبوع لفنديك ص ١٣٠ .
(٢) صدف على وزن كتف بطن من كندة (انظر القاموس مادة الصدف) .

ويموت فيها ، كما ورد فى أحد النصوص ويبدو أنه صحيح .

وكان إدريس الثانى صغيراً جداً لا يحتمل وحده عبء قرار كهذا ، ولكنه لم يعدم وجود مشيرين من بين خلصائه العرب ، وفى مقدمتهم وزيره عُمَير بن مصعب الأزدى . وعمير هذا معروف لنا معرفة لا بأس بها ، وهو جد أسرة من فاس ، أصبحت ذات شأن بفضل صلاتها بأسرة تلتها وهى أسرة بنى المَلْجُوم .

وفى « القرطاس » رواية مفصلة عن كشف موقع فاس ، يستفاد مما ورد فيها وكذلك مما ورد فى « ذكر مشاهير أهل فاس فى القديم »[1] — وهى رسالة مجهولة المؤلف ترجع إلى نهاية القرن الخامس عشر —

---

(١) يوجد بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم D. 1394 مخطوط وارد من المكتبة القديمة للبعثة العلمية بمراكش . وقد نسب هذا الكتيب الصغير أحياناً إما إلى عبد القادر الفاسى المتوفى سنة ١٠٩١ هـ (١٦٨٠ م) ، الذى يقارن به كتابى : Historiens des Chorfa ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، وإما إلى مؤلف « رَوْضة النسرين » وهو أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر المتوفى فى فاس سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ — ١٤٠٥ م) . ويبدو أن ثانى هذه النسبة أكثر صواباً ، على شرط أن نسمح بأن البيانات المتعلقة بحوادث تالية لوفاة ابن الأحمر ، والتى نجدها مراراً فى هذا الكتيب ، والمتعلقة بالقرن التاسع الهجرى بأكمله ، قد أدخلت عليه بعد تمحيص . انظر عبد الحى الكتانى : فهرس الفهارس ، طبعة فاس ١٣٤٦ هـ . ج ١ ص ١٠١ وكذلك :

Actes du VIIIe Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines

الوارد فى مجلة Hespéris ج ١٩ ، ١٩٣٤ ، ص ١٩٦ .

أن والد عمير هذا ، واسمه مُصْعَب ، كان مقيما بإسبانيا ، واشتهر فى جهاد المسيحيين .

والظاهر أن الوزير عُمير — الذى قيل عنه أنه تزوج عاتكة ابنة إدريس الثانى[1] — قد قام بدور مهم حاسم فى تأسيس مدينة « عدوة القيروانيين » . ولا شك إنه أقنع سيده الشاب بألا يقيم مقره فى مؤسسة أبيه مدينة فاس ، وأن يستقر بقربها على الجزء الأكثر ماء من هذا الموقع ، وأن يحسن إنشاءها المدنى الحقيقى الجدير بالمدن السورية والأندلسية الزاهرة فى ذلك الوقت . فأنشأ فى المدينة الجديدة قصراً للإمارة كما بنى مسجداً اسمه مسجد الأشراف ، وهو اسم يذكرنا بالسلالة النبوية للأدارسة . وأنشأ أيضاً قيسارية كتلك التى نراها فى دمشق وقرطبة .

وكان لابد للمدينة الجديدة من أن تنمو سريعا ، وكان أحد أحيائها خاصاً بيهود استقروا فيه وتزعموا النشاط التجارى . على أن الذين كانوا من العرب أو الموالى إنما كان أغلبهم من أولئك

---

(١) أخذنا هذه المادة المتعلقة بذكر مشاهير أهل فاس فى القديم ، فيما ذكره عن بنى الملجوم من سلالة عمير (مخطوط من رباط حجم كبير ورقة ٢ خلف) . وهذا الشخص ربما يكون قد تزوج من امرأتين أخريين ، عدا عاتكة هذه ؛ إحداهما من بنى الخير من زواغة ، والأخرى من بنى بهلول أحد فروع زناتة . وزواج عمير من عاتكة ابنة إدريس الثانى يبدو أمراً غير محتمل التصديق . وعلى فرض حدوثه فلا بد أنه تم فى أواخر أيام إدريس الثانى المتوفى — كما نعلم — فى السادسة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين من عمره .

غارين القيروانيين ممن وفدوا لخدمة الحكومة الأغلبية بإفريقية .
ا ا البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه . إذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع الذى يميز حياتهم ، وكانت قريبة من منازلهم .

ومن هذا نعلم أن إدريس الثانى قد احتفظ بمدينة فاس لكى تكون سكناً لجنده البربر ولضباطهم ، وهناك أيضا كان مناخ الدواب وخيول الفرسان . أما حاشية الأمير أو خاصته من العرب ، فقد استقرت معه على الضفة اليسرى من النهير .

وكل الدلائل تدل فى النهاية على أنه بينما كانت مدينة إدريس الثانى تنمو وتزدهر ، إذا بمدينة فاس القديمة تظل متأخرة فى مضمار المدن العربية ، بل وتزداد اضطرابا لدرجة أنها بعد ذلك بعدة سنين — عندما سمح الأمير للقرطبيين من أهل الربض بالإقامة فيها — لم تكن بلاشك أكثر من مجرد قرية كبيرة تقوم على بيوت متواضعة من اللبن ، مغطاة بفروع الأشجار . وكان على الأندلسيين أن يحسنوا مدينتهم سريعا ، ومع هذا فقد تركوا فى أحيائها المتطرفة طابعا ريفيا قويا ، لم يزل باقيا إلى اليوم ، رغم مرور قرون عدة من الزمان .

— ٤ —

ولكى نستوعب الروايات المتواترة عن تأسيس فاس، كما وردت فى «روض القرطاس»، يجب علينا أن نفحص سلسلة كاملة من الآثار والمعالم التاريخية، وهى — على الرغم مما يحيط بها من الخرافات — قد تهدينا إلى بحث مسألة لم تظفر حتى الآن بالبحث الكافى: ألا وهى مسألة الأصول التى سبقت الإسلام فى فاس.

ويتفق ابن أبى زرع مع الجزنائى فى إيراد بعض الحقائق الخاصة بالمحتلين لموقع المدينة المستقبلة فى وقت الاستقرار الإدريسى. وهى حقائق يؤيدها أحياناً ويكملها ذلك المصنف المجهول المؤلف الخاص بالأسر الشهيرة بفاس، وقد أوردنا ذكره آنفاً.

ويؤخذ مما ساقه صاحب القرطاس ومما تضمنته الروايات المعاصرة الأخرى عن بنى تمرين أن موقع فاس فى مطلع القرن العاشر كان يسكنه صنفان من بربر زناتة هما: زواغة وبنو يَزْغَتِن[1]؛

(١) فى طبعات «القرطاس» المختلفة عدة تصحيفات متباينة لاسم هذه العشيرة. وقد أخذت هنا بما ورد فى كتاب «ذكر مشاهير أهل فاس»، كما أورده أيضاً A. Bel فى ترجمته «لزهرة الآس» ص ٤٠ وحاشية ١ باعتباره الأفضل، وذلك لقربه من اسم القبيلة البربرية الهامة الحالية فى جنوب فاس وهم بنو يزغة Yazgha.

والأولون على الضفة الشرقية من النهير ، والآخرون على الضفة اليمنى . ومن هاتين العشيرتين اشتريت الأرض اللازمة لبناء المدينة . فتنازل بنو يَزْغَتِن أولا عن البقعة التي أصبحت فيما بعد « عدوة الأندلسيين » بثمن بلغ ألفين وخمسمائة درهم ، كما باعت إحدى عشائر زواغة - وتدعى بنى الخير - بعد ذلك أرضها بمبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة درهم ؛ وهى البقعة التى صارت فيما بعد تدعى « عدوة القيروانيين » .

من كان هؤلاء المحتلون ؟ من المؤكد أنهم سكنوا خياما من شعر المعز وهذا مايجعلنا نعتقد أنهم كانوا رعاة يمتهنون تربية الماشية ، بحيث لم يكلفوا أنفسهم عناء تنظيف الأرض التى على جانبى النهر ، حتى ظلت كثيفة مغطاة بالعشب ، تغشاها الحيوانات الضارية والخنازير البرية ، وليس هناك ما يغير هذه الحقيقة .

ويبدو لأول وهلة أن هؤلاء المحتلين القليلى العدد لم يكونوا مسلمين فحسب ، وإنما كان من بينهم أيضاً يهود ومسيحيون ومجوس[1] أى عبدة النار . ومع هذا فابن أبى زرع يكتب عن هذا الموضوع

---

(١) لبحث موضوع أتباع زرادشت واعتناقهم الإسلام انظر : V. F. Büchner فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ من ص ١٠١ — ١٠٥ .

كتابة مقتضبة . وكذلك الجزنائى وابن خلدون[١] . ومن المؤكد أنه فى هذه الحقبة وفى بلد لم يكن الإسلام قد انتشر فيه بعد بجذوره العميقة بدرجة كافية ، يحتمل وجود جماعات ظلت مرتبطة قليلا أو كثيراً بالعقائد المقتبسة عن اليهودية أو النصرانية كما أن وجود المجوس عباد النار أدهش الرواة الذين يصفونهم ، وزاد فى دهشتهم بناء هؤلاء المجوس لمعبد يزاولون فيه عبادتهم فى الشِّبوبه ، وتقع فى شمال الجزء الشرقى من تلك البقعة ، قريباً جداً من النهير .

أما ذكر مشاهير أهل فاس ، فهو أكثر دقة أيضاً فيما أورده عن أسرة بنى عَبودة ، إذ نقرأ فى هذه الرسالة[٢] : أن هذه الأسرة كان جدها يسمى غبودة ، وكان قيّما على النار التى كان يعبدها سكان فاس ، قبل تشييد المدينة . فما أن اشترى الإمام إدريس هذا الموقع ، حتى بناه لصالح أولئك الذين يعبدون الله إلى يوم القيامة ، بعد أن هدم بيت النار . وكان هذا البيت فى البقعة المسماة باسم شِبوبى ، وهى جزء من مدينة الأندلسيين . وعند ما استقر الإمام فى غَرْواوه Garwawa دعا الناس إلى بناء بيوت لهم ، وكان من بين النازلين فيها من يعتنقون دين المجوس عبدة النار ، والنصارى عبدة الصليب ، واليهود أصحاب

---

(١) أدخل هذا المؤرخ قصة قصيرة عن تأسيس فاس فى الفصل الخاص من كتابة بر » المتعلق بتاريخ الأدارسة .

(٢) حاشية رقم ٦٣ حجم كبير ورقة ١٢ خلف ، من مخطوط الرباط .

عقيدة التجسم ، كل أولئك تحولوا إلى الإسلام . وكان عبودة من بين أولئك الذين أسلموا على يد الإمام إدريس ، وكان أصلا من عشيرة بني يَزْغَتِن الذين كانوا من البربر .

وإذا كان وجود هؤلاء المجوس فى مكان فاس يبدو لنا صعب الاحتمال ، فإن وجود تجمعات يهودية يعتبر أكثر قبولا ، إذ أن وجودهم كان مؤكداً فى كل شمال إفريقية — فضلا عن باقى بلاد البربر — فى وقت ظهور الإسلام . كما يبدو أنه لا مانع من الاستنتاج دون خشية أو حرج أن جانباً من الجالية اليهودية التى احتوتها فاس دائماً منذ القرون الأولى لوجودها ، يمكن ربط أصولها بهذه المجموعة المتهودة من البربر الزناتيين[1] . وهل تحول هذا الفريق — كما تقول الروايات المتواترة — إلى الإسلام على يد الأمير العربى؟ قد يكون هذا موضع شك ، وعلى أى حال ف «القرطاس» يلاحظ أنه منذ ولادته ، والمؤسسة المدنية الجديدة تجتذب إلى داخلها أفواجا من اليهود . فقد خولهم إدريس الثانى حق بناء حى فى الجزء الشمالى من الموقع الغربى ، وذلك نظير دفع ضريبة الرأس المحددة سنوياً

(١) لا يمكن الوثوق تماماً فى المؤلفات الخاصة بأصول يهود مراكش تأليف N. Slouch فى Archives Marocaines ج. ٤ و ٦ بعنوان :
Etude sur l'histoire des Juifs au maroc.

وكذلك ج ١٤ بعنوان :
Hebréo - Phéniciens et Judéo - Berbères. Introduction à l'histoire des Juifs et du Judaïsme en Afrique.

بمبلغ ثلاثين ألف دينار . وتعطى ضخامة هذا المبلغ فكرة عن عدد المهاجرين اليهود الكبير نسبياً .

وكذلك لاداعى للشك — دون تثبت — فى وجود جالية مسيحية — أو المسيحية ذاتها — فى آخر القرن الثامن فى موقع فاس ، أو ما حولها . دون فحص أو تمحيص . وهناك عدد من التفاصيل التى تبدو مؤيدة لهذا الرأى ، رغم ورودها بشكل أسطورى واضح . والمعروف أنه ليس من النادر أن نجد فى روايات تأسيس المدن الإسلامية ما يصوره شاهد عيان بصورة روائية ، مصحوبة باستشارات فلكية وتضحيات دينية ، بل كانوا يلجأون أيضاً إلى تنبؤات عن الحظ المنتظر للمدينة المقبلة .

ونذكر من هذا القبيل فيما يختص بالغرب الإسلامى ، روايات استفاضت فى إسبانيا ، فى نهاية القرن العاشر عن مقر الزهراء والزاهرة ، المنشأتين غربى قرطبة وشرقيها على يد الأمويين والعامريين[1] .

ففيما يختص بتأسيس فاس ، لم نعدم وجود روايات مماثلة قبل مؤرخو العصور الوسطى بعضها . ولقد لاحظنا الآن بحق كيف أن اغتيال اللص الزنجى علون بأمر إدريس الثانى ، أمكن

---

(١) انظر خاصة :

E. Lévi-Provençal : La péninsule ibérique au moyen-âge d'après le Kitab ar-Rawd al mi'tar.

من ص ١٠٠ — ١٠١ .

تأويله بحسب رواية القرطاس « باعتباره تضحية حقيقية فى سبيل البناء »[١] . ولا يقل عن هذا دلالة ما ورد فى نفس الكتاب من تفصيل يتصل بمقابلة مؤسس فاس لأحد الرهبان المسيحيين . هذا الراهب الذى عاش زاهداً فى صومعته[٢] ، يقال إنه تنبأ للأمير العربى نبوءة خاصة به ولم يكن يعرفها أحد سواه ، كما يقال إن زاهداً آخر عاش فى نفس الدير ، أسر إليه بأن حاكما مسلماً اسمه إدريس ، سوف يقيم المدينة التى كانت مهدمة من زمن طويل ، وكانت قائمة فى نفس البقعة من قبل باسم ساف .

ولعل إدريس قد مال إلى الاحتفاظ لمؤسسته باسمها القديم الذى كانت تحمله لتأثره به ، وذلك بالتجائه إلى قلب الحروف ، مما نتج عنه اسم فاس . ويؤكد ابن أبى زرع حدوث هذا الاشتقاق فى تسمية المدينة ، ويعتبر ذلك — فى نظره — الرأى الراجح !

وهناك اشتقاق آخر لاسم فاس ، يجب ذكره ، فيما يتعلق بكشف فأس وجدت مدفونة فى الأرض ، أثناء عمليات حفر وبناء أحد أحيائها . ولم يكن هذا هو الكشف الوحيد ، إذ يورد « القرطاس »

---

(١) انظر : A. Bel فى ترجمته لـ « زهرة الآس » ص ٥٤ حاشية ٣ .

(٢) انظر : R. Dozy فى كتابه :
Supplément aux dictionnaires arabes.
الجزء الأول ص ١٤٨٠ .

أيضاً ما ذكره البرنسي ، وذلك أن يهودياً استخرج فى أثناء حفره لأساسات بيته — فى أرض كانت مغطاة إلى هذا الوقت بالأشجار — تمثالا لامرأة من الرخام يحمل نصوصاً محفورة بحروف غامضة حميرية أو هندوسية[١] . وقد حلت رموز هذه النصوص ، فجاء فيها أن « هذا موقع حمام حار كان مأهولا منذ ألف سنة ثم دمر ، وأقيم فى مكانه بيعة للعبادة » .

وهنا ندرك بسهولة أنه من العبث ، ومن غير المجدى أن نبحث فى القيمة التاريخية لكل من هذه الروايات القصصية الثانوية عن تأسيس فاس . وإذن أفليس من الأجدى أن ننظر إلى هذه الروايات على اعتبار أنها تصور رواية محلية غامضة غذتها العناصر القصصية لم يستطع دخولُ الإسلام فى مراكش أن يمحوها تماماً من ذاكرة الناس ؟ ومع هذا فلو ارتضينا هذه الروايات وماتوحى به لخرجنا منها بأنه قد وجدت مدينة قديمة فى نفس البقعه التى بنيت عليها فاس وسط البرارى والمياه الجارية ، لتخرج للعالم الإسلامى إحدى عواصمه الزاهرة .

---

(١) خلط الجزنائي فى كتابه الخط المندى بعبارة القلم المسند التى أوردها « القرطاس » (انظر « زهرة الآس » ـ النص ص ١٨) ، وهى غالباً ما تستعمل الدلالة على حروف الكتابة فى جنوب بلاد العرب ـ وقد جهلها الرحالة المسلمون كذلك فلم يدركوها وصارت كالهيروغليفية .

وأى اعتراض يمكن أن يرد على هذا الفرض ؟ أهو الافتقار إلى شواهد أثرية ؟ ولكننا نتساءل : هل كشفت أرض فاس ، أو هل كشفت أراضى ما حولها من الحدائق ؟

من المسلم به اليوم أن ممر تازه قد استخدم مدة من الزمن — على الأقل — ليكون طريقاً يصل فى العهد الرومانى بين مدينتى موريتانيا Maurétania : تنجيتان Tingitane وقيسارية الواقعتين بين وليلة ومنازل پوماريا Pomaria (تلمسان) والتافا Altava ، (لاموريسيير Lamoriciére) . وتحمل الكشوف التى تمت منذ عهد قريب فى شمال وجنوب منطقة فاس فى آودور Aoudour وأنوسير Anoceur على اعتقاد أن التوسع الرومانى قد بلغ هذا الممر الذى كان يعد من النقط الاستراتيجية الهامة ،كما يثبت ذلك من بقايا نص وجد فى وادى بُوحِلُّو[1]

وحينئذ يكون موقع فاس ، بصفته موجودا على الحد الغربى لهذا الممر ، ملائما جد الملاءمة لتأسيس مركز مدنى ، أو على الأقل ثكنة

---

(١) انظر : L. Chatelain : Les centres romains du maroc : المنشور فى :
Publications du service des antiquités du maroc
ملزمة رقم ٣ ، طبعة باريس ، من ص ٣٧ — ٣٨ .
انظر أيضاً قائمة المراجع المذكورة فى نفس الكتاب ص ٤١

عسكرية على جانب من الأهمية ، إذ كان له ميزة السيطرة عن كثب على سهل وادي سبو ، والقرب من واحة خولان ذات الينابيع الحارة ، التي كانت ذات أهمية خاصة لاستعمال الرومان ، حيث اعتبروا دائماً من أكبر هواة المياه الحارة . وقد يكون من الفضول أن نستطرد اكثر من هذا في تلك السلسلة من الاحتمالات : ومن يدرى فلعل الحظ يسمح يوما بتقصى هذه الاحتمالات بناء على أساس ثابت ؟

على أن الحجج لا تعوز من يريد الدفاع عن وجود منشأة مسيحية ظهرت بعد ذلك على موقع هذه المدينة الرومانية المفترضة . ونعلم منذ كشفت سلسلة من النقوش المتأخرة فى فولوبيلس Volubilis أن المسيحية قد ظلت مدة طويلة فى شمال مراكش ، كما كانت فى غرب الجزائر بعد الانهيار النهائى للحكم الرومانى . وقد وجدت نقوش ضئيلة فى الأطلال المجـــاورة لوليلة ترجع إلى سنوات ٥٩٩ و ٦٠٥ و ٦٥٥ ميلادية[١] ، أى إلى حقبة

---

(١) انظر :
J. Carcopino : Note sur une inscription chrétienne de Volubilis
المنشورة فى مجلة Hespéris ج ٨ سنة ١٩٢٨ من ص ١٣٥ — ١٤٥ وكذلك :
R. Thouvenot : Note sur deux inscriptions chrétiennes de Volubilis.
ونفس المصدر ج ٢١ سنة د ١٩٣٤ من ص ١٣١ — ١٤٠ وخاصة فى الآخر ، وكذلك :
J. Carcopino : Note sur une inscription chrétienne de Volubilis
المنشورة فى : Revue de Philologie ج ١٠ سنة ١٩٣٦ من ص ١٠٥ — ١١٢ .

لم تكن كما نرى ابتعد كثيرا عن الحقبة التى استطاع فيها راهب فاس ، كما تقول الأسطورة ، أن يشجع إدريس على تأسيس مدينته ، ويتنبأ له بازدهارها اللامع .

وإذا قبلنا فى هذه الظروف الرأى القائل بوجود دير مسيحى فى فاس فى آخر القرن السابع ، فقد يكون من السهل أن نفهم كيف أن أحد الأبواب فى أول الأحياء الإدريسية الذى كان ينفتح فى قلب الشرق ، كان يحمل اسم باب الكنيسة ، وهو اسم لا يمكن تفسيره تفسيرا آخر والعجيب أن هذه التسمية الجريئة لا تبدو فى كتاب « القرطاس »[1] وقد وردت فيه الرواية بعد أن شوهتها الأسطورة ، بل إنها تبدو أيضاً فى كتاب البكرى الذى لم يكتبها بمحض المصادفة . فهذا الأندلسى كان يعلم جيداً معنى الكنيسة ، إذ عن طريقه عرفنا وجود كنيسة فى زمنه فى مدينة تلمسان[2] . فهل كان لفاس القديمة أيضا — مثلما كان لتلمسان الأولى — كنيستها وجاليتها المسيحية ؟ هناك من الأدلة ما يشجع على ذلك . وهكذا تبدو عاصمة شمال مراكش ، منذ بدء تاريخها الإسلامى ، وارثة مباشرة ومخلصة لماض طويل من الحضارة .

---

(١) «جزائر بنى مزغنة» أو Description de l'Afrique Septentrionale ص ١١٦ .

(٢) نفس المصدر — ص ٧٦ . وهو يقول بوجود أطلال آثار عديدة قديمة بها ، كما توجد بقايا شعب مسيحى ظل بها إلى اليوم . كذلك توجد بها كنيسة لا يزال المسيحيون يغشونها إلى الآن .

انظر : J. J. L. Bargès : Tlemcen, p. 175 وكذلك : W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen, p. 14.

الفصل الثانى

ملاحظات عن أسماء المواقع الإسبانية المغربية

أسماء البوابات : باب الشريعة ، والشريعة فى مدن المغرب الإسلامى فى العصور الوسطى .

ظهر هذا المقال فى حوليات معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر ، الجزء الثانى سنة ١٩٣٦ ، من ص ٢١٠ — ٢٣٤ .
Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de l'Université d'Alger

لم تطبق إلى الآن على المدن الكبيرة فى إسبانيا الإسلامية والمغرب العربى طرق البحث المسماة باسم الطبوغرافية التاريخية ، تلك الطرق التى أدت منذ سنوات عديدة إلى نتائج باهرة عن بعض مدن الشرق[1] . وقد هدفت بعض البحوث الحديثة

(١) انظر خاصة :
J. Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas
المنشور فى : Revue des Etudes Islamiques طبعة باريس سنة ١٩٣٤
ص ٤٢١ وما يليها ، وكذلك :
L. Massignon : Explication du plan de Kûfa (Irak)
المنشور فى : Mélanges Maspero الجزء الثالث من مجموعة M. I. F. A. O.
ج ٦٨ ، طبعة القاهرة ، ١٩٣٥ ص ٣٣٧ وما يليها ، وكذلك : =

عن عواصم العصور الوسطى خاصة ، ومنها قرطبة على وجه التحديد[1]. إلى تحديد المواقع التى تعززها الوثائق القديمة فى نطاق الخطة الحالية للمدن . غير أن معلوماتنا لا تزال ضئيلة عن معظم المدن الكبرى لبلاد المغرب الإسلامى فى العصور الوسطى ، وبخاصة العواصم الإسبانية . ولا شك فى فائدة البحوث التى من هذا القبيل . والأمر فى هذه البحوث أيسر بالنسبة للمدن المراكشية منه بالنسبة للمدن الإسبانية .

وقد كان يحدث دائماً — فى زمن حركة الاسترداد المسيحى فى شبه جزيرة أيبيريا — أن تنهض مدينة مسيحية على أطلال مدينة قديمة النشأة واصطبغت بالصبغة الإسلامية عند الفتح العربى ، أو مدينة نشأت فى العهود الأولى من الفتح الإسلامى وهذا نادر الوقوع ؛

J. Sauvaget : Alep; essai sur le developpement d'une = grande ville syrienne des origines au milieu du XIX è siècle,
طبعة باريس سنة ١٩٤١ .

(١) انظر :
R. Castéjon y Martinéz de Arizala : Córdoba califal.
المنشور فى :
Boletin de la Academia de Ciencas, Bellas Letras y Nobles Artes de Córdoba.
الجزء الثامن ، رقم ٢٥ ، طبعة قرطبة ، ١٩٢٩ ، من ص ٢٥٥ — ٣٣٩
وكذلك :
E. Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xé siècle : Institutions et vie sociale.
طبعة باريس ، ١٩٣٢ ، من ص ٢٠٢ — ٢١٠ .

ومع ذلك فإن الجانب العمرانى لم يكن يتغير تغيراً سريعاً بلا شك . أما فى العصور الحديثة ، وبخاصة فى القرن التاسع عشر ، فقد دخلت عليها تعديلات عامة جعلت عمل المؤرخ والأثرى شاقاً إلى أبعد حد . فقد أخذت المدينة الأندلسية تفقد — شيئاً فشيئاً — ارتباطها بماضيها الإسلامى ، مما أدى بأسماء للمواقع القديمة المستعملة فى العصور الوسطى إلى أن حلت محلها أسماء جديدة لم تكن مجرد تحوير إسبانى لأسماء عربية قديمة .

والأمر على العكس من ذلك فى المدن المراكشية ، فلم تطرأ عليها إلا تغيرات طفيفة ، حتى لقد احتفظ بعضها بنسبة كثافة السكان التى كانت لها فى العصور الوسطى ، فى حين قل السكان فى مدن أخرى ، بحيث صارت مغلقة فى أحياء متسعة ، ومع هذا فإن عدداً كبيراً من أسماء شوارعها الحالية وبواباتها يرجع إلى خمسة قرون أو ستة . وقد شهدت مدن أخرى — بفضل ظروفها السياسية فى القرون الأخيرة — تطوراً جديداً حدث فى صورة توسع لمناطقها العمرانية ، مثل مراكش عاصمة السعديين ، ومِكناس التى ما لبثت أن صارت مدينة ملكية فى عهد مولاى السلطان إسماعيل من العلويين . وعلى العكس من ذلك شهدت فاس — مقر بنى مرين الذين جمّلوها فى القرن الرابع عشر — اضمحلالا سياسياً شديداً بعد سقوطهم الذى كان قد أثر فى وقوف التطور العمرانى ، بحيث تحولت هذه المدينة

إلى مكان عادي يختلف تمام الاختلاف عن الوصف الذى وصفها به ليون الإفريقى فى فترة تالية مباشرة لأعظم عهودها ازدهاراً .

على أن لدينا ، فيما يختص بتاريخ أسماء الأماكن فى هذه المدينة العتيقة ، وثائق أدبية وأثرية كثيرة جداً ، هذا إلى الصفحات القيمة التى كتبها منذ عدة سنوات الأستاذ لويس ماسينيون[1] ، فى معرض تحقيقه لمواقع هذه المدن حتى القرن السادس عشر ، كل ذلك مما يعين على الانتفاع بالمواد التى اكتشفت أو نشرت بعد بحثه ، والانتفاع كذلك بالبحوث التى أجريت فى نفس هذه المواقع . وبنيت على دراسة طبوغرافيتها المستعملة لعهدنا هذا[2] ، مع مقارنتها بنظيرتها من أسماء المواضع فى العصور الوسطى ، على نحو ما تهدينا إليه الشواهد فى بعض المؤلفات[3] ، أو بعض النقوش[4] .

(١) انظر :

L. Massignon : Le Maroc dans les premières annèes du XVIè Siècle. Tableau géographique d'aprés Leôn l'africain.

طبعة مدينة الجزائر سنة ١٩٠٦ من ص ٢١٩ — ٢٣٦ .

(٢) يمكن أن نجد سجلا لها ، فى كتاب ل. لتورنو عن مدينة فاس عند فرض الحماية الفرنسية على مراكش .

(٣) انظر خاصة « روض القرطاس » لابن أبى زرع و « زهرة الآس » للجزنائي و « سلوة الأنفاس » للكتانى .

(٤) وخاصة نقوش القرن الرابع عشر المتعلقة بنظم الحبوس الموقوفة على المدارس والمساجد والمستشفيات . وقد نشر الأستاذ ا. بيل جانباً كبيراً منها فى : Journal Asiatique : المستخرجة من Inscriptions arabes de Fès باريس سنة ١٩١٩ ، هذا ولابد من تقصى سجلات إدارة الحبوس وهى كثيرة ، وبعضها يرجع إلى عهد بنى مرين .

والدراسات المقارنة لهذه الأسماء القديمة وهى تنصب على المدن الرئيسية الإسبانية والمراكشية فى العصور الوسطى ، لا تعدم ما لها من دلالة ومغزى بل إنها تعد بالضرورة تمهيداً لكل بحث طبوغرافى تاريخى إسبانى مغربى على أننا إذ نقف على الشواهد التى يسوقها الجغرافيون والمؤرخون وما يذكر فى كتب التراجم فى عبارات عامة دون الحرص على التدقيق الطبوغرافى تعرض لنا بعض الملاحظات . فنلحظ أولا أنه كان يوجد فى الألفاظ الدارجة تعبيرات دالة على التكتل العمرانى الذى كان شائعا فى بلاد المغرب وفى إسبانيا ، وفى شرقى البحر الأبيض المتوسط بطبيعة الحال ، وإن كان ذلك بنسبة أقل .

ويلاحظ أيضا أن بعض « أسماء الأعلام » كانت تتردد هى بذاتها فى المدن القائمة بالعدوتين عدوة المغرب وعدوة الأندلس ، وبخاصة أسماء بوابات الأحياء فى هذه المدن .

وسنعرض فيما يلى تلك التسميات الأخيرة مع مراعاة ترتيبها ترتيباً منطقيا ، وذلك قبل أن نفصل القول فى اسم باب الشريعة الشائع فى مدن المغرب الإسلامى .

* * *

ليس من الضروري أن يكون هناك اسم واحد[1] لأحد أبواب أي مدينة ، إذ ربما تعددت أسماء بوابة من البوابات أقيمت على حي معين . فتطلق عليها أسماء عدة في وقت واحد . أو على العكس من ذلك تتعاقب عليها هذه الأسماء ، فالباب الواحد يمكن أن يكون له اسم رسمي واسم شعبي في وقت واحد . وعندما فتحت بوابات جديدة في القرن العشرين في أحياء بعض المدن المراكشية ، لم تهتم السلطات المدنية دائماً بتسميتها : وكان الجمهور نفسه أسرع منها في خلق تسميات تعوّض هذا النقص . وكثيراً ما كان هذا الجمهور يرتجل أسماء براقة لا يلبث مدلولها إذا لم يلاحظ أن ينسى أو يفضي إلى تأويلات خاطئة .

فمن منا لا ينصرف ذهنه لأول وهلة إلى تفسير « باب التركية » — وهو أحد أبواب طنجة ، فتح سنة ١٩٢٠ وسمي منذ ذلك الوقت بهذا الاسم — بباب تركيا ؟ والواقع أنه أطلق عليه منذ ذلك الوقت باب التركية أي باب الذرة ، وذلك لأنه في نفس تلك السنة ، استبدل أهل طنجة المسلمون الذرة بالقمح ، بسبب سوء محصولهم . والذرة تسمى التركية في لهجة أهل المغرب .[2] ولا شك أن العصر الوسيط

---

(١) أهملنا عن قصد في هذا البحث مناقشة أسماء أبواب القصور الملكية والمساجد الكبرى .

(٢) انظر :

E. Michaux-Bellaire : Villes et Tribus du Maroc.

مجلد ٧ ، عن « طنجة ومنطقتها » طبعة باريس ، ١٩٢١ ، ص ١٣٤ .

شهد تسميات مماثلة ، ولاشك فى أن أسماء بعض الأبواب كانت تشير إلى أشخاص أو حوادث قد فاتنا تاريخها ، وربما فاتنا ذلك إلى الأبد[١] .

ومن المسلم به بوجه عام أنه غالباً ما كانت تسمى أبواب الأحياء باسم المدينة التى تتجه إليها الأبواب ، لتفتح الطريق المباشر بين هذه المدينة والمدينة التى تقابلها .

وهكذا وجدت بوابات مسماة على هذا النحو فى جميع المدن الإسلامية بالمغرب والمشرق ، كما حدث ذلك أيضا فى أوروبا ولا حاجة بنا إلى ذكر أمثلة لذلك فى إسبانيا ومراكش . وقد يحدث أنه بدلا من إطلاق اسم مدينة ما على أحد الأبواب أن يطلق عليه اسم قطر من الأقطار أو إقليم من الأقاليم : مثل باب إفريقية ، الواقع فى أول حى إدريسى بفاس[٢] . ولكن يبدو أن هذه التسميات

---

(١) من نافلة القول أن نذكر أن موضع أى باب تهدم بسبب توسع المدينة قد يظل يحمل اسم ذلك الباب القديم : كما هو الحال فى باب السلسلة فى فاس ، وهو نفس الموقع الذى يحتله اليوم ميدان صغير يدعى باب السنيسلة .

(٢) انظر خاصة الجزنائى : « زهرة الآس » نشر وترجمة ا . بيل ، طبعة الجزائر سنة ١٩٢٢ ص ٥٤ وحاشية ١ ، ومثل ذلك يقال عن باب الأندلس الذى ذكره البكرى فى مدينة تاهرت فى كتابه « جزائر بنى مرغنة » نشر دى سلان بعنوان : Description de l'Afrique Septentrionale الطبعة الثانية ، بالجزائر سنة ١٩١١ ص ٦٧ ، ترجمة الناشر نفسه ، وكذلك الطبعة الجديدة بالجزائر سنة ١٩١٣ ص ١٣٨ .

لم يتخذها الجمهور فى شبه جزيرة أيبريا . أو على الأقل فى فاس ، إذ لم تَعِشْ هذه التسميات بوجه عام ، إلا بجانب تسميات أخرى أكثر شيوعا ويجب أن يستثنى من ذلك مدينتان إسبانيتان هما : غرناطة حيث كان الباب الرئيسى الذى ظل يسمى دائماً باسم باب إلبيره[1] وفى المرية باب بجانة [2] . على أن بقاء هذين الاسمين يعزى بلا شك إلى الذكرى التاريخية أكثر مما يعزى إلى الحقيقة الواقعة . إذ أن إلبيره وبجانة كانتا قد اضمحلتا ، وهجرتا تقريباً ، وحلت محلهما المدينتان المجاورتان لهما .

---

(١) ذكر هذا الباب كثيراً فى معرض الكلام على مقبرة غرناطة الكبرى ـ التى كانت خارج المدينة ـ فى روايات المؤرخين الأندلسيين ، وبخاصة فى كتاب «الإحاطة» لابن الخطيب ، كما ورد ضمن أبواب غرناطة التى ذكرها ابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » . وقد ترجم جزء منه الأستاذ :
Gaudefroy-Demombynes : L'Afrique moins l'Egypte
طبعة باريس سنة ١٩٢٧ ص ٢٢٩ وحاشية ٣ . وأيضاً فى القوائم القديمة التى نشرها :
Marmol & de Heriquez de Jorquera.
انظر أيضاً :
F. J. Simonet : Descripción del reino de Granada.
طبعة غرناطة سنة ١٨٧٢ من ص ٣٧ — ٧٤

(٢) كان يفضى إلى مقبرة المرية الرئيسية ، كما ورد ذكره كثيراً فى التراجم التى نقلها ابن القاضى عن ابن خاتمة فى كتاب « دُرّة الحجال » نشر علوش رباط ١٩٣٤ — ١٩٣٦ . انظر أيضاً ابن بَشْكُوال فى كتابه « الصلة » نشر كوديرا مدريد سنة ١٨٩٣ من ص ٤٢٠ — ٥٠٠
وأيضاً : ابن الأبار فى كتابه « تكملة الصلة » نشر كوديرا مدريد ١٨٩٩ ص ٣٢٩ والجزء الذى نشره بيل وبن شنب بالجزائر سنة ١٩٢٠ ص ١٠٣ .

وقد يحدث أحياناً أن أسماء الأبواب تذكر باتجاهها الجغرافى . كما هو الشأن فى بوابات سرقسطة حيث ظل أهم أبوابها يسمى دائماً فى العصر الإسلامى باسم باب القِبْلة [١] . كذلك كان الشأن فى أبواب الشمس فى غرناطة [٢] وفاس [٣] . وكان لبعض المدن من ناحية أخرى مايسمى باسم « الباب الجديد » ، تلك التسمية التى كانت تختلط أحياناً بسبب تشابه الكتابة فى الحروف العربيـــة مع باب الحديد [٤] . فهذا الاسم الذى سواء أكان قد وضع رسمياً أم غير رسمى

(١) انظر ابن الفرضى : « تاريخ علماء الأندلس » نشر كوديرا مدريد سـنة ١٨٩١ — ١٨٩٢ الجزء الثاني ص ٨٨ ، وابن بشكوال فى كتاب « الصلة » ص ٥٦١ ، وابن الأبار فى « تكملة الصلة » كوديرا ص ٤٩ والضَّبِّي فى كتاب « بُغية الملتمس » نشر كوديرا وريبيرا بمدريد سنة ١٨٩٥ ص ٢٦٥ . وقد أطلق نفس الاسم على باب الحى القديم فى فاس .

انظر الجزنائي : « زهرة الآس » والترجمة ص ٥١و٥٣ .

(٢) يرد هذا الاسم ضمن أبواب غرناطة التى ذكرها :

Francisco Henriquez de Jorquera المنشور فى :

Anales de Granada طبعة A. Marin Ocete بغرناطة سنة ١٩٢٤ ج ١ ص ١٥ . على العكس من ذلك نجد أن باب الشمس الشهير Puerta del Sol بطليطلة ويذكر بهـذا الاسم فى الوثائق التى نشرها A, Gonzalez Palencia والمنشور فى :

Los Mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII

فى مجلدين بمدريد سنة ١٩٣٠ . وكان هناك أيضاً باب الشمس Puerta del Sol فى إشبيلية ذكره الونسو مورجادو .

(٣) انظر الجزنائى : « زهرة الآس » ، ترجمة بيل ص ٨١ حاشية ١ .

(٤) على الرغم من وضع عبارة « فيما يتصل بالإضـــافة » فى الحـالة الثانية ، انظر فيما يلى متعلقاً بالأبواب المسماة باسم باب الحديد .

منذ بدء التأسيس ، أمكنه أن يظل قائماً رغم مرور السنين .
كما هو شأن « الباب الجديد » الذى فُتح فى عهد الحَكم الربضى فى القرن التاسع ، والذى لم يكن ليبعد عن الزاوية الجنوبية الشرقية من قرطبة[١] ، وذكرها ظل يحمل هذا الاسم فى نهاية القرن التاسع[٢] .

---

(١) كان يحدث خلط دائماً عن هذا الباب الموجود فى الحى الإسلامى بقرطبة بسبب تشابهه فى الكتابة مع باب الحديد ، الذى يظهر فى قائمة أبواب قرطبة التى نقلها المقرى عن ابن بشكوال فى « نفح الطيب » طبعة ليدن ج ١ ص ٣ ٣ سطر ٢١ وهو نفس « باب عبد الجبار » الذى يقابل Puerta del Hierro بعد سقوط قرطبة فى أيدى المسيحيين . وكان هناك باب آخر يدعى باب الحديد فى منطقة القصر بقرطبة . انظر كتابى : Espagne Musulmane du X é Siécle من ص ٢٠٥ — ٢٢٣ .

غير أن وجود باب الحديد ، قد شهدت به فعلا المصادر العديدة للمقتبس لابن حيان فى أثناء كلامه على « ثورة الربض » الشهيرة أيام الحكم الأول . وكان موقع هذا الباب فى أقصى الجنوب من الأسوار الشرقية المدينة بجوار الوادى الكبير مباشرة . وهكذا تحدد موقعه جيداً ، وإن كان ذلك مشوباً بتعريف اسمه إلى باب الحديد فى بحث : Manuel Ocâna-Jiménez المسمى : La puerta Medina de Cordoba المنشور فى : Crónica arqueologica de la Espana Musulmana فى مجلة Al-Andalus ج ٣ سنة ١٩٣٥ من ص ١٤٤ — ١٤٧ .

وأما النصوص المذكورة فى كتاب « المقتبس » فتؤكدها جيداً العبارة الواردة فى : Primera Cronica General. نشر R. Menendez Pidal بمدريد سنة ١٩٠٦ ص ٣٥٤ الجزء الأول من ص ٤٠ — ١٤١ .

(٢) يقرر ابن الأبار فى الواقع لفظ « الباب الجديد » بدقة نسبية فى معجمه طبعة كوديرا (B. A. H. IV) ص ٢٨ (فى الرَّبض الشرقى عند الباب الجديد) وذلك فى معرض كلامه عن وفاة إحدى الشخصيات الكبيرة سنة ٤٩٧ هـ .

وكان هناك باب يدعى بهذا الاسم أيضاً فى عصور متفاوتة فى مدينتى مُرْسِيه[١] وسَبْتَه[٢] .

وقد توجد أبواب ذات طابع رومانى أو قوطى غربى فى المدن الإسبانية . وحينئذ ربما ذكر اسمها بصفة من الصفات أو بحلية زخرفية فى بنائها ترجع إلى العصور القديمة . وعلى الرغم من وجود تمثال العذراء ، صاحبة قرطبة ، فوق ، باب القنطرة ، فى العاصمة الأموية ، فإنه يبدو لنا أنه لم يكن له أى تأثير على التسمية . وكذلك الحال فى تمثال مماثل مجهول الاسم[٣] أقيم على سبيل المحاكاة عند باب بجانة . غير أن المؤرخين الأندلسيين يشهدون بوجود «باب الحَنَش»

---

(١) انظر ابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر كوديرا ص ٥٨٠ .

(٢) انظر ابن عبد الملك الأنصارى : « اختصار الأخبار » نشر
E. Levi-Provençal : Une description de Ceuta Musulmane au XVé siécle
المنشورة فى مجلة : Hespéris ج ١٢ سنة ١٩٣١ ص ١٦٤ .

(٣) انظر أيضاً كتابى : Espagne Musulmane au X è Siècle
ص ٢٠٥ وحاشية ١ والفقرة الهامة جداً فى « البيان » لابن عذارى ج ٣ نشر ليفى بروفنسال ، باريس ، سنة ١٩٣٠ ، ص ١٤ : « وهى العذراء صاحبة قرطبة التى أودع أقادم حكمائهم صورتها فوق باب مدينتها القبلى وهو باب القنطرة » .

فى بلنسية [١] وباب العقاب فى المرية [٢] . ويحتمل أن تكون الحلية الزخرفية القائمة على هذا الباب من عمل صناع العهد الإسلامى ؛ وقد كان هذا بلا شك شأن ، باب الأسد ، فى غرناطة [٣] ، وباب السبع [٤] فى فاس . كما كان فى داخل قرطبة — إذا أخذنا بما ذكره ابن عذارى [٥] — ، باب الشكَال ، (أى باب الأشكال) فى بداية القرن الحادى عشر .

ولقد كان لبعض المدن الإسبانية أسماء رومانية يحتمل أن تكون متفقة مع أسماء الأحياء المبنية فى داخل أو خارج الأسوار . فكان

---

(١) ورد ذكره كثيراً . انظر الفتح بن خاقان : « قلائد العقيان » طبعة باريس ، ١٢٧٧ هـ ، ص ٧٣ سطر ٣ . وابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر كوديرا ص ٢٦٨ و ٢٩٩ و ٣١٠ و ٣٣٧ و ٤٩٩ و ٥١٨ . ونشر بن شنب ص ١٤٨ فى Misc. de Est. y textos arabes بمدريد ١٩١٥ ص ٤٧٠ الخ . انظر أيضاً : J. Ribera : Disertactiones y opúsculos بمدريد سنة ١٩٢٨ ج ٢ ص ٢٦١ وحاشية ٣ وكذلك :
R. Ménendez Pidal : La Espana del Cid
بمدريد سنة ١٩٢٩ ، ج ٢ ص ٥٠٨ و٥٣٩ — ٥٤٠ .

(٢) ذكره المقرى : « نفح الطيب » ج ١ ص ١٠٢ كما يلى : « ومن أبوابها باب العقاب ، عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر » .
انظر أيضاً : Simonet : Descripcion del reino de Granada ص ١٣٩ .

(٣) انظر Simonet فى كتابه المذكور ص ٧٥ رقم ١٣ ، وقد ذكر ذلك أيضاً Henriquez de Jorquera.

(٤) لايزال إلى اليوم اسم باب بفاس الجديدة انظر الكتانى : «سلوة الأنفاس» ج ٣ ص ١٨٥ وكذلك : Massignon : Le Maroc ..., p. 227

(٥) فى ج ٣ من البيان ص ٥٦ و٨٩ .

فى مالقة « باب فنتنالة » المذكور فى مواضع كثيرة[١] ، وفى بلنسية « باب بيطاله »[٢] ، كما أن أحد أبواب إشبيلية الحالية المسمى باسم Puerta de Macarena قد عرف بنفس الاسم وهو « باب المقارنة » فى العصر الإسلامى . ويمدنا ابن الأبار بما يعزز ذلك حيث يتحدث عن مقبرة دفن فيها أحد الأعلام سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣) وكانت المقبرة خارج هذا الباب[٣] .

وقد تطلق أسماء بعض الأشخاص — سواء كانوا من الأعلام أم من المغمورين — على أبواب المدينة ، ولدينا أمثلة كثيرة لذلك ، فمنها « باب عجيزه » و « باب الفتوح » فى فاس[٤] ، وكذلك بابا

---

(١) كله ينفتح على الحى الذى يحمل هـذا الاسم ويذكره الإدريسى . انظر : مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب التبيان ص ٩٢ ، ط المعارف . وانظر ابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر بيل ص ٢٧٤ كوديرا ص ٢٦٢ وطبعة Misc ص ٥٩٤ .

(٢) انظر ابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر Bel & Bencheneb ص ٤٣ ، وطبعة كوديرا ص ١٩٨ و ٣٣٣ و ٣ ٥ وطبعة .Misc ص ٤٣٧ و ٤٥٨ و ٥٩١ . انظر أيضاً : J. Ribera : Distractiones y opusculos ج ٢ ص ٢٦١ ، وهو الباب المسمى باسم : Porta de Boatella المنشور فى باب :
Repartimiento del reino de Valencia

(٣) انظر : « تكملة الصلة » ، نشر بيل ص ٢٠٠ .

(٤) يسمى اليوم باسم باب جيزه وباب فتوح . وترجع تسميتهما كذلك إلى ولدين الأمير الزناتى دُناس بن حمامة بن المعز بن عطية قبضا على زمام الحكم فى فاس سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ، أى قبل خضوع هذه المدينة لسلطان المرابطين بزمن وجيز : انظر خاصة الجزنائي ، « زهرة الآس » ـ الترجمة من ص ٧٤ — ٧٥ والمراجع المذكورة به والحاشية .

« عبد الجبار »[١] ، وباب عامر »[٢] فى قرطبة ، و « باب رزق » فى إستجة[٣] و « باب جَهْوَر » فى إشبيلية[٤] ، و « باب حمزة » فى الجزيرة الخضراء[٥] ، و « باب موسى » فى المرية[٦] ، و « باب ابن أحمد » فى مدينة مرسية[٧] .

وشاع أيضاً فى المغرب . كما شاع فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، تسمية أحد الأبواب التى تفتح إلى داخل الأسوار ، مؤدية إلى حى من أحياء المدينة — باسم مرتبط باسم هذا الحى : الذى يتفق أن

---

(١) انظر : Esp. Mus. du X é Siècle ص ٢٠٥ وحاشية ٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ وحاشية ٤ .

(٣) انظر :

E. Lévi - Provençal : La péninsule ibérique au moyen-âge d'après le Kitab ar-raud al mi'tar ···, d'Ibn Abdel Mun'im al Himyari

طبعة ليدن ، سنة ١٠٣٨ ، ص ٢١ .

(٤) انظر بصفة خاصة ابن صاحب الصلاة فى :

M. M. Antuna : Sevilla y sus monumentos arabes

الإسكوريال ، سنة ١٩٣٠ ص ٨٧ و٩٠ و١٣٠ و١٣١ .

(٥) انظر :

La péninsule ibérique au moyen âge, p. 93.

(٦) انظر : ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، الرباط سنة ١٩٣٤ ص ٢٢٢ .

(٧) انظر خاصة ابن الأبار : « تكملة الصلة » نشر كوديرا ص ٢٣٦ و ٣٥٨ و٤٢٩ و٥٧٥ .

يكون حيا تجاريا خاصا بالعطارين مثلا فيسمى «باب العطارين»[١]، كما في قرطبة، أو خاصا بأولئك المتجرين يوميا بالمنتجات الغذائية، فيسمى «باب السويقة»، كما في «إستجة»[٢]، وطليطلة[٣]، وتلمسان[٤]، وحتى اليوم في رباط الفتح وتونس، حيث يوجد بها «باب سويقة»، وقد يكون الحي خاصا باليهود كما في قرطبة فيقولون «باب اليهود»، وقد سمي «باب الهدى» بعد أن استقبحوا باب اليهود وراعوا تجانس لفظي اليهود والهدى [٥]، وكذلك الشأن في حي اليهود بطليطلة[٦] وسرقسطة[٧] ونكور[٨]. وربما كان الحي

---

(١) انظر: Esp. mus. du XeSiècle, p.205

(٢) انظر: La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 21

(٣) انظر:

A. Gonzalez Palencia: Los mozarabes de Toledo

المجلد التمهيدي ص ٧٦.

(٤) انظر:

W. & G. Marçais: Les monuments arabes de Tlemcen

طبعة باريس سنة ١٩٠٣ ص ١٣٥.

(٥) انظر كتابي: Esp. mus. du X è Siècle. ص ٢٠٥ وحاشية ٧.

قال المقري: «واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى» ــ النفح ١/٩٨ ط ليدن.

(٦) انظر:

A. Gonzalez Palencia: Los mozárabes de Toledo

المجلد التمهيدي ص ٧٥ و٧٦ و٧٧ و٨٠.

(٧) انظر: ابن الفرضي: «تاريخ علماء الأندلس» — الجزء الأول ص ١١١ (في غرب المدينة).

(٨) انظر: البكري. «جزائر بني مزغنة» أو

Description de l'Afrique Septentrionale ص ٩٠.

خاصا بجماعة من الصناع أبعدوا عن قلب المدينة ، لحاجتهم إلى مكان فسيح ، أو لأن عملهم فى منتجات كريهة الرائحة تؤذى السكان ، كما حدث فى حالة الدباغين ، حيث « باب الدباغين » فى طليطلة [١] وغرناطة [٢] ومراكش [٣] . وصناع الزيت (باب الزياتين) فى مدينة المرية [٤] . والفخارين . وصناع الطوب وبائعى الطوب (باب الفخارين وباب الطوابين) فى غرناطة [٥] وباب القرمدين فى تلمسان [٦] ومحضرى الطفل (باب الطفالين) فى طليطلة [٧] .

---

(١) يسمى اليوم Adabaquim - انظر :
A. Gonzalez Palencia : Los Mozarabes de Toledo
المجلد التمهيدى . من ص ٦٤ و ٨٥ .

(٢) انظر خاصة ابن فضل الله — ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ٢٢٠ وحاشية ١٠ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٩ وحاشية ٦ .

(٤) انظر ابن الأبار : « تكملة الصلة » ، نشر كوديرا ، ص ٢١٤ .

(٥) انظر خاصة ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy-Demombynes ص ٢٢٠ وحاشية ٦ و ص ٢٢١ وحاشية ١ .

(٦) انظر :
W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen
ص ١١٦ و ١١٧ و ١٢٤ و ١٢٥ وحاشية ١ .

(٧) انظر :
A. Gonzalez - Palencia : Los Mozarabes de Toledo
المجلد التمهيدى ص ٨٠ .

وكان أيضا مما يحدد تسمية أحد الأبواب ، مجرد وجود اسم مادة طبيعية أو خاصية ما ، ترتبط بالمدينة ، وترد إليها من باب معين من أبوابها . فإن صح هذا الفرض ، جاز أن يفسر لنا ذلك تسمية « باب الكحل » في إشبيلية[١] بهذا الاسم ، وفي غرناطة[٢] وفي مراكش[٣] و «باب الرُّب» في مراكش[٤] وفاس[٥] ، وربما « باب الحديد » أيضا في فاس[٦] ، الذي كان يفتح بالضبط في اتجاه إقليم غني بمعدن الحديد ، وقد ظل المسلمون يستغلونه في جميع الأزمان[٧] .

---

(١) انظر : ابن صاحب الصلاة في كتاب :
M. M. Antuna : Sevilla y sus monumentos arabes
ص ٨٦ و ٩٠ و ١٣٠ و ١٣١ .

(٢) انظر ابن فضل الله — ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ٢٢٩ وحاشية ٤ (وهي التي يرادفها ترجمة كلمة « باب السماء ») .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٩ وحاشية ٢ .

(٤) نفس المصدر ص ١٨٦ وحاشية ٣ .

(٥) يبدو أن باب فاس هذا لم يذكره غير Marmol في كتابه L'Afrique ترجمة Perrot d'Ablancourt طبعة باريس سنة ١٦١٧ ج ٢ ص ١٥٨ « باب روب » ، على هامش ذكر « باب الصنوبر » «Porte du résiné» .

(٦) تعدد ذكر اسم هذا الباب في مواضع كثيرة ، وهو لايزال يحمل نفس الاسم إلى اليوم .
انظر على الأخص : الجزنائي : « زهرة الآس » — من ص ٥٥ و ٨١ .

(٧) وذلك على الرغم من أنه لا يمكن الجزم بصحة هذا الفرض ، إلا أنه من العجيب ملاحظة أن « روض القرطاس » ، طبعة فاس ، ص ٢٢ (انظر :Massignon Le Maroc. p. 221 بشأن تخطيط فاس الإدريسية) يؤكد فيما يتعلق بهذا الباب ، استناداً إلى رواية ابن غالب ، أن هذا الباب ، كان يؤدي إلى الطريق الموصل بين فاس وجبل فزاز ومناجم عوام .

ويجب أيضا إضافة بعض أسماء الأبواب ذات الصبغة الرسمية ، التى يغلب رجوعها إلى عهد المرابطين ، بل إلى عهد الموحدين ، مثل : « باب البنود » بغرناطة [(١)] ، ومراكش [(٢)] ، وتلمسان [(٣)] و « باب الطبول » فى مراكش [(٤)] .

وهناك أسماء أخرى — وإن كانت نادرة إلى حد ما — تشير إلى مناسبات والظاهر أنها ظلت تدل على بوابات قصور ملكية أومساجد . نذكر منها على سبيل المثال « باب الفرج » بطليطلة [(٥)] ، ومثله بمدينة مرسية [(٦)] ، وفاس [(٧)] لأنها تذكر بنتيجة حصار لهذه المدن ، وإن كانت تعوزنا الأدلة المادية على ذلك .

---

(١) انظر خاصة ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ٢٣١ وحاشية ٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٢ حاشية ١ وص ١٩٠ حاشية ٣ .

(٣) انظر :
W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen
ص ١١٧ حاشية ٣ وص ١٧١ حاشية ١ .

(٤) انظر ابن فضل الله : ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ١٨١ ، حاشية ٢ وص ١٩٠ حاشية ٣ .

(٥) انظر : A.Gonzalez - Palencia : Los mozarabes de Toledo
المجلد التمهيدى من ص ٧٦ و ٨٠ — ٨١ .

(٦) ذكره ابن الأبار فى « تكملة الصلة » نشر كوديرا ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .

(٧) انظر خاصة الجزنائي : « زهرة الآس » — الترجمة ص ٥١ .
وقد أثار الاسم القديم لهذا الباب — فى أثناء زوال استعماله شيئاً فشيئاً — نشأة مذهب أحد الأولياء ، كان له نفس الاسم وهو سيدى فرج .
انظر : A. Bel : Inscriptions arabes de Fès
ص ٧٥ — ٧٦ .

كذلك لم يحل الأمر دون وجود أبواب فى المدينة ذات تسمية مرتبطة ارتباطا مباشرا بشكلها الواقعى أو بوظيفتها المميزة لها، فى حالة الحرب . فمثلا نجد فى كثير من المدن الإسلامية بإسبانيا والمغرب الأقصى والأوسط بابا يسمى باسم « باب الخوخة »، ولهذا الاسم شاهد فى لشبونه[١] ، وفى الجزيرة الخضراء[٢] ومالقة[٣] وفاس[٤] وتلمسان[٥]، بل وإلى الشرق من ذلك أيضاً فى مدينة تنس[٦]، وهذا عدا عدة مدن أخرى بإفريقية، حتى وفى الشرق أيضاً .

وقد اقترح الباحثون عدة تفسيرات لهذا اللفظ[٧] ، ولعل الأمر

= وهناك مثل آخر لتطور المعنى الأصلى ، والنطق اللغوى الشعبى ، وهو خاص بأحد أبواب طليطلة القديمة ، وهو ما يسمى فى الأسبانية Bibmardom (أى الباب المردوم) أو المهدّم ، ومرادفه الإسبانى Puerta del Mayordomo. انظر :
A. Gonzalez Palencia : Los Mozarabes de Toledo
المجلد التمهيدى ص ٨٠ .

(١) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 22
(٢) نفس المصدر ص ٩٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢١٤ .
(٤) انظر خاصة الجزنائى : « زهرة الآس » ، ص ٥٢ وحاشية ٢ وص ٧٩ .
(٥) انظر البكرى فى Description النص ص ٧٦ والترجمة ص ١٥٥ وكذلك :
W. & G. Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen
ص ١١٥ وحاشية ٢ .
(٦) انظر : البكرى فى Description النص ص ٦٢ والترجمة ص ١٢٩ .
(٧) انظر خاصة : Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes
ج ١ ص ٤١١ حيث يقول إنه « باب يؤدى إلى ممر (أى خوخة) موصلة إلى حارة » وكذلك : W. & G. Marçais المصدر المذكور آنفاً ، ص ١١٥ وحاشية ٢ .

يتعلق فى سائر هذه الأحوال بباب كانت تفتح فيه خوخة ، أى باب صغير أو نافذة[١] ، وهذا التفسير تؤيده أسماء المواقع الإسبانية نفسها التى اقتصرت على الترجمة الحرفية للفظ العربى . ويوجد إلى الآن فى سرقسطة مايسمى باسم باب الخوخة Puerta del Portillo ، وكذلك سمى أحد أبواب طليطلة فى القرن الثانى عشر — إذا أخذنا بالوثائق التى ترجع إلى عهد المستعربين[٢] « باب البورتيال » Puerta del Portial الذى لا يعدو أن يكون صيغة لاتينية لاسم باب الخوخة ، وكذلك «باب النقبة» [٣] و «باب الفاصل» [٤] وكلا اللفظتين استعملتا للتعبير عن فتحتين أو ثغرتين فى مدينة فاس ، وتدخل فى عداد ألفاظ التحصينات وهما تدلان على (باب السر) و (الباب المؤدى إلى

---

(١) انظر الإيضاحات الواردة للتسمية الأسبانية العربية فى :
Vocabulista, p. 529. S. v° porta : posticus in medio porte
وانظر :
P. de Alcala : p. 354 a : postigo de puerta principal

(٢) انظر : A. Gonzalez Palencia : Los mozarabes de Toledo
فى الجزء التمهيدى س ٧٥ وحاشية ١ .

(٣) انظر خاصة الجزنائى : « زهرة الآس » س ٥١ و ٥٤ من الترجمة حيث ترجم P. de Alcala س ٣٥٢ بكلمة نقبة بمعنى باب الحائط Portillo de Muro .

(٤) انظر « زهرة الآس » س ٥١ و ٥٤ .

الحائط الأمامى) . وقد يقولون باب الغدر[١] ولا يعد هذا الاسم علما عليه ، وإنما يحتمل جدا أن يكون مدلوله باباً سريا منخفضا يقع فى جدار ، وعن طريقه يفر أمير المدينة مثلا إلى الريف إذا وقع حصار ، فى نفس اللحظة التى يخترق فيها العدو مدينته[٢] .

يبقى بعد ذلك أن نبحث الطائفة الأخيرة من تسميات أبواب المدن ، وربما كانت هذه من حيث الترتيب أهم التسميات ، بعد التسمية الخاصة بالأسماء التى من نوع باب إلبيره . ونعنى بها الفتحات أو الثغرات الخاصة بالحى ولاسمها علاقة بموقع أو عمل فنى ، أو بناء ذى فائدة اجتماعية ، مما يكون على مقربة مباشرة من الباب ، لا فى داخل الأسوار بل فى خارجها ، ومن هذا القبيل ، باب البحر ، فى لشبونة[٣] ،

---

(١) وعلى هذا يعتبر Bib Algodor أو Puerta de Siete Suelos الموجود فى الحمراء بلا شك باباً صغيراً فى أصله . انظر فيما يتعلق بتونس : R. Brunschvig فى دائرة المعارف الإسلامية المجلد الرابع ص ٨٤٤ ب . وتعتبر هذه التسمية فنية وليست علماً بحيث استعملت فى صيغة الجمع . انظر وصف مدينة سبتة فى مجلة Hespéris ج ١٢ سنة ١٩٣١ ص ١٦٥ حيث ذكرت عبارة « وعدد أبواب الغدر ... » ضمن أسماء فتحات أخرى ثانوية كالخزرة بمعنى ممرات تحت الأرض .

(٢) ويمكن أن نتساءل أيضا : ألم يكن معنى باب الدف فى غرناطة أصلا باب الدفوف المتعددة (انظر ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy - Demombynes p 226, 231. وحاشية ٣) وشاع تفسيره بباب الدفوف Puerta de Los Panderos انظر Simonet : Desc. p. 75) وصيغة الجمع دفف قد أوردها Pedro de Alcala بمعنى باب الخشب .

(٣) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 22

وباب الوادى فى قرطبة[١] ، ومالقة[٢] وفاس[٣] . ثم « باب الرملة » فى غرناطة وقد احتفظ باسمه فى الاسبانية فهو Bibarrambla[٤] ، الذى ذكر فعلا فى هذه المدينة فى عصر المرابطين[٥] . ومن هذا القبيل باب المخاضة[٦] فى طليطلة و « باب الحمة »[٧] فى لشبونة و « باب الفوارة »[٨] فى فاس وفى إسبانيا خاصة عدة أبواب كل منها يدعى باسم

---

(١) انظر : L'Éspagne Musulmane au X è siècle, p. 205

(٢) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 214

(٣) انظر : الجزنائى : « زهرة الآس » ص ٨١ وحاشية ١ .

(٤) انظر خاصة ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy-Demombynes ص ٢٣٠ وحاشية ٤ . والمرادف الإسباني لكلمة رَمْلة نراه غالباً فى أسماء المواقع الحالية فى المدن الإسبانية المشيدة فوق مجارى المياه . ولعل هذا يصدق أيضا على ربض شبلار الواقع فى غرب قرطبة . (انظر : Esp.Mus. X è Siècle, p.207, et Note3) والى هذا ذهب Simonet فى كتابه : Glosario de Voces ibéricas y lantias usadas entre los mozarabes طبعة مدريد سنة ١٨٨٩ ص ٥٧٤ .

(٥) انظر كتاب المؤلف : Documents inédits d'histoire almoravide

(٦) انظر : A. Gonzàlez Palencia : Los mozarabes de Toledo المجلد التمهيدى ص ٨٠ .

(٧) انظر : La péninsule ibérique au moyen-âge, p· 22

(٨) انظر : الجزنائى : « زهرة الآس » ص ٥١ وحاشية ٢ وص ٨١ حاشية ٣ .

«باب القنطرة»، كما في قرطبة[١]، وإستجة[٢] وطليطلة[٣] وبلنسية[٤] وأوريولة[٥]. وكان يقوم في ظاهر بعض المدن الكبرى مايعرف باسم «ربض المرضى»، وفي غرناطة[٦] كان يؤدي إليه باب يسمى باسم «باب المرضى». وفي فاس «باب المطمر»[٧]، وفي لشبونة «باب المقبرة»[٨] ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة «باب الشريعة» في إسبانيا ومراكش الذي سنبحثه تفصيلا.

* * *

(١) انظر: L' Esp. Mus. de X è Siècle, p. 204

(٢) انظر: La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 21

(٣) انظر: A. Gonzàlez Palencia : Los mozarabes de Toledo المجلد التمهيدي ص ٨٠.

(٤) انظر ابن الأبار: «تكملة الصلة» طبعة كوديرا ص ١٨٩ و٥٣٨.

(٥) نفس المصدر ص ٢٢٣.

(٦) أقترح بناء على هذا أنه يجب أن تقرأ في تعداد أبواب غرناطة الوارد في ابن فضل الله ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ٢٣٠ وحاشية ٢ «باب المرضى» بدلا من اللفظ المحرف. انظر فيما يتعلق بكلمة المرضى وما تعلق بها نهائياً من أسماء المواقع العربية بالمغرب: E. Lévi-Provençal : Le Traité d'Ibn'Abdun المنشور في: Journal Asiatique عدد أبريل — يونيه ١٩٣٤ ص ٢٩٤ وكذلك: Seville musulmane au début du XII è Siècle طبعة باريس، ١٩٤٧، ص ١١٢ (فقرة ١٦٤) وص ١٥٧.

(٧) انظر خاصة الجزنائي: «زهرة الآس» ترجمة Bel ص ٨٠ وحاشية ٣.

(٨) انظر: La péninsule ibérique au moyen-âge, p. 22

أشهر الأبواب التى أطلقت عليها تلك التسمية لم يزل قائما الآن ، وهو الباب الأثرى الكبير للحمراء فى غرناطة ، الذى يقرأ اسمه دائما على النقش الجميل الخاص بالإنشاء ، وهو مكتوب بحروف أندلسية فى أعلاه ، ومؤرخة عام ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) كما يلى : أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة ـ أسعد الله به شريعة الإسلام . . »[١] .
فهذا الباب هو بلا شك الوحيد من بين الأبواب التى تحمل تلك التسمية ، بالإضافة إلى باب آخر فى مدينة مرسية ، ورد ذكره فى إسبانيا فى النقوش ، وفى الأدب العربى . هذا إلى أن المؤلفين المسلمين ، كثيرا ما يذكرون لنا أسماء ثلاثة أبواب كل منها يدعى : « باب الشريعة » فى مراكش ، وهى أبواب « فاس » و « تازه » و « مراكش » .

ولقد كان بناء باب الشريعة فى مدينة فاس ، الذى لم يلبث أن سمى « باب المحروق » — وهى تسمية قائمة إلى وقتنا هذا ، مما ألم به فريق من مؤرخى مراكش فى العصور الوسطى[٢] فهم يقررون ، فيما يختص بالتجديد الذى أحدثه الموحدون فى فاس وذلك على عهد السلطان

---

(١) انظر : E. Lévi-Provençal: Inscriptions arabes d'Espagne طبعة ليون وباريس سنة ١٩٣١ ص ١٥٦ — ١٥٨ .

(٢) انظر ابن أبى زرع : « روض القرطاس » ، طبعة فاس ، ص ١٤٩ و « الذخيرة السنية » نشر بن شنب ، بالجزائر سنة ١٩٢٠ ص ٣٨ ، والجزنائى « زهرة الآس » ، ترجمة ص ٥٢ و ٧٩ و ٨٠ وحاشية ٢ ؛ والمقرى : « نفح الطيب » ، طبعة بولاق ، ج ٣ ص ٨٥ ، وابن القاضى : « جذوة الاقتباس » ،

يعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ = ١١٨٤ — ١١٩٩م) وقد أتمه ابنه وخليفته الناصر ، أن هذا — أى الناصر — أمر فى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ — ١٢٠٤ م) ببناء باب سمى باب الشريعة ، وقد بلغ من ارتفاعه — فيما يذكر صاحب زهرة الآس — أن الفارس الذى يحمل العلم المرتفع المنتصب وكذا الرماح المسلح بحربة طويلة ، كان فى مقدورهما اجتيازه ، دون إمالة العلم ، أو خفض الرمح [١] .

وأما عن تحريف هذا الاسم ، فقد ذكر فى المدونة التاريخية المعروفة باسم الذخيرة السنية [٢] ، ما يلى : « أول حدث حدث بالمغرب فى أول عام ستمائة ، قيام العبيدى بجبال ورغة من أحواز مدينة فاس ، وادعى أنه الفاطمى المهدى الذى ينصر الإسلام ، ويملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، فتابعه كثير من قبائل المغرب وبواديه ، وجميع جبال غمارة : فظفر به ، فقتل ، وحمل رأسه إلى الناصر ، فأمر أن يرد إلى مدينة فاس ، ويعلق رأسه على بابها ، ولا يزال أبدا ، فعلق رأسه على باب الشريعة من أبوابها ، وأحرق جسده فى وسط الباب المذكور ، بعد أن صلب عليه خمسة عشر يوما ، وكان حرقه

= طبعة فاس ، ص ٢٧ ، والكتانى : « سلوة الأنفاس » طبعة فاس ، ج ٣ ص ١٨٦ ، والسلاوى : « كتاب الاستقصاء » ، طبعة القاهرة ، ج ١ ، ص ١٩١ ، ترجمة إسماعيل حامد ، باريس ١٩٢٧ (ضمن مجموعة Archives Marocaines مجلد ٣٢) ج ٣ ص ١٩٤ .

(١) ص ٨٠ .

(٢) نقل الكتاني هذه العبارة فى « سلوة الأنفاس »

فى اليوم الذى تم فيه سور المدينة المذكورة بالتجديد والبناء والإصلاح. وتم الباب المذكور بالبناء، وركبت مصاريعه، فسمى به باب المحروق لأجل حرق العبيدى فى وسطه يوم تمامه»[١].

وعلى الرغم من هذا التحريف فى اسمه، نجد المؤرخين يسمون الباب الذى بناه الناصر الموحدى باسم «باب الشريعة»، وذلك فى معرض ذكرهم لثوار خرجوا فى ٨ رجب ٦٤٨هـ (٦ أكتوبر ١٢٥٠م) على الحكومة المرينية، وعلقت رءوسهم على أسوار فاس[٢]. وقد ورد ذكر باب المحروق فى معرض الحديث عن مصرع الوزير الحسن بن عمر الفُودودى فى سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م) بأمر السلطان أبى سالم المرينى، فذكر ابن خلدون أن جسده قد صلب

---

(١) نجد أحياناً تفسيراً آخر لأصل اسم باب المحروق فى فاس، وهو أن ابن الخطيب الشهير، المقتول فى هذه المدينة عام ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) قد دُفن فى المقبرة المشيدة بجوار هذا الباب. وقد استخرج رفاته فى اليوم التالى، وأحرق، ومن هذا جاء اسم «باب المحروق». غير أن هذه التسمية المتأخرة، لا ترتكن إلى أى أساس — كما لاحظ المقرى: «نفح الطيب»، طبعة بولاق، ج ٣ ص ٨٥.

انظر أيضاً الكتانى: «سلوة الأنفاس» ج ٣ ص ١٨٦ و١٩٠، ولنذكر بهذه المناسبة اسماً لباب آخر بنفس الاسم، موجود بالقاهرة يدعى باب درب المحروق.

انظر خاصة: «تاريخ خطة القاهرة» فى دائرة المعارف الإسلامية ج ١ مقابل ص ٨٤٠.

ويمكن أيضاً ملاحظة وجه التشابه بين كلمتى باب مُحرِق ومُحرَّق الموجودين بمدينة مراكش من ناحية، واللذين ذكرهما ابن فضل الله.

انظر ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ٨٨ أو حاشية ٣، وبين باب المحروق فى فاس من حيث أصل تسميته.

(٢) انظر: «الذخيرة السنية» ص ٨٤ والسلاوى: «الاستقصاء».

على أسوار فاس ، على مقربة مباشرة من باب المحروق [١] . وفى سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ — ١٤١٠ م) سمرت على نفس الباب [٢] رأس الدعى الحفصى أبى عبد الله محمد بن أبى زكريا .

هذا وقد وجدت منذ القرن السابع الهجرى على الأقل ، مقبرة خارج باب الشريعة فى فاس ، دفن فيها قاضى مدينتى بلنسية وجيان ويدعى على بن محمد بن أبى عَشاره [٣] . وقد توفى عام ٦٤١ هـ (١٢٤٣ — ١٢٤٤ م) . ودفن فى نفس هذه المقبرة بعد ذلك بثلثمائة عام ، آخر سلاطين بنى نصر ملوك غرناطة وهو أبو عبد الله محمد الحادى عشر ، واللاجىء إلى فاس عقب اعتزاله — حسبما ذكره السلاوى [٤] فقد ذكر أنه دفن بجوار المصلى ، خارج باب الشريعة فى فاس وقد توفى فى هذه المدينة سنة ٩٤٠هـ (١٥٢٣ — ١٥٣٤ م) .

أما فيما يتعلق بباب الشريعة ، بمدينة تازة فلا يوجد عنه لدينا غير أخبار خاصة بحادث واحد ، وهو أنه فى رجب سنة ٦٨٥ هـ (أغسطس — سبتمبر ١٢٨٦ م) قتل أبو زيّان الأمير المرينى ، بناء على أمر أخيه السلطان أبى يعقوب ، مع بعض أقاربه الثائرين الهاربين

---

(١) انظر ابن خلدون : « العبر أو تاريخ البربر » ، ج ٢ ص ٤٥٢ و ٤٥٨ ، والسلاوى : « الاستقصاء » ج ٤ ص ٣٨٠ .

(٢) انظر : السلاوى : «الاستقصاء» — الترجمة ج ٤ ص ٤٦٢ .

(٣) انظر : « الذخيرة السنية » ص ٦٦ .

(٤) انظر : السلاوى : « الاستقصاء » — ج ٤ ص ٥٣٠ .

إلى تلمسان ، والذين قبض عليهم ، وأحضروا مكبلين فى السلاسل إلى تازة ، حيث قتلوا خارج باب الشريعة بهذه المدينة [١].

أما المعلومات الخاصة بباب الشريعة بمراكش ، فهى قليلة . وأقدم هذه المعلومات ما ذكره البَيذق فى مذكراته التى تشهد بوجود باب بهذا الاسم منذ عهد استيلاء الموحدين على المدينة سنة ٥٤١ هـ ، ذلك أن المرابطين المحاصرين فى أثناء اجتيازهم لهذا الباب ، فشلوا فى الخروج منه ، قبل هزيمتهم [٢] ، ولم يكد عبد المؤمن فى نفس السنة يتولى سلطته على مراكش ، حتى واجهته ثورة عمر بن الخَيّاط الذى ما لبث أن هزمه أبو حفص فقتله ، ونقل جثته على بغل حيث صلبها على باب الشريعة [٣] .

وفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ — ١١٥٤ م) قام أبو حفص ، بحملة لإخضاع ثوار جنوب العاصمة . ويحكى البَيْذق بعد هذا أن الغنائم وصلت إلى مراكش ، وبيع منها عند باب الشريعة نساء غزوله ولَمْتَه ، بالإضافة إلى ما بيع من جمال ، وأبقار ، وغنم [٤] . وفى العام التالى ، نشبت بالمدينة ثورة بنى أَمْغَرَ الأشقاء الحقيقيين للمهدى بن تومرت .

---

(١) انظر : ابن أبى زرع : « روض القرطاس » — ص ٢٠٣ والسلاوى : « الاستقصاء » — ج ٤ ص ١١٢ .

(٢) انظر : Documents inédits d'histoire almohade ص ١٦٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٥ و ٢٠٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩٤ .

وقد قمعت هذه الثورة بشدة وجلب الأهلون جثث الثوار ، وعلقوها على باب الشريعة (١) .

وقد أعيد بناء هذا الباب حوالى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) فى عهد الخليفة الموحدى أبى يعقوب المنصور . وقد ذكر ابن خلدون بعد هذا باب الشريعة بمدينة مراكش أثناء حكم بنى مرين فى معرض كلامه على استيلاء السلطان أبى يوسف يعقوب على مدينة تينملال فى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦م) ، واقتيد آخر الموحدين ممن كانوا بها إلى مراكش « وبدلا من قتلهم بمصارعهم فى باب الشريعة ، قطعت رؤوسهم ، وصلبت جثثهم » (٢) .

وقد ذكر هذا الباب الواقع بمراكش ، مع بعض التفاصيل ابن فضل الله العمرى ، فى وصفه للعاصمة الموحدية ، وأنه كان يفتح — كما تقول المصادر التى استقى منها هذا المؤرخ — على ساحة مواجهة لمصلى العيدين . وكان يمتد بين الباب نفسه ، والمصلى ساحة رحبة خالية ، كان بها سوق الخيل (٣) .

ومن هذه التفاصيل التى ذكرناها يمكن الوقوف على معالم الأبواب الثلاثة المسماة باسم باب الشريعة بمراكش فى العصور الوسطى .

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٧ .

(٢) انظر ابن خلدون : « العبر أو تاريخ البربر » — النص ج ٢ ص ٢٨١ والسلاوى : « الاستقصاء » ، ج ٤ ص ٧٤ .

(٣) انظر ابن فضل الله : ترجمة Gaudefroy - Demombynes ص ١٨٧ — ١٨٨ وحاشية ٢ وقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى باب الشريعة فى مراكش كما يرد فيما بعد .

فالباب فى فاس ومراكش ينفتح فى براح فسيح من الأرض تقام فيها سوق ، وقتة تفضى إلى مقبرة وإلى مصلى حيث كان الأهلون يجتمعون فى أول أيام العيد لتأدية الصلاة يؤمهم السلطان أو من ينوب عنه كما جرى العرف بذلك إلى يومنا هذا فى مراكش .

ومما يؤيد وجود علاقة بين « باب الشريعة » والسوق — أن « سوق الخميس » تقام خارج باب الشريعة القـــديم ، غير بعيد عن الجبانات القديمة ، التى لم تزل تستعمل إلى حدما ، كما أن المصلى الرئيسى فى فاس من جانب آخر ، وهو المسمى اليوم باسم « مصلى السلطان » لتمييزه عن « مصلى الباشا » ويقع جنوبى المدينة ، يوجد فعلا على امتداد سوق الخميس إلى الغرب منه . ومع أنه الآن أقرب إلى فاس الجديدة منه إلى فاس القديمة ، فهو يقع على محور باب المحروق ، وهو الذى لابد أنه كان يعتبر الباب المفضى إلى المدينة [١] ، قبل عهد بنى مرين .

---

(١) كان امتداد المدينة نحو الجنوب ، تحت حكم الموحدين من ناحية باب الشريعة ، ويذهب ديمومبين إلى أنه كان يقع فى السور الجنوبى الغربى غير بعيد من موقع مسجد الـكتبية ولم أستطع كما كنت أظن فى كتابى Doc. inedits ، المطابقة بينه وبين باب الخميس الذى يفتح إلى شمال المدينة نفسها . وعبارة ابن صاحب الصلاة ، التى سوف يأتى ذكرها فيما بعد ، تعتبر حاسمة ، فيما يختص بموقع باب الشريعة بمراكش . ويمكن أن نقرر كذلك وجود باب يقال له باب الخميس فى المنصورة قرب تلمسان — وكان يفتح مباشرة إلى أسفل مصلى مقر بنى مرين .

انظر : W. & G. Marçais : Les Monuments arabes de Tlemcen من ص ٢١٣ — ٢١٦ .

أما فى مدن مراكش الثلاث التى نعرف فى كل منها بابا يسمى باسم باب الشريعة ، فيلاحظ أن هـذا الباب نفسه أو ما حوله كان يتخذ مكانا تعلق عليه الرؤوس المقطوعة وتصلب الجثث .

وقد ظل باب المحروق فى مدينة فاس حتى بعد العصور الوسطى وإلى عهد ليس ببعيد عنا ، المكان التقليدى الذى استمرت تُعرض فيه رؤوس الثوار الذين نـكل بهم جند السلاطين لإرهاب الجماهير .

واتخاذ باب الشريعة مكانا للعدالة يعتبر — كما يوحى بذلك تداعى المعانى — تعليلا طبيعيا جداً لتسميته باب العدالة أو باب الشريعة ، والشريعة بمعنى الحُدود التى توقع على من وجبت عليه ، وإلى هذا مال المقرى فيما نقله عنه صاحب سلوة الأنفاس حيث قال : « وسُمى باسم باب الشريعة ، لأنه معدود لإقامة حدودها به على من وجبت عليه »[1] .

ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر أن هذا التعليل يبدو أيضا فى الترجمة الإسبانية ، وهى ترجمة قديمة ، لاسم الباب الـكبير بقصر الحمراء المسمى باسم Puerta de la Justicia أو Puerta Judicaria وكان القضاة يجلسون عنده للحكم على عهد بنى نصر كما تدل على ذلك الأخبار المتواترة بين أهل غرناطة. هذا إلى أننا نجد — كما سبق أن لاحظنا[2] —

(١) انظر : الـكتانى : سلوة الأنفاس ج ٣ ص ١٨٦ .

(٢) انظر كتاب المؤلف nscriptions arabes d'Espagne, p. 158 وقد تساءلت فيه فى الحاشية ١ من هذه الصفحة ، مع عدم اقتناعى تماماً ، ألا يمـكن أن يكون اسم باب طليطلة الذى لم يزل يسمى إلى اليوم باسم Puerta Visagra تحريفا للاسم العربي « باب الشريعة » . غير أنه تراءى لى منذ ذلك الوقت أن =

أن أقدم النصوص التى تضمنت وصف الحمراء بعد سقوط المدينة فى أيدى المسيحيين ، لا تذكر هذا الباب بغير اسم باب الشريعة .

وهذه قرينة إن أعوزتنا قرائن أقوى دلالة ، على أن لفظ الشريعة يدل على مكان ، اكتسب الباب اسمه منه .

والشريعة — كما يؤخذ من النصوص العربية التى سيرد ذكرها — ليست إلا مرادفا أندلسيا مغربيا للفظ مصلى فى العربية الفصحى ، وقد رأينا فيما سبق أن المصلى يجاور باب الشريعة فى مدن مراكش .

ويبدو أن دوزى كان أول من جمع عددا من عناصر المشكلة التى نتجت عن لفظ باب الشريعة ، دون أن يقترح حلولا لها فنجد ذلك العالم الهولندى — فى معرض تقريره للحوادث التى تتابعت على غرناطة سنة ١١٦٢هـ — يبين أثناء سرده لهذه الحوادث ، كيف أن ابن الخطيب كان سباقا إلى

= الفرصة قد سنحت للتأكد من عدم فائدة هذه المحاولة التفسيرية . ويؤخذ من دراسة الوثائق التى جمعها : A. Gonzalez Palencia فى Mozárabes de Toledo انظر (المجلد التمهيدى ص ١٠٧) — أن هذا الباب سمى فى العصور الوسطى باسم باب شاقرة أو Porta de la Sagra ، لأنه كان مؤديا إلى الطريق الموصل إلى منطقة مسماة بهذا الاسم ، على بعد عدة فراسخ من شمال شرق طليطلة . وقد ذكر هذا الباب ابن بشكوال فى كتاب الصلة (نشر كوديرا ص ٢٣) ، ونبه على أنه كان موجودا فى ربض طليطلة سنة ٤٠٠ هـ . ثم إن ياقوت أشار إلى هذا الموضع فى معجم البلدان ط وستنفلد ٣/٢٣٧ فى معرض كلامه على حصن وامش فى ناحية شاقرة شرق طليطلة .

استعمال لفظ « ربض البيازين » ، وقد ساق العالم الهولندى كلامه على هذا النحو ، قال[١] « يعبر ابن الأثير بعبارة أخرى إذ يذكر أن ابن مردنيش ، نزل فى الشريعة بظاهر غرناطة »[٢] ، ومعنى هذه الكلمة فى اللغة العربية الفصحى: المكان الذى يستقى منه الماء ، ولكنها تطلق اسما لبعض الأحياء فى المدن المغربية دون أن أعلم سبب هذه التسمية ، فابن صاحب الصلاة يذكر فى معرض حديثه عن مراكش أن البراح الموجود خارج باب الشريعة كان مجاوراً للشريعة القديمة .

وفى كتاب روض القرطاس (ص ٢١) طبعة تورنبرغ ذكر باب بفاس يدعى « باب الشريعة » وقد أمدنى الأستاذ إجيلاث Eguilaz بحقائق نادرة عن باب الشريعة بغرناطة . ومن ذلك فقرة فى مقطوعة من الشعر الشعبي يرد فيها ذكر لبعض المواضع فى غرناطة ، وعنوان هذه المقطوعة Zaide ha prometido fiestas وقد وردت فى ديوان الشعر الشعبي المعروف بـ Romancero de romances moriscos طبعة Duran (مدريد ١٨٢٨) ص ٤٢ — ٤٣ وفى ديوان Romancero Castellano طبعة Depping & alcala-galiano (ليبزج سنة ١٨٤٤ ج ٢ ص ٢٧٩) .

وهاك ترجمة هذه الفقرة الشعرية عن الإسبانية :

---

(١) Récherches sur L'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen - âge الطبعة الثالثة ، باريس وليدن سنة ١٨٨١ ، ج ١ ص ٣٨٢ — ٣٨٤ .

(٢) انظر كتاب الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٢٧ ط الأزهرية .

بعضهم يعدو وبعضهم يصيح
وآخرون يقولون :
انتظموا واذهبوا جميعا
إلى شارع القصبة
وآخرون يقولون إلى الشريعة
لا تتركوها ولا تتركوا رحبتها

ويقول بعد ذلك ، إنه وجد ضمن أحد مخطوطات مدريد (تحت رقم Cod.G. 72 de la Bibl. nac.) أن ذلك كان فى الشريعة ، وليس فى موقع باب البنود ، كما ذكر مارمول فى كتابه : Rebelion de los moriscos (ورقة ٢٨ عمود ٤) من أن الحاجب فيلاسكو دى بربونويبو قد قتله الموركسيون من أهل حى البيازين فى سنه ١٤٩٩ ، ثم يورد بعد ذلك عبارة أخذها من نفس المخطوط ، وهى أنه « فى سنه ١٤٩٩ ، ذهب الملكان الكاثوليكيان (فردناند وإيزابيلا) إلى غرناطة حيث استقبلا استقبالا حافلا ؛ وكان أعظم ما ينبغى مشاهدته يومئذ منظر اجتماع أكثر من ثلاثين ألف مسلم ، مرتدين كلهم عباءاتهم البيضاء فى شريعة البيازين وما يليها فى جميع أنحاء ذلك السهل حتى سان لازار ، وكان ذلك منظرا رائعا » .

يتضح من ذلك أن الشريعة كانت جزءاً مما سمى بعد ذلك بحى البيازين ، ويمكن التوفيق بين العبارتين بقولنا إن جزءاً من الجيش عسكر فيها ، وأن الحى كله كان يقع فوق التل المذكور .

وقد ذهب إلى هذا التفسير للفظ شريعة بمعنى مصلى منذ حوالى عشرين سنة بكثير من العبقرية العالم الإسبانى المغفور له خليان ريبيرا فى فصل قيم تضمنه المجموع الذى نشره لحسن الحظ تلاميذه[١].

ويبدو أن ريبيرا — ولم يطلع على ما ذكره دوزى فى كتابه Recherches — لم يعتمد إلا على نصوص مسيحية ، تكرر فيها ذكر اسم الشريعة فى بلنسية ، حيث وردت عدة مرات فى صيغ مختلفة مثل Exedrea و Exerea وخاصة صيغة Xarea . ويستنتج من ذلك أنه كان يوجد هناك باب شريعة[٢] فى بَلَنْسِية كما كان فى فاس ومراكش ، وذلك إبان الحكم الاسلامى ، وفى المدة التى تلت سقوط هذه المدينة نهائيا فى أيدى المسيحيين ، وأن هذا الباب كان ينفتح نحو وسط السور الشرقى للمدينة وهو الذى كان يمكن الوصول إليه من وسط المدينة ، عن طريق شارع يسمى باسم طريق الشريعة ، أيضا . أما البَرَاح فلم يلبث أن قامت به مبان جديدة بحكم امتداد العمران ، ومن هنا سمى الحى بحى الشريعة Barrio de la xarea ؛ وكان يمكن ريبيرا أن يستشهد تأييداً لرأيه فى تفسير لفظ شريعة بمصلى بعبارة وردت فى المدونة

(١) انظر : J. Ribera y Tarrago : Disertaciones y opusculos طبعة مدريد ، ١٩٢٨ ، ج ٢ من ص ٣٢٦ — ٣٢٩ بعنوان : La xarea de Valencia musulmana وهو المقال الذى نشره المؤلف فى سنة ١٩٢٧ فى مجلة Almanaque de los provincias انظر أيضاً نفس المصدر ص ٢٦٢ — ٢٦٣ فى مقال نشر فى مقدمة : El Archivo de Dénia فى سنة ١٨٨٦ .

(٢) خير نص أيد به ريبيرا تفسيره ما ورد فى :

Repartimiento del reino de Valencia. (illam exeream quest inter illa duo molendina ad portan de Exerea).

التاريخية الأولى Primera Crónica General [1] خاصه بمدينة بلنسية في سنة ١٠٨٦ إذ هدد الحاجب المنذر بن المقتدر من بنى هود مدينة بلنسية فسار من شاطبة أسفل أسوار تلك المدينة ، ونص عبارة المدونة ما يلى : "poso en un lugar que era oratorio. o los moros fazien oracion en sus fisstas, et dizienle en su arabigo axerea". ومعناها : نزل فى مكان كان يستخدم مصلى ، يصلى فيه المسلمون فى أعيادهم ، وكانوا يسمونه فى لغتهم العربية باسم الشريعة .

وكان يمكن العالم الإسبانى المذكور ، أن يجد فى بعض النصوص العربية عن المغرب فى العصور الوسطى ما يؤيد هذا التفسير ؛ ومن ذلك ما ذكره البَيْذق – الرفيق المخلص لابن تومرت — فى معرض كلامه على مرور ابن تومرت ببجاية قادما من المشرق إلى المغرب من أنه ورد المدينة فى شهر رمضان وفى عيد الفطر اختلط الرجال بالنساء فى الشريعة فأقبل الإمام فى وسطهم وراح يفرقهم بعصاه [2].

فماذا كانت إذاً تلك الشريعة ، التى كانت تكتظ بأهل مدينة بَجَاية يوم عيد الفطر ، غير كونها المصلى الخارجى ، الذى كانوا يفدون

---

(١) نشر R. Menendez Pidal ص ٥٥١ ب سطر ٣٠ — ٣٣ . انظر : R. Menendez Pidal : La Espana del Cid الطبعة الأولى ، ج١ ص٣٣٩ .

(٢) انظر : Documents inédits d'histoire almohade ص ٧٩ و ٢٥٩ (حيث اقترحت ترجمة لفظ شريعة بمعنى « رَحْبة » خارج المدينة ، وهى التى كان ينعقد فيها سوق المدينة الأسبوعى) .

إليه لإقامة الصلاة فيه فى الفضاء ؟ ومما يشهد أيضا بأن معنى الشريعة ، هو هذا الفضاء ، ما أورده منذ القرن الحادى عشر الجغرافى أبو عبيد البكرى فى وصفه للجزائر المسمى (جزائر بنى مَزْغنة) حيث يذكر أن هذه المدينة كان بها كنيسة كبيرة بقى منها جدار فى عقد دائرى ، يتجه من الشرق إلى الغرب ، قال: وهو اليوم قِبْلة الشريعة للعيدين(١) ، أو بمعنى آخر أن هذا الجدار — من حيث صلته بصلاة العيدين الجامعة فى العراء فى مدينة الجزائر — كان يستخدم قبلة . وهناك فقرة أخرى قيمة من كتاب الاستبصار ، وهى خاصة بفاس ، وتؤكد أيضا نفس هذا المعنى الخاص بلفظ شريعة فى المغرب الإسلامى ، وفيها أن لكل من عدوتى هذه المدينة — ونعنى بهما عدوة القيروانيين وعدوة الأندلسيين — شريعة لخطبة العيدين (٢) .

ولنا أن نتساءل الآن عما إذا كانت نفس اللفظة مستعملة بهذا المعنى فى باقى أنحاء العالم الإسلامى الناطق بالضاد .

ويبدو أنه لا بد من الإجابة سلبا على هذا السؤال ؛ أما أنا فلم أستطع الوقوف على ذكر لكلمة باب الشريعة فى الشرق اللهم إلا مرة واحدة حين جرى بها قلم الرحالة الأندلسى ابن جُبير ، الذى أطلق هذا

---

(١) انظر : جزائر بنى مزغنة لأبى عبيد البكرى ، ص ٦٦ . وتقل عبارة البكرى صاحب الاستبصار ص ٢٣ ط فينا ١٨٥٢ .

(٢) الاستبصار ٧٠ .

الاسم على أحد أبواب المدينة[١] ، فى رحلته إلى الحج ، وهى الرحلة التى كتبها فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ؛ ومن العجيب أن نفس العبارة لم ترد فى أى مرجع آخر — فيما أعلم — وذلك على الرغم من وجود أوصاف مفصلة عن هذه المدينة المقدسة ، كما هو الحال فى كتاب « وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى » للسمهودى . فهل يفهم من هذا أن ابن جبير قد أطلق هذه التسمية من عنده ، باعتبارها مألوفة لديه فى بلاده ، حتى صارت فى نظره تعبيراً فنيا شائعا يمكن إطلاقه أيضا على باب المدينة الذى كان ينبغى اجتيازه فعلا لبلوغ المصلى النبوى ؟

على أن لفظ الشريعة بمعناه الخاص ، الذى كان يمثله فى العصور الوسطى فى بلاد المغرب الإسلامى ، يظهر أنه لم يعد اليوم مستعملا فى جميع أنحاء المغرب العربى[٢] ، وإذا جاز وجوده فى بعض الأنحاء ، فإنما يطلق على أسماء بعض الأماكن فقط ، قد خلده ذكر الناس له على مر القرون .

---

(١) انظر رحلة ابن جبير طبعة W. Wright & De Goeje فى ليدن ولندن سنة ١٩٠٧ ص ١٩٨ سطر ٤ والترجمة الإيطالية للأستاذ Schiaparelli طبعة روما سنة ١٩٠٦ ص ١٨٤ حيث ترجمها Porta dell abbeveratorio ويجد فى المعجم الملحق بطبعة Wright لفظ الشريعة مفسراً بعبارة : « مكان الاجتماع » ، فى معرض كلام ابن جبير (ص ٢٩٥ ، والمعجم ص ٣٧) على وصف مشاهد الجنازات فى دمشق .

(٢) لا أدرى علام اعتمد الأستاذ ريبيرا فى أن «أهل شمال إفريقية وخاصة أهل المغرب يطلقون الشريعة على المصلى الواقع فى العراء» والفقرة الواردة فى : Archives Marocaines ج ١١ ص ٢٠٧ ، التى يحيل إليها تبعاً لكتاب : : Pedro Longas =

ومما يصور معناه الحقيقى أن باب الشريعة يجاور أحيانا فى المواضع المغربية مرادفه لفظ المصلى ، وكلا اللفظين يطلق على مصليات ريفية قديمة ، بحيث أحيطا بهالة أسطورية غامضة واكتسبا شكلا دينيا مقدسا فى العقائد الشعبية[1]

بقى أمامنا بعد هذا مسألة أخيرة يجب توضيحها : وهى لماذا كانت أبواب الشريعة ، وملحقاتها الخارجية المباشرة فى المدن المراكشية فى العصور الوسطى غالبا أماكن جرى العرف على اتخاذها لإقامة الحدود فيها ؟ أيرجع هذا فى سهولة إلى أن المصلى فى أصوله الإسلامية كان يستخدم مكانا تقام فيه الحدود ؟[2] ، كما تدل على ذلك الأحاديث

= Vida religiosa de los moriscos طبعة مدريد سنة ١٩١٥ ص ١٣٣ حاشية ١ لم تذكر غير عبارة (مصلى) فقط . ولفظ شريعة الذى لم يفسره دوزى وفنيان غير تفسيرات ناقصة وخاطئة ، لم يبق موجوداً فيما أعلم إلا فى وهران بمعنى (كتاب ريفى) انظر خاصة : W. Marçais : Quelques Observations sur le dictionnaire de Beaussier publié en l'honneur du XIV è congrès des Orientalistes الوارد فى : Recueil de Mémoires et de Textes طبعة الجزائر سنة ١٩٠٥ ص ٤٤٦ حيث ورد المعنى : «خيمة مدرسية عند البدو» . ويمكن أن نقرر أنه إذا كان Vocabulista لا يورد فى معنى لفظ oratorum شريعة فإنه يذكر إلى جانب لفظ المصلى لفظا مشتقا من الأصل الذى درسناه هنا وهو مشرع .

(١) انظر خاصة التقارب العجيب بين لفظى شريعة ومصلى فى : J. Desparmet : Ethnographie traditionnelle de la mitlidja, la calendrier folklorique الوارد فى : Revue Africaine ج ٧٧ ، المجلدان الثالث والرابع من سنة ١٩٣٥ ص ١٩٣ وقد جاء فيه أن الباحثين سيجدون عددا كبيرا من هذه الأماكن المسماة شريعة (أى مكان العدالة) أو مصلى وهى أماكن مرعبة .

(٢) انظر خاصة A. J. Wensinck فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٧٩٧ تحت لفظ مصلى وما ورد من مراجع البخارى والطبرى .

الواردة عن عصر الرسول منذ هجرته إلى المدينة المنورة ؟ [١] .
وهل تجددت هذه السنة فى المغرب الإسلامى خاصة على عهد بنى عبدالمؤمن بن على، القوامين على مذهب الموحدين، وصاحبه المهدى بن تومرت الذى عرف عنه شدة تمسكه بالسنة النبوية؟ هذا الفرض الذى لايخفى ضعفه تتجلى قيمته فى عدم ابراز المفهوم العادى للفظ شريعة بمعنى الحدود، وفى الاقتصار على المدلول الإسبانى المغربى للفظ بمعنى « مصلى فى العراء » . على أنه ليس هناك مايمنع من أن هذا المدلول، وقد تجاوز حقيقة استعماله فى المغرب ، صارت الحاجة معه ماسة إلى ربط معناه بفكرة « العدالة » [٢] .

---

(١) انظر المراجع التى جمعها فنسنك فى A Handbook of early Mohammadan Tradition ليدن ١٩٢٧ ، ص ١٧٣ فى لفظ مصلى و ص ٢٠١ لفظ punishment.

(٢) بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، عقد الأستاذ لويس سكودى لوسينا فى باب : Crònica Arqueològica de la Espana Musulmana من مجلة الأندلس مجلد ٧ سنة ١٩٤٢ ص (٤٣٨ — ٤٥٨) ، دراسة شاملة عن أبواب غرناطة فى القرن الرابع عشر عنوانها : Las puertas de la cerca de Granada en el siglo XIV. ثم إن الأستاذ ليوبولدو طوريس بالبس ، نشر فى الباب نفسه دراسة رائعة ، عن المصليات الخلوية فى إسبانيا الإسلامية بعنوان : "Musalla" y "sarià" en la ciudades hispanomusulmanas. (مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، سنة ١٩٤٨ ص ١٦٧ — ١٨٠) .

الفصل الثالث

تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة فى القرن التاسع الميلادى

ظهر هذا البحث فى مجلة Byzantion ج ١٢ ، طبعة بروكسل ، سنة ١٩٣٧ ، ص ١ — ٢٤

كان ر . دوزى R. Dozy فى تاريخه عن مسلمى إسبانيا ، من أوائل من نوهوا بقيام علاقات دبلوماسية عارضة بين الأمويين فى عصر الإمارة ، ثم فى عصر الخلافة بقرطبة ، وبين أباطرة بيزنطة [1] ؛ غير أن هذا العالم الهولندى وغيره من المؤرخين الذين جاءوا بعده — لم يوضحوا هذه العلاقات إلا بإيجاز ، فدوزى نفسه قد فاته أن يذكر أن أكبر حكام اسبانيا الإسلامية وهو عبد الرحمن الناصر ، استقبل سفارة رسمية واحدة على الأقل من القسطنطينية ، كما ورد ذكرها فى الروايات العربية القديمة التى نقلها المؤرخون المسلمون فى القرن الرابع عشر ، وإن لم يتفقوا على تاريخها بالضبط [2] .

والمعروف أن الحكم المستنصر (٩٦١ — ٩٧٦ م) ، جدد هذه العلاقة مرة على الأقل . عندما أرسل إلى نقفور فوقاس Nicéphore Phocas وفداً لإحضار صانع مختص فى الفسيفساء إلى إسبانيا ، يشرف على زخرفة الأجزاء الجديدة من المسجد الجامع

---

(١) R.Dozy : Histoire des musulman d'Espagne.
طبعة جديدة ، راجعها وجددها E. Lévi-Provençal طبعة ليدن ، سنة ١٩٣٢ ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ طبعة دوزى ص ٢٢٩ و ٢٣١ و ٢٤٦ ـ ٢٤٧ و ٢٤٨ . وابن خلدون : كتاب العبر طبعة بولاق ج ٤ ص ١٤٢ ـ انظر خاصة عن هذه السفارة والسفارات التى تليها :
É. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane
ج ١ ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٨٢ .

بقرطبة فى ذلك الحين (١) . وقد لحظ الباحثون بحق ذلك التأثير الذى لا يمكن إغفاله لبيزنطة وفنانيها على الفن الزخرفى لآثار قرطبة فى القرن العاشر ، مما لا يمكن فصله بحال من الأحوال عن العلاقات السياسية ، التى يعتقد أنها قامت أو استمرت فى نفس المدة بين الإمبراطوريتين (٢) .

والمعروف أن هذه العلاقات ظلت - رغم ذلك - ضعيفة أو متباعدة ، إذ أن قرطبة ، عاصمة الخلافة ، بحكم الأوضاع القائمة ، قد اهتمت بالغرب أكثر مما اهتمت بشرق أوروبا . وينبغى ألا ننسى أن الأمويين بإسبانيا كانوا من سلالة سورية ، أى شرقيين ، حتى إن هذا الأصل كان سبب نبلهم وارستقراطيتهم ، التى استطاعوا استغلالها من ناحية أخرى ، غير أن مصير وطنهم الأول ، والخلافات التى قامت بين الحكام المسلمين فى الأسرة التى خلفتهم وهم العباسيون ، وبين أباطرة المسيحيين بالقسطنطينية ، لم يكن لها منذ البداية ، غير آثار طفيفة على السياسة الشخصية للحكام الأندلسيين وقد ساعد الزمان وبعد المكان على

(١) انظر خاصة : E. Lévi-Provençal : l'Espagne Musulmane au X é Siécle, P. 217.

(٢) انظر : G. Marçais : Manuel d'art musulman : l'Architecture (Tunisie, Maroc, Espagne, Sicile) باريس سنة ١٩٢٦ جـ ١ ص ٢٠٨ وكذلك : H. Terrasse : L'art hispano-mauresque باريس سنة ١٩٣٢ ص ٩٧ - ١٠٣ وكذلك : E. Lévi-Provençal: Histoire de l'Espagne musulmane الجزء الأول ص ٢٧٩

زيادة العداء المعهود بين الأمويين بإسبانيا، وبين خلفاء بغداد، بحيث بدأ الشام يفقد فى نظرهم صفة «الفردوس المفقود» بعد أن صاروا يحكمون أرضاً لها نفس المميزات والثراء والخصوبة والطبيعة التى لا تقل عن الشام تنوعا وانسجاماً . وإذا صرفنا النظر عن المشاغل العديدة التى سببتها لهم فى مملكتهم ثورات المستعربين، والمحاولات الهجومية للإمارات المسيحية الواقعة إلى الشمال من شبه جزيرة ايبيريا — فإن الخطر الأجنبى الذى كان على أمراء قرطبة مواجهته، لم يكن خطراً عباسياً، وإنما كان هناك خطر أقرب إليهم وأكثر قسوة عليهم، ألا وهو خطر الفاطميين وأتباعهم الأقوياء بشمالى إفريقية القريب منهم. ثم إن بيزنطة — لما لها من جاه سياسى فى أقصى الناحية الأخرى من البحر الأبيض — لم يكن لها إلا أن تظل قليلة الاكتراث بالأمويين فى إسبانيا .

ولم يكن هذا شأن الحضارة البيزنطية، بالنسبة للثقافة الإسبانيه، فقد رسخت بقوة فى المجتمع الإسبانى الإسلامى فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، على نحو لم تعهده من قبل، شأنها فى ذلك شأن حضارة العباسيين فى العراق ؛ وضعُف ولاء هـــذا المجتمع للتقاليد الشامية إلا ما كان من ولاء لذكريات قديمة، لم تستطع البقاء أو مقاومة الزمن .

ومهما كان من أمر هذه العلاقات الرسمية، ومن ظهورها بهذا

المظهر الضعيف ، الذى كان قائماً بين قرطبة الإسلامية وبيزنطة ، فإنها – نظراً لندرة النصوص الأصلية المتعلقة بها – جديرة بالبحث المستفيض ولعل في الصفحات المقبلة ما يعين على هذا البحث .

* * *

فى كتاب نفح الطيب للمقرى عبارتان ، انفرد بهما [1] عن قدوم سفارة من قبل الإمبراطور توفلس Théophile إمبراطور الأسرة العمورية إلى قرطبة، فى غضون عام ٢٢٥ هـ (٨٣٩ / ٨٤٠ م) على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذى امتد حكمه من سنة ٨٢٢ م إلى سنة ٨٥٢ م، وعن الوفد الذى أرسله الأمير فى نفس السنة إلى القسطنطينية . على أن ما أشار إليه المقرى فى هذا الصدد لم يظل خافياً [2] ، غير أن

(١) المقرى : النفح ١/٢٢٣ ، ٦٣١ وما يليهما ، طبعة ليدن .

(٢) انظر :

Dozy : Recherches sur L'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen age.

الطبعة الثالثة ، باريس – ليدن ، ١٨٨١ ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ؛ وكذلك :

A.A. Vasieliev : Byzance et les arabes.

الجزء الأول بعنوان :

M. Canard طبعة فرنسية للأستاذين م. كانار La dynastie d'Amorium وهـ. جريجوار H. Grégoire ، بروكسل سنة ١٩٣٥ ، ص ١٧٢ – ١٨٨ وكذلك :

Ch. Diehl &. G. Marçais : Le monde oriental de 395 à 1081, Vol VII : Histoire du moyen-age

مجموعة G. Glotz باريس ١٩٣٦ ص ٣١٣ (مع اللبس فى إطلاق لقب خليفة على عبد الرحمن الأوسط) .

ضآلة مادته لم تسمح لمؤرخى العلاقات العربية البيزنطية ، باستخلاص شىء كثير منها . على أن الكشف الحديث لنصوص عربية أكثر وضوحا من روايات المقرى والناقلين عنه المياالين للإيجاز — تفيدنا اليوم بعكس ما كان قبلا ، وتمدنا بمعلومات أكثر تفصيلا عن هذه السفارة المزدوجة

وقد وردت هذه النصوص الجديدة مجتمعة فى مخطوطة عثر عليها بين مخطوطات مهمة كثيرة أخرى فى مكتبة جامع القرويين بفاس ؛ وهذه القطعة الخاصة بالأمويين فى اسبانيا الإسلامية إبان القرن التاسع ، تؤلف جزءاً من كتاب « المقتبس » لأبى مروان ابن حيان مؤرخ الأندلس ؛ وينبغى أن نذكر بهذه المناسبة أن هذا النص قد أمدنا بمعلومات جديدة مهمة عن طبيعة الزيادات التى أدخلها عبد الرحمن الأوسط على المسجد الجامع بقرطبة [١] فى النصف الأول من القرن التاسع .

وقد جرى ابن حيان فى كتابه هذا على ما جرى عليه غيره من مؤرخى العرب حيث يعرض الحوادث مرتبة على حسب السنين ،

---

(١) انظر دراسة ا. لامبير E. Lambert المبنية على الوثائق التى أعرتها له بعنوان :

L'histoire de la grande mosquée de Cordoue aux VIII et IX e Siècles d'après des textes inédits.

المنشور فى :

Annales de l'Institut d'Etudes orientales de l'Universifé d'Alger.

ج ٢ ، باريس ، ١٩٣٦ ، ص ١٦٥ — ١٧٩ .

ثم إذا عرض حادث له أهمية فى خلال سنة من هذه السنين ، يورد شواهد أدبية وعبارات لمن سبقه من المؤرخين . ومن ثم فإن الرواية الخاصة بالسفارة المزدوجة فيما بين سنتى ٨٣٩ و ٨٤٠ م ، قد اقتبسها ابن حيان من مؤرخين عاشا فى نهاية القرن العاشر ، وهما الحسن بن محمد بن مفرج (١) ، وعيسى بن أحمد الرازى (٢) .

وسنذكر فيما يلى ما ذكره هذان المؤرخان ، سواء ما اتفقا عليه أم ما كمل فيه أحدهما الآخر (٣) .

يقرر هذان المؤرخان أن سفيراً من لدن الإمبراطور توفلس « ملك الروم الكبير وصاحب القسطنطينية » Théophile ، قد وصل فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ — ٨٤٠ م) إلى العاصمة الإسبانية ، وكان هذا ترجمانا بالبلاط البيزنطى اسمه قرطيوس الرومى Kartiyus « . وكان يحمل هدايا إلى أمير الأندلس ، ورسالة رسمية يطلب فيها توفلس من عبد الرحمن الأوسط مواصلته ، ورغبه فى ملك سلفه بالمشرق ،

(١) انظر عن هذا المؤرخ المتوفى فى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) :
F. Pons Boigues : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arábigo-espanoles.
طبعة مدريد ، ١٨٩٨ ، ص ١١٩ رقم ٨٦ .

(٢) انظر É. Lévi-Provençal فى دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ١٢١٦ .

(٣) فيما يختص بالسفارة المزدوجة فى ٨٣٩ — ٨٤٠ م انظر أيضاً :
É. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane
جـ ١ ؛ ص ١٧٥ — ١٧٨ .

ويطلب منه أن يعقد معه معاهدة صداقة ، ويضيف أحد المؤرخين إلى ذلك أنه قد تعهد له فى نفس الوقت بأن يستعيد له ميراث أجداده الأمويين فى الشرق ، أى الشام ، وهو الذى كان العباسيون قد انتزعوه، كما طلب هو لنفسه فى النهاية جزيرة كريد ، وكانت قد وقعت فى أيدى مغامرين من أصل إسبانى . وواضح أن كلا من المؤرخين الأندلسيين لم يحاول إيضاح الدوافع التى حدت بالإمبراطور توفلس فى تلك السنة وهى سنة ٨٣٩ م ، إلى توجيه رسالة كهذه إلى عبد الرحمن الأوسط . ومع هذا فهناك معلومات كافية عن سياسة بيزنطة الخارجية فى ذلك العهد ، يمكن أن تعوض صمت المؤرخين ، وأن تجد إيضاحا مقبولا لهذا التصرف الذى لم يكن منتظراً من جانب الإمبراطور اليونانى .

كان الخليفة العباسى فى ذلك التاريخ هو المعتصم ، وقد خلف أخاه المأمون فى سنة ٨٣٣ م ، وكان قد أوقف المعارك الحربيـة ضد بيزنطة ، ولـكنها لم تلبث أن عادت سنة ٨٣٧ م تحت تأثير توفلس ، ففى غضون هذه السنة ، استولى الإمبراطور فعلا على حصن زبطرة Zapetra . وكان رد المعتصم حاسماً ، إذ اجتاح داخل آسيا الصغرى ، ونجح بعد حصار دام اثنى عشر يوما ، فى الاستيلاء على موقع عمورية الحصين فى ١٢ أغسطس سنة ٨٣٨ م بعـد عناء شديد ، وكانت مهد الأسرة البيزنطية الحاكمة نفسها . غير أن هذا النصر العباسى كان قصير الأمد ، إذ أن جيوش المعتصم ما لبثت أن تقهقرت بعد هذا التقدم

المضى فى قلب إمبراطورية القسطنطينية . ومنذ السنة التالية ، كان الموقف الحربى لبيزنطة قد ثبت فى آسيا الصغرى . ويبدو بناء على هذا أن وقعة عمورية لم تكن الدافع للإمبراطور توفلس على إنشاء علاقات دبلوماسية مع قرطبة . على أن سفارة إسبانيا لم تكن السفارة الوحيدة التى رأى إمبراطور بيزنطـــة وجوب إرسالها فى سنة ٨٣٩ — ٨٤٠ م إلى غربى البحر الأبيض . إذ أن هناك وفدين آخرين رحلا فى هذه الحقبة أحدهما الى مدينـة إنجلهايم Ingelheim حيث كان بلاط لويس الصالح Louis le Pieux (١٧ يونيـة ٨٣٩ م) ، والثانية إلى البندقية (٨٤٠ م) وكانت الغاية منهما إنشاء تحالف مع الفرنجة والبنـادقة ضد مسلمى إفريقية وصقلية ممن كانوا يهددون الممتلكات البيزنطية بإيطاليا ، بنزولهم على سواحل كالابريا Calabria وأبوليا Apulia ، وباستيلائهم على تارانت Tarente [١] وذلك بفضل استفادتهم من الاضطرابات التى كانت سائدة حينذاك فى مدينة بنفان Bénévent . وعلى هذا كان الدافع الحقيقى لتوفلس هـذه المرة هو مواجهة الخطر الإسلامى ضد ممتلكاته الغربية ، مما دفعـه إلى مخاطبة قرطبة الإسلامية ، كما التجأ إلى الفرنجة وإلى البندقية المسيحية سواء بسواء . على أننا لا نفهم على أى شكل قام التدخـل القرطبى ضد

---

(١) انظر فيما يختص بهذه السفارات : Vassiliev فى كتابه المذكور ، ص ١٧٧ وما يليها ، وص ١٨٤ (حاشية ٤) .

العباسيين ، حيث كان مسرح العمليات البعيدة عن أسبانيا . والمفهوم جيداً على أى حال هو أن توفلس يبدو على العكس من ذلك أنه كان قد سعى إلى إقناع الأمير الأندلسى بطريقة ما ، ومع استعمال المغريات له — بحق هذا الأمير ، فى احتلال مركز العباسيين فى الجزء الشرقى من المغرب الإسلامى أو بطريقة أكثر واقعية أيضاً ، وهى الاستيلاء على مركز تابعيهم اسما ، وهم الأغالبة فى إفريقية . وقد كان هذا بلا شك الدافع الأساسى للرسالة التى حملها الترجمان قراطيوس Kartiyus إلى قرطبة .

ويضيف المؤرخان إلى ذلك أن عبد الرحمن الأوسط قد استقبل سفير توفلس بحفاوة بالغة . وقد ملأت هداياه قلب الأمير الأندلسى سروراً ، بقدر ما بعثت فيه من كبرياء ، فلم يتوان عن إعادة الترجمان البيزنطى إلى القسطنطينية مع وفد إسلامى ، فاختار لهذا الغرض منجمين من المقربين إليه ، أى شخصيتين متخصصتين فى العلوم البحتة ، أحدهما يحيى الغزال ، الذى كان شاعراً مشهوراً يخشاه الناس لهجائه اللاذع ، ولسرعة بديهته ، وكان الثانى يسمى يحيى أيضاً ، ولعله اخترع نوعاً من الساعات مما أدى إلى تلقيبه بصاحب المنيقلة وقد عهد الأمير إلى هذين المبعوثين بالرد على الإمبراطور البيزنطى ، وهو أمر لم يكن منتظرا بل يعد نادراً فى تاريخ الغرب الإسلامى . وقد نقل ابن حيان نص تلك السفارة كاملا ، عن الرازى ، وهو نص له ما يؤيده

ويعززه ، وسنورده فيما بعد . غير أن عدم الدقة والغموض المقصود في هذه الوثيقة يستدعي تعليقاً على عباراته الجوهرية .

* * *

يرمى رد الأمير القرطبي على الامبراطور تَوفِلِس بوجه عام إلى شيء واحد هو عدم رغبته في استقبال أحد ، وهذا رد لا يعتبر دبلوماسياً في جميع الأحيان . ومع ذلك فهو يعطينا في الوقت ذاته فكرة عن مضمون الرسالة البيزنطية . إذ أن الكاتب القرطبي الذي حرر الرسالة العربية ، قد تناول نص الرسالة اليونانية ، فقرة فقرة : كما لو كان هو المكلف باستقبال الترجمان البيزنطي مع احتفاظه من ناحية أخرى بالرد الحقيقي على الأسئلة المطلوبة والاقتراحات التي اقترحتها حكومة القسطنطينية . ونجد الأمير القرطبي بعد أن يدخل في موضوع الرسالة التي لا تظهر فيها عبارة من عبارات المجاملات السياسية وربما ، كان الرازي هو الذي أخذ على عاتقه حذفها - يصرح بأنه فهم جيداً أن الرسالة البيزنطية قد أنبأته بالوفاة المحزنة لجده مروان الثاني [١] ، سنة ٧٥٠ م ، تحت ضربات العباسيين ، وبأنه لا يجهل الطغيان الواقع على أتباعهم ، على يد خليفتهم في الشرق وهما معاصراه المأمون [٢] وأخوه المعتصم [٣] . وهما لا يذكران في الرسالة الأموية باسميهما

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٣٥ ـ ٥٦ مقالة
K. V. Zettersteen

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ (نفس المؤلف) .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٨٣٨ ـ ٨٣٩ مقال :
K. V. Zettersteen

الحقيقيين أو بلقبيهما الشرفيين اللذين يذكران بهما عادة ، وإنما يكنى عنهما على سبيل التحقير بلاريب ، وربما حدث ذلك أيضا فى الرسالة البيزنطية - باسم ابن مراجل وابن ماردة . وهما امرأتان كانتا أمتين لهرون الرشيد ، وأنجبتا ولدين توليا العرش من بعده . ويعلم الأمير القرطبى من الرسالة أن الأسرة العباسية ، كما يعتقد توفلس على الأقل - قد وصلت إلى نهايتها ، وأن اللحظة قد واتت - حرصاً على مجد الإسلام والأمويين - للانتقام منها لمخازيها العديدة، غير أن عبدالرحمن الأوسط يتحفظ فى موقفه بهذا الصدد ، ونشعر بأن الإمبراطور البيزنطى قد استهان بالقوة الحقيقية لدولة الأندلس أو لم يحط خبراً بها ، وهذا ما لم تشر إليه الرسالة بطبيعة الحال .

وقد حاول توفلس فى رسالته محاولة أخرى لا تخلو من الدهاء ، وإن كانت أقل عاطفية ، وهى محاولة إقناع عبد الرحمن الأوسط بفائدة محالفته إياه ، ذلك أنه لم يكن قد انقضى بعد خمسة وعشرون عاما على ثورة الرّبض جنوبى قرطبة أيام الأمير الحكم والد عبد الرحمن الأوسط ، الذى فتك بالثوار فتكا ذريعا (١) فأما الذين نجوا من القتل فقد أخرجوا من قرطبة ، فلجأ بعضهم إلى طليطلة ، ولجأ الآخرون إلى مراكش ، حيث عمروا جانباً من فاس ، وكان

---

(١) انظر :
E. Levi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane
الجزء الأول ص ١١٣ - ١٢١ .

الأمير إدريس الثانى قد بدأ فى تأسيسها ، وهاجر فريق آخر من « أهل الربض » أو « الربضيين » - كما يسميهم مؤرخو العرب - إلى مصر برأسهم شيخ من بينهم يدعى أبا حفص عمر البلوطى ، وحاولوا أن يكونوا سادة على الإسكندرية ، غير أنهم ما لبثوا أن فشلوا فى محاولتهم هذه ، واضطروا إلى الرحيل إلى جهة أخرى فنزلوا كريت - وكانت حينئذ تابعـــة لبيزنطة ونجحوا فى الاستيلاء عليها سنة ٨٢٧ م ، وأنشأ فيها أبو حفص البلوطى أسرة ظلت تحكمها إلى أن استولى عليها اليونانيون سنة ٨٦١ م [١] .

والظاهر أن تذكير عبد الرحمن الأوسط بهذا التدخل الأندلسى ، الذى لم يعد أن يكون أمراً عارضاً ، فى ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية كان ضعيف الأثر فى نفسه ، فنراه يقتصر فى رسالته المسددة على ما يذهب إليه فى شأن هؤلاء المنفيين من أنهم ثوار خونة لوطنهم الأصلى ، ولكنهم على أى حال لم يعودوا من رعاياه . ومن ثم فلا يسأل عما يفعلون ، ولذلك فهو يبيح للامبراطور البيزنطى

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٨٩ ـ ٩٠ (مقال عن أبى حفص كتبه C. F. Seybold) وكذلك :

M. Gaspar Remiro : Cordobeses Musulmanes en Alejandria Y. Creta

المنشور فى Homenaje à D. Francisco Codera سرقسطة ١٩٠٤ ص ٢١٧ ـ ٢٢٣ وخاصة Vasiliev فى كتابه المذكور ص ٤٩ وما يليها (حيث ذكر فيها التاريخ الحقيق لغزو الجزيرة ٨٢٧ ـ ٨٢٨) .

أن يطردهم بقوة السلاح ، ثم إنه لا يخفى دهشته من أن الامبراطور العظيم يأبه لحفنة من المغامرين إلى حد أن تثير ثائرته .

ولا يرد فى رسالة عبدالرحمن ذكر لعلاقة أمراء إفريقية (تونس) بالخلفاء العباسيين فى المشرق ، وكانت حكومة بيزنطة تضيق بسياستهم الاستقلالية .

والأغالبة هم أمراء إفريقية وعاصمتهم القيروان ، وكان أبو عقال الأغلب بن إبراهيم أميرهم فى ذلك الحين ، قد توفى بعد ذلك بعام وخلفه ابنه أبو العباس محمد ؛ والمعروف أنهم كانوا قبل ذلك بزمن طويل قد خلعوا عنهم الوصاية العباسية ، التى كانت اسمية بحتة ، ولم يكن يخفى على عبد الرحمن ، رغم بعد بلاده عن بيزنطة ، أنهم كانوا الأعداء المباشرين للسلطة البيزنطية ، التى كانت تخشى احتلالهم لصقلية وتخشى حملاتهم المتكررة على سواحل إيطاليا الجنوبية ، ومع هذا نجده لا يذكر كلمة واحدة عن هذا كله فى رده ، مفضلا بلا شك أن يبقى متحفظا حريصاً ، لأنه كان يعلم فى نفس الوقت أن ذلك من شأنه مظاهرة مشرك على توسيع رقعته فى دار الإسلام .

ويختتم الأمير الأندلسى رسالته بإعلانه عودة سفير الامبراطور توفلس يرافقه اثنان من الأندلسيين ، كما يدعو الامبراطور فى أسلوب حريص جداً على أن يزودهما عند عودتهما بهدايا جديدة ، ثم يروى الرازى ـ وهو الذى نقل نص هذه الرسالة القرطبية ـ نبأ رحيل السفارة الإسلامية ، ووصولها إلى القسطنطينية ، واستقبال توفلس إياها ،

وتسلمه منها هدايا الأمير الأموى ، ثم رده الرسمى . ويزيد المؤرخ على هذا أن السفيرين الأندلسيين قد ركبا البحر بعد هذا بقليل وعادا إلى بلاد الأندلس .

وعلى نبأ هذه السفارة المزدوجة بين بيزنطة والأندلس من سنة ٨٣٩ - ٨٤٠ تقتصر الوثائق الجديدة ، غير أن ابن حيان ذكر فى كتابه المقتبس إلى جانب هذه الرسالة أخباراً عن يحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، وكان أحد هذين الرسولين وهى أخبار لا تخلو من أهمية

وهذه الشخصية تبدو من أعجب شخصيات القرن التاسع الميلادى ، فى إسبانيا الإسلامية [1] وكان قد بلغ فى ذلك الوقت سناً متقدمة ، لم تكن تسمح له بسهولة أن يقبل الذهاب فى بعثة دبلوماسية كلفه بها سيده لدى الإمبراطور البيزنطى ،ولكنه ركب البحر مع رفيقه وسميه يحيى ، والترجمان اليونانى ، بعد أن تهيأ لذلك وزود أسرته التى تركها فى قرطبة بما يلزمها من نفقة . ثم خرج من ميناء مرسية فى تدمير ليواجه رحلة شاقة ، تعرضت فيها السفينة للعواصف ، حتى بلغ القسطنطينية فى النهاية . وهناك ما لبث أن تجلت حكمته وصرامته

(١) تكلم عنه ابن حيان فى الجزء الذى لم ينشر من كتاب المقتبس وهو خاص بامارة الحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط ، وانظر أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ٦٢٩ ـ ٦٣٤ ؛ وكذلك : Pons Boigues : Ensayo, No. 2 ص ٣٨ وما يليها ـ نقلا عن كتاب : Dozy : Recherches وكذلك : E. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane ج ١ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

فى أسلوب حديثه . ويحتوى كتاب المقتبس لابن حيان ، على عدة أحاديث تكاد تشبه الأساطير فيما يتعلق بانجاز مهمة البعثة ، وهى جديرة بأن نقف عندها قليلا .

فعند وصول الوفد الإسلامى إلى العاصمة البيزنطية ، حدث أن كلف موظف بيزنطى - كان مقدم السفراء - بتعريفه بآداب البلاط والاستقبال فيه ، ثم دعى الغزال لمقابلة توفلس . فاشترط الغزال عليه ألا يسجدا له ، وألا يخرجهما عن شىء من سنتهما ، فأجابهما إلى ذلك ، فلما مشيا إليه قعد لهما فى أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه ، فضيق حتى لا يدخل أحد عليه إلا راكعا . فلما وصل إليه جلس إلى الأرض ، وقدم رجليه وزحف على أليتيه زحفة ، فلما جاز الباب ، استوى واقفا ، والملك قد أعد له ، وأحفل فى السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعره ، بل قام ماثلا بين يديه [1] .

ولم يملك توفلس إخفاء ابتسامة إعجاباً به قائلا لرجالات دولته المحيطين به : كان الحكماء على حق فى قولهم إن من شخصية الرسول يعرف سيده . إن هذا الأندلسى حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم .

وحدث مرة أخرى ، أن طلب الغزال وهو فى حضرة الإمبراطور ماء ليشرب ، فأحضروا له كأساً من الذهب المزدان بالأحجار الكريمة

---

(١) المطرب لابن دحية الكلبي .

فلما شرب وارتوى سكب الماء الذى بقى فى الكأس على الأرض، وأخفى الكأس فى كم عباءته، ورأى الإمبراطور فى ذلك ما لا يليق وصرح به على لسان ترجمانه، فكان رد الغزال عليه: إن أمراءنا الذين تبغون صداقتهم، قد اعتادوا عند ما يطلب أحد السفراء أن يشرب فى حضرتهم — أن يطلبوا له كأساً ثمينة، يمكنه الاحتفاظ بها بعد شربه منها. فإذا كانت عادة سادتى هذه غير متبعة لديكم، فإنى مستعد لإعادة كأسكم إليكم، وهم السفير بإخراجها من كمه، إلا أن توفلس بادر فأشار إليه بالاحتفاظ بها.

هذه الحكايات ليست بذات أصالة كبيرة، إذ لا يشق على الباحث أن يجد روايات قريبة منها فى الآداب الشعبية لبلاد عدة، وهناك حكايات أخرى عن مقام الغزال فى القسطنطينية تبدو أكثر وثوقاً من سابقتها، وتظهر فيها على مسرح الحوادث، الإمبراطورة ثيودورا Theodora المعروفة فى الروايات العربيـــة بتود، زوجة توفلس، وابنها الامير الطفل ميشيل، ولعله خلفه سنة ٨٤٢ م، أى بعد هذا بزمن وجيز جداً. ويبدو فى هذه الحكايات، أن الغزال لم يلبث أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة فى العاصمة البيزنطية. ذلك أنه كان يوماً جالساً فى حضرة ملك الروم وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسناً، فجعل الغزال لا يميل طرفه

عنها، وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه، فأنكر ذلك عليه، وأمر الترجمان بسؤاله فقال له: « عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه، فإنى لم أر قط مثلها »، وأخذ فى وصفها، والتعجب من جمالها، وأنها شوقته إلى الحور العين. فلما ذكر الترجمان ذلك للملك، تزايدت حظوته عنده، وسرت الملكة بقوله[1].

وحدث أن خصص لسكن الوفد الأندلسى قصر من قصور القسطنطينية، سماه ابن حيان باسم (أكادمية من مرمر).

ويقال إن الإمبراطورة قد أتت فى مناسبة خاصة، فى إحدى الأمسيات الشديدة الزمهرير، لزيارة الشاعر القرطبي، برفقة ابنها الأمير ميشيل، وأحضرت إليه معها نبيذاً، وقد نظم الغزال فى مناسبة هذه الزيارة قصيدة تتمثل فيها بعض الصور الشعرية الرائعة لهذا العصر يقول فيها:

وَأَغْيَدَ لَيِّنِ الأَطْرَافِ رَخْصٍ
كَحَبْلِ الزَّرْفِ ذى عُنُقٍ طَوِيل

---

(١) نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٤٤٤ .

ترى ماء الشَّبابِ بوَجْنَتَيْهِ
يَلوح كَرَوْنَقِ السَّيفِ الصَّقيلِ
من ابناء الغَطَارِفِ قيصرى الـ
عمومةِ حين ينسبُ والخُؤولِ
كأنَّ أديمه نِصفًا بنِصفٍ
من الذهب الدِّلاَصِ أو الوَذِيلِ
وَرُبَّما أُكَرِّر فيــه طَرْفِي
فأحسب أنه من عَظْم فيــلِ
على قَدٍّ ســواءٍ لا قصيرٍ
فتحقِرُهُ ولا هُــوَ بالطويلِ
ولكن بين ذلك فى اعتدالِ
كَغُصْنِ البانِ فى قرب المَسيلِ
يَحِنُّ إلىَّ مضطرباً لشكلى
ويُكثر لى الزيارة بالأصيلِ
أتى يوماً إلىَّ بزِقِّ خمرٍ
شَمُولِ الريح كالمِسْكِ الفتيلِ

ليشربها معى ويبيتَ عِنْــدى
فَيَثْبتَ بيننا وَدُّ الخَلِيلِ
وجاءت أُمُّهُ معه فكانا
كَأُمِّ الخَشْفِ[1] والرَّشَا الكحِيلِ
تُوَصِّينى به وتقول أخْشَى
عليه البرد فى اللَّيْــل الطويلِ
فقلتُ حماقةً مِنِّى ونَوْكاً
فَدَيْتُكِ لَسْتُ مِنْ أهْلِ الشَّمُولِ
فَأيَّةُ غِرَّةٍ سُبحانَ رَبِّى
لو انى كنت من أهل العُقُولِ[2]

ويؤخذ من هذه القصيدة أنه لما وصل الغزال إلى القسطنطينية فى شتاء سنة ٨٣٩ - ٨٤٠ م ، كان الأمير ميشيل شابا قادراً على معاقرة الخمر وإدمانها ، حتى لقد لقب بعد ذلك « بالسكير » . والمعروف أن تاريخ ميلاد الأمير الذى صار فيما بعد ميشيل الثالث كان موضع

(١) الخشف = ولد الظبى .
(٢) انظر مجلة Byzantion مجلد ١٢ سنة ١٩٣٧ طبعة بروكسل ص ٢٤ .

جدل كبير ، إذ لا يعرف عمره بالضبط عندما صار إمبراطوراً غداة موت أبيه سنة ٨٤٢ م ، حيث تولت أمه الإمبراطورة تود الوصاية عليه عدة سنوات.

والمعلومات التي لدينا هنا – رغم طبيعتها القصصية – يمكن بلا ريب أن تكون ذات قيمة . وخلاصة القول فيها أنها تتضمن حجة تؤيد ما ثبت أخيرا من أن ميشيل الثالث ،كان عند ولايته الحكم فى السادسة من عمره [١] ، ولم يكن فى الثالثة أو الرابعة .

وتثير شخصية هذا الشاعر السفير فى النهاية مشكلة تاريخية أخرى عن علاقات دولة بنى أمية فى إسبانيا بالدول الأخرى غير الإسلاميه . إذ المعروف أنه بعد عودة السفارة التى كان عبد الرحمن الأوسط قد أوفدها إلى توفلس ، نزلت بعض عصابات من الملاحين الاسكندنافيين ممن يسميهم المؤرخون العرب بالمجوس (أى عبدة النار) أو الأرْدُمانِيّين (أى النرماند) فى عدة مواضع من المنطقة الساحلية من شبه جزرة إيبيريا فى اشبونة ، ثم نزلوا بعد هذا فى إشبيليه حتى بلغوا فى صعودهم بسفنهم أسفل الوادى الكبير .

---

(١) انظر Ernest Stein فى مقاله بعنوان Post-Consulat المنشور فى : Annuaire de l'Institut de Philologie et d'histoire orientales جـ ٢ سنة ١٩٣٤ مجموعة Mélanges Bidez ص ٨٩٩ رقم ٢ وكذلك : A A. Vasiliev : Byzance et les Arabes طبعة فرنسية جـ ١ ص ١٩١ . ولا يمكن أن يكون ميشيل قد تجاوز سنة ٨٤٠ م العام الرابع من عمره .

هذا الهجوم غير المنتظر سبب للمسلمين خسائر عدة غربى الأندلس، غير أن الحكومة الأموية بقرطبة، لم تتوان فى المقاومة، حتى وصلت بمجهود كبير إلى دفع المغامرين وإجبارهم على العودة إلى البحر؛ على أن عصابات نرمندية أخرى، ما لبثت أن أعادت الكرة على الساحل الأندلسى فى نفس هذا القرن وفى القرن الذى تلاه [١].

ويؤخذ مما ذكره ابن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ١٢٣٥ م، فى كتابه «المطرب فى أشعار أهل المغرب» أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قد دخل فى مفاوضات مع حاكم هؤلاء المجوس، غداة رحيل النرماند، فى سنة ٨٤٤ م، كما أن الغزال ورفيقه فى بيزنطة، لا بد أنهما تلقيا أمرا من جديد بالرحيل هذه المرة إلى شمال أوربا، بعد عودتهما من لدن توفلس، لإحضار رسالة منها إلى الأمير. والظاهر أنهما قاما بهذه الرحلة التى ركبا فيها الأطلنطى، ثم عادا إلى إسبانيا بعد ذلك بعشرين شهرا.

ولكننا ندهش إذ نجد أن المؤرخين القدامى العرب، بما فيهم ابن حيان، والمصادر التى يستند إليها، والتى توسعت كثيرا، برغم

---

(١) فيما يختص بالنرماند فى إسبانيا الإسلامية يمكن ـ بالإضافة إلى البحث القديم الذى كتبه دوزى فى كتابه Récherches ج ٢ ص ٢٥٠ ـ ٣٧١ ط ٣، الرجوع إلى الكتب المذكورة فى مقالى بدائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ (تحت لفظ المجوس) وكذلك:

É. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane

ج ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٧ و ٢١٨ ـ ٢١٩.

ذلك فى مسألة النرمند منذ سنة ٨٤٤م — لم يشيروا إطلاقا إلى هذه المحاولة الغريبة التى قام بها عبد الرحمن الأوسط، ومع كثرة المعلومات المسهبة ، التى أوردها المؤرخون عن الغزال ، فإنهم لم يسجلوا هذه البعثة الرسمية الجديدة ، التى عهد بها إليه الأمير لثقته فيه ، لهذا أميل إلى الاعتقاد بأن هذه السفارة الثانية كانت خيالية بحتة ، وأن رواية ابن دحية ، التى وثق فيها دوزى ، وترجمها كلها فى بحثه عن « النرمند فى إسبانيا »[١] ، لم تكن سوى تأثير متأخر للرواية الواردة عن رحلة الغزال إلى القسطنطينية ؛ ومن المناسب أن نقرر - انتظارا لإمكان العثور على أدلة عن هذه الحقيقة - أن فى رواية ابن دحية تفاصيل تماثل ما ساقه ابن حيان فى صدد سفارة قرطبة للبلاط البيزنطى، ومنها مُحرجات السفير فى مخالفته لقواعد البروتوكول الإمبراطورى ، عند استقبال الحاكم له ، ومنها القصيدة التى نظمها فى عاصفة هبت أثناء ذهابه ، ثم مقابلته للإمبراطورة التى سألته بشغف وأعجبت به، كل هذا نجده هنا وهناك .

ولا شك فى أن هناك تأكيدات أخرى فى روايه ابن دحية ، من ذلك أن الإمبراطورة تلقب باسم ´نود Nud (بالنون) الا يمكن اعتبار هذا تصحيفاً عن كلمة تود (بالتاء) وهو اسم الملكة ثيودورا فى الرواية العربية؟ ويعود الغزال عن طريق «سانتاجو دى كومبوستلا» أو شنت ياقب ، وهى مدينة من الصعب أن نتصور مروره بها - فى

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧٨ .

رحلته إلى القسطنطينية ! بل على العكس من ذلك ، تعد الرواية ضربا من الخيال الذى يصعب قبوله اليوم وهذه الواقعة ، شأنها فى ذلك شأن ما هنالك من تماثل بين الروايتين المتعلقتين بالسفارة ، توحى لنا بأن مساعى إمبراطور بيزنطة لدى قرطبة ثم نزول الملاحين السكنديناقيين على الساحل الأندلسى ، مما انطوت ذكراه على قسط كبير من العناصر القصصية - كل أولئك أدى إلى امتزاج هذه العناصر والعقائد الشعبية فى إسبانيا الإسلامية ، حيث انتهى بها الأمر إلى تشويه الحقيقة التاريخية شيئا فشيئا ، كما يحدث عادة .

ملحق

رد أمير قرطبة توفلس Theòphile [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لِأَوَّلِينا من المودة الصادقة ، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ، وإرسال قرطيوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ، ونتواصل له ، ونبعث رسلاً من عندنا إليك ، ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضتَ عليه ، ودعوتَ إليه ، لتثبت بقدومهم عليك مودّتنا ، وتتم به صداقتنا .

وفهمنا ما ذكرته من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلى عليه ، ومن وشائج قرابتنا منه ، وآسيتَ لما استُلب من سلطانه ، واستُبيح من حُرمه ، واستُحل من دمه ، وما كان من الفاجر أبي جعفر ترّبه الله ،

---

(١) نشرت ترجمة إسبانية لهذه الرسالة في كتاب :

Cl. Sanchez-Albornoz: La Espana musulmana ségun los autores islamitas y cristianos medievales.

طبعة بولس إيرس ، ١٩٤٦ ، ج ١ ص ١٤٥ ـ ١٤٨ .

وجراءته على الله، واغتراره به، وانتهاكه لمحارمه، والله قد أحصى عليه ذلك، فأ سفه منه، فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه.

ثم الذى ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراجل وابن ماردة أخيه بعده، من إلحادهما فى نحلتهما، وإساءتهما لسيرتهما، ورغبتهما فى رعيتهما، وشدة وطأتهما عليهم، واستحلالهما دماءهم وأموالهم، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم، وانقطاع مدة سلطانهم، وتأذن الله برد دولتنا، وسلطان آبائنا، الذين نبأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل، وأوجب لهم الإجماع، وحازه إليهم البرهان، والذى حضضت عليه من الخروج إليهم، وطلب الثأر منهم، ووعدته من نصرتك لنا، بما ينصر الصديق صديقه، ومن يعلم هواه فيه ومودته له، وما عطفتَ عليه من أمر أبى حفص، ومن معه من جالبة بلدنا، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك، وخضوعهم لابن ماردة ودخولهم فى طاعته، وما سألت من أهل الإنكار لذلك والأنفة منه، وحكيت من أمراء إفريقية فى نزعهم عن ابن ماردة، وخلافهم عليه، واستثقالهم لدولته. وكل ما حكيت من ذلك وقصصته فى كتابك، فقد قرأناه وفهمناه.

وأما ما رغبت من مودتنا، وأحببته من مصادقتنا، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه، بما كان عليه أولوك لأولينا، فقد رغبنا منك فى مثل الذى ذكرته من حرصك على مواصلتنا. وأن نتمسك من ذلك، بما كان عليه سلفنا، وما لم يزل من كان قبلنا من

الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ، ويشدون أيديهم به .

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن الله تعالى أحب أن يكرمه ، بما انتُهك من حرمته ، ونُكث من بيعته ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشقى بذلك من ركبه منه ، ويخزيه ويعذبه عليه .

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر فى تعذيبه العباد ، وظلمه وجرأته على الله ، وانتهاكه لمحارمه ، فإن الله قد أخذه بذنبه ، واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى ما لا انقطاع له ، ولا تخلص منه ، جزاء بما اجترح ، وكذلك حكم الله فى أهل معصيته ، وأولى الاجتراء والاقتراء عليه .

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابنماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة مَن قبلنا ، من أهل شامنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف ، أن النقمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرتَ من أمر أبى حفص الأندلسى ، ومَن صار معه من أهل بلدنا ، فى خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم فى طاعته وما سألت من النظر فى أمورهم ، والإنكار لفعلهم ، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سِفْلتهم وسوادهم وفسقتهم وأبّاقهم ، وليســوا فى بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول فى طاعة ابن ماردة ، لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن إخراجهم عمّا تطرّقوه من بلدك ، وإذ ترى مكانهم به من موضعك وإن الله بحوله وقُوته وفضله ومِنّته رَدَّ إلينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت أيدى آبائنا منه نظرنا فى ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك، وعرّفنا الذى يكون من معونتك على ما دعوتَ إليه ، وحضضتَ عليه بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ، ولم يضع لك عندنا ما رعيته من حقنا وقمتَ فيه من حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قَرْطيوس علينا ، وكشفناه على الذى أَوْصَيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ، فاكتب إلينا معهما بالذى أنت عليه من الأمر الذى كتبت به إلينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله »[١] .

(١) انظر مجلة Byzantion مجلد ١٢ سنة ١٩٣٧ طبعة بروكسل ص ١٧ــ٢٠

الفصل الرابع

ألفونس السادس

والاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥ م

ظهر هذا البحث فى مجلة Hésperis مجلد ١٢ ، سنة ١٩٣١ ، ص ٢٣ — ٤٩ .

كان استيلاء ألفونس السادس ، ملك ليون وقشتالة ، على مدينة طليطلة ، وهو ما يحدد معظم المؤرخين المسيحيين والمسلمين تاريخه بشهر مايو سنة ١٠٨٥ م ، من أهم أحداث التاريخ الإسباني فى العصور الوسطى ، إذ كان هذا تتويجا للجهود المضنية ، التى بذلت فى حركة الاسترداد المسيحى ، فى القرن الحادى عشر ، فقد كان له نفس الصدى الذى حدث عند سقوط هذه المدينة يوم كانت عاصمة القوط الغربيين القديمة فى أيدى المسلمين ، قبل ذلك بأربعمائة سنة ، بحيث سرى هذا الاستيلاء فى جميع أنحاء الأندلس والمغرب مسرى الألم والحسرة ، مما كان حافزا أساسيا دفع أمير المرابطين يوسف بن تاشفين إلى التدخل العسكرى فى شبه الجزيرة الأيبيرية . وقد ردّت هذه الحملة المظفرة التى قام بها على رأس جيوشه ، بمعاونة ملوك الطوائف الأندلسية كرامة الجيوش الإسلامية . غير أن أمير المسلمين لم يستطع أن يفيد من الهزيمة التى أنزلها بالقوات المسيحية فى موقعة الزلاّقة فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦م ، إذ ما لبثت الأندلس أن شعرت بوطأة بربر إفريقية عليها .

وتاريخ كل هذه الحقبة ، وهو لامع أحيانا ومظلم أحيانا أخرى ، ولكنه مضطرب جدا ومُعقد للغاية ، معروف لنا منذ وقت طويل . وعلى الرغم من الخلافات الواضحة أحيانا بين الروايات المكتوبة

عن هذه الحقبة أو عن القرون التالية لها ، فإن فى تعاقب الحوادث ما يهدينا ، وإنما اقتصر الغموض على الظروف التى سبقت استيلاء ألفونس السادس على طليطلة من حيث تفاصيلها .

وقليل هم المؤرخون الذين عُنُوا ببيان هذه الظروف ، سواء منهم من كتبوا بالعربية أو باللاتينية ، ولم يرد فيما كتبوه ذكر لما ساقه ابن حيان ونقله بعد ذلك ابن بسام فى كتابه « الذخيرة » ولكن بقى لنا موجز من ذلك فى كتاب « نفح الطيب » للمقرى [١] .

وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يعثر فى سنة ١٩٣٠ على فصول نقلها ابن بسام عن الحوادث التى أدت إلى استيلاء ألفونس السادس على طليطلة [٢] . وابن بسام ذو أسلوب أدبى واضح ، وعبارات منتقاة تتخللها ألفاظ صعبة . وتعتبر الرواية الطويلة التى وردت فى كتابه « الذخيرة » وثيقة هامة طريفة . وسنحاول هنا أن نذكر طرفا منها ، بعد أن قابلناها بالنصوص العربية واللاتينية .

حسبنا أن نذكر بإيجاز أن نهاية القرن العاشر وبدء القرن الحادى عشر كانت إيذانا باضمحلال ونهاية الخلافة الأموية فى قرطبة .

---

(١) المقرى ــ « نفح الطيب » طبعة ليدن ج ٢ ص ٧٤٨ وكتاب « الذخيرة » لابن بسام المجلد الرابع ص ١١٦ ــ ١٣٢ .

(٢) « الذخيرة » لابن بسام ج ٤ ص ١١٦ ــ ١٣٠ وكتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب طبعة الرباط سنة ١٩٣٤ ص ٢٠٧ ــ ٢١٠ .

فبعد العهد الزاهر الذى كان يشمل الأندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر ، لم تلبث السلطة أن انتقلت فى عهد هشام الثانى — الذى لم يكن له من الخلافة إلا اسمها — إلى العامريين الذين أخضعوا إسبانيا الإسلامية عدة سنوات لنظام دكتاتورى خالص . وكان من أثر ذلك تجزئة إسبانيا الإسلامية ، وقيام ممالك صغيرة مستقلة ، عرفت باسم ممالك « الطوائف » ، أسس بعضها أمراء البربر ، والبعض الآخر أمراء الصقالبة . وكان أهم هذه الممالك فى الشمال دولة سرقسطة وأصحابها بنو هود ، ودولة بلنسية وأصحابها العامريون ، ثم دولة طليطلة وأصحابها بنو ذى النون .

وكان أهم ملوك هذه الدولة الأخيرة وأطولهم حكما أيضا المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون ؛ خلف أباه إسماعيل الظافر سنة ٤٣٥هـ (١٠٨٣ م) . وكان هذا أول الملوك الثلاثة فى هذه الأسرة ، استقر أجداده فى إسبانيا منذ القرن التاسع على الأقل ، وهم من أصل بربرى ، ونسبتهم فى قبيلة هَوَّارة المغربية ، قد عَرَّبوا اسمهم من بنى زِنون أو دُنون إلى بنى ذى النون [1] . وكانوا يعدون فى مطلع القرن الحادى عشر سادة أولى شأن فعلا فى نواحى الشمال بمدن شَنْتَبَرِيَّة ووادِى ، وَوَقْش . وربما كانوا أحيانا غُصَّة لأمراء قرطبة ، لنزوعهم

---

(١) انظر : « البيان » لابن عذارى طبعة باريس سنة ١٩٣٠ ج ٣ ص ٢٧٩ .

إلى شق عصا الطاعة عند أول بادرة . وقد تولى أبوهم فى طليطلة القيادة العسكرية ، واتخذ مدينة شنتبرية مقرا له ، وقد سعى إليه أهل طليطلة فى أن يحل فى حكم مدينتهم محل الأمير « يعيش » ، وكانوا ساخطين عليه ، فأرسل إليهم ابنه إسماعيل الذى تسمى بالظافر ، ولكن حكمه لم يدم إلا قليلا (١) .

ولم يلبث ابنه يحيى المأمون ، وقد خلفه ، أن واجه صعابا جمة أثارها جاره فى الشرق — سليمان المستعين صاحب سرقسطة من بنى هود . وقد نازعه على وادى الحجارة وأخذها منه غصبا . وكانت دولة طليطلة مترامية الأطراف ، يحدها فى الجنوب الشرقى نواحى دولة الصقالبة فى بلنسية ، ودانية ، والْمَرِيَّة ، وتتاخمها دولة بَطَلْيَوْس فى الغرب وفى شرقيها دولة سرقسطة ، ثم إمارة بنى رَزِين ، وأَلْبُونْت .

وكانت المدن الكبرى — عدا طليطلة — هى مدن وادى ، وقُونكة ، ووَقْش ، وقلعة رَبَاح . وإزاء مافعله المستعين ، جرد المأمون حملة عليه ، ولكنه باء بالهزيمة ، وآل أمره إلى أن صار حبيسا فى طَلَبيرة وحوصر فيها . عندئذ سعى فى محالفة الأمير المسيحى فردنند الأول صاحب ليون وقشتالة ، ونال ما أراد غير أن هذا الاتفاق لم يعد عليه بما يرجوه مما كان قدوعده به فردنند ، فلم يخلصه من خطر ابن هود منافسه إلا موته بعد ذلك بقليل سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٦ م) .

---

(١) البيان المغرب ص ٢٧٦ — ٢٧٧ . وانظر أيضاً A. Prieto Vives فى كتابه Los reyes de Taifas طبعة مدريد سنة ١٩٢٦ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

غير أن الحلف الذى عقده المأمون مع صاحب ليون وقشتالة ، دل على اتجاه جديد فى تفكير الأمراء المسلمين ، فالواقع أنه منذ هذه الحقبة ، وقد استنفد ملوك الطوائف قواهم فى منازعات بينهم وحروب دامية ، ظهر للملأ تدخل الحكام المسيحيين فى الحياة السياسية للدول الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية . فحتى ذلك الحين ، كان هؤلاء الأمراء المسيحيون هم الذين يسعون فى طلب الهدنة أو الأحلاف من القائدين المظفرين صاحبى الدهاء ، ونعنى بهما الدكتاتوريين العامريين الاولين . أما الآن ، فأمراء المسلمين هم الذين يلتمسون هذه الهدنة وتلك الأحلاف ، ممن كانوا رعايا الاسلام الاسبانى من قبل ، أملاً فى التغلب على الأخطار الداخلية ، وإحباط الهجمات أو الغارات من قبل الدول الصغيرة المجاورة . على أن هذه الاتفاقات بين ملوك اختلفت أديانهم ، مما أملته مقتضيات الزمن وحدها ، تعتبر لا غرابة فيها ، إذا نحن أمعنا قليلا فى دراسة إسبانيا . ودرسنا العهد من الناحية الاجتماعية . فالإسلام لم يحل دون إقامة علاقات ازدادت توثقاً مع الزمن بين المسيحيين والمسلمين ، سـواء فى الداخل أو الخارج ، وكانت طليطلة عاصمة القوط القديمة ، قد احتفظت بين أسوارها بالجم الغفير من أبنائها المسيحيين ، الذين لم يقبلوا الإذعان والخضوع للحكم الأموى ، إلا بعد وقت طويل ، رغم الحملات التى جردت عليهم مرارا ، وكان لا بد من همة عبد الرحمن

الناصر لإخضاعهم[1] .

وقد كانت نسبة كبيرة من المستعربين المسيحيين ، دون اليهود من رعايا بنى ذى النون . وهـــذه العناصر غير الإسلامية تعرّبت ، أو بعبارة أدق - لو جاز لنا استخدام هذا التعبير الجديد (تأندلَست)، فقد طبعتهم الحضارة الإسبانية العربية بطابع قوى جدا، وهم مع بقائهم متمسكين بدينهم الأول أوفياء له ، قد انتهى بهم الأمر، فيما يظهر ، إلى نظام لم يكن - مع أنه جعل منهم رعايا دولة اسلامية - بأقل من غيره تحررا ، وهو فى جملته جد مقبول . ولم تـكن الحروب المتصلة بين ملوك الطوائف من عرب وبربر وصقالبة ، فى الثلاثة الأرباع الأولى من القرن الحادى عشر - هى التى كانت تستأثر بالمسرح السياسى فى إسبانيا ، ففى هذه الحقبة ، نشهد نشاطا سياسيا ، لا يقل عن ذلك أهمية ، فى الجانب الآخر من الحدود الإسلامية ، كما نشهد تنظيما جديدا للإمارات المسيحية التى أخذت تظهر شيئا فشيئا منذ سقوط دولة بنى عامر ، فالوحدة الموقوته التى حققها سانشو الكبير ، قد انقطعت على إثر موته ، بتقسيم ممتلكاته بين أبنائه الأربعة وهم : جارسيا Garcia وفرناندو Fernando ، وراميرو Ramiro وجونثالو Gonzalo. ثم ضم الثانى وهو فردنند الأول إلى قشتالة التى

---

(١) انظر خاصة :
É· Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane.
الجزء الأول ، القاهرة ، سنة ١٩٤٤ ، ص ٢٧٢ وحاشية ٢ .

كانت من نصيبه فى سنة ١٠٣٧ ، عند وفاة برمودو الثالث Bermudo III مملكة ليون ، كما شرع منذ سنة ١٠٥٠ ، عقب حملات ناجحة ضد أمراء المسلمين فى سرقسطة ، وطليطلة ، وبَطَلْيوْس ، فى الاستيلاء على عدة حصون ، كانت فى أيديهم حتى ذلك الحين ، وأرغمهم على دفع الجزية له .

وفى ذلك الوقت أيضاً سقطت قَلَمْرِيّة ، وهُزم جيش ملك بلنسية فى بَطَرْنَة ، وسقطت قلعة بربشتر بفضل مساهمة النرمند أتباع جيوم دى مونترى . فلما مات فردنند الأول فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٠٦٥ م ، ترك ملكه يتقاسمه أبناؤه وبناته . وكان لا بد أن يؤدى هذا التقسيم الثانى إلى حرب أهلية جديدة ، فقد أراد سانشو ، أول أبناء فردنند وكان من نصيبه مملكة ليون ، أن يوحد إسبانيا المسيحية تحت لوائه ، وفى سبيل هذه الغاية حرص على أن يستولى على كل الأراضى التى كانت تحت حكم أبيه ، فبدأ أولا بمهاجمة أخيه ألفونس السادس ، وهزمــــه فى موقعتين الأولى موقعة اللانتادا فى ١٩ يولية سنة ١٠٦٨ ، والثانية فى موقعة جولبيخيرا التى حدثت فى أوائل عام ١٠٧٢ م ، وفيها أسر ألفونس ، وسجن فى برغش . غير أنه ما لبث أن نفى إلى طليطلة بفضل مساعى أخته الأميرة أراكا ، ونزل فى بلاط المأمون الذى كان وقتئذ يدفع الجزية إلى مملكة ليون .

وعلى هــذا النحو تسوق كتب التاريخ المسيحية — فيما يظهر — استقرار ألفونس السادس فى المدينة ، التى كتب له أن يحتلها بعد ذلك

بثلاثة عشر عاماً ، بل يبدو أن أخا سانشو آثر أن ينزل فى كنف المأمون لاجئاً عنده .

ولا مانع هنا من إيراد ما ذكره الأستاذ منندث بيدال فى كتابه القيم الخاص بإسبانيا فى عصر السيد (١٠٤٠ — ١٠٩٩)[١] ، والحياة المضطربة التى عاشها هذا البطل القشتالى الشهير . فقد ذكر هذا الباحث الإسبانى ، أن المأمون استقبل الملك المهزوم بالتكريم ، وأعطاه بيتاً فى القصر الملكى الذى كان يشرف على حصون المدينة فى مواجهة (القنطرة) . فعاش الملك المنفى بعيداً عن الحى المأهول بالسكان المسلمين ، واستطاع بذلك أن ينعم فى بساتين الملك الشاسعة ، التى كانت تمتد إلى الناحية الأخرى من القنطرة ، فى داخل المنحنى الكبير الذى يرسمه نهر تاجه فى هذه الناحية[٢] . وقد ورد فى المدونة المعروفة باسم Crónica de Silos أن نفى ألفونس قد هيأته العناية الإلهية فلم تعد طبوغرافية طليطلة خافية عليه ، ثم استطاع أن يفكر ويقدر فى طريقة الاستيلاء على المدينة ، وورد فى بعض الأخبار أن ألفونس ترامى إلى سمعه وهو مضطجع تحت شجرة فى بساتين المأمون ، حديث بين بعض رجال البلاط المسلمين عن الطريقة التى يمكن بها التغلب على المدينة بالمجاعة ، ومهما يكن من الأمر ، فإن مقام الأمير المنفى فى طليطلة لم يكن قاسيا أو مضايقا له ، فنراه فى تلك المدة ، إما مقاتلا على ظهر

---

(١) Espana del Cid ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٦ .

جواده أعداء المأمون من المسلمين مع رجاله ، وإما متوغلا فى غابات الصنوبر الشاسعة فى تلك المنطقة لصيد الدب والخنزير البرى[١]

هذا وقد ظل ألفونس السادس تسعة أشهر فى قفصه الذهبى بطليطلة . وفى ٧ من اكتوبر سنة ١٠٧٢ م قُتل أخوه سانشو الثانى ، وهو يحاصر مدينة سَمورة ، وما لبث الرسل أن أتوا بخبر نهايته المحزنة إلى عاصمة المأمون . وقد رضى المأمون فى الحال بأن يترك ضيفه ألفونس يخرج كما يشاء ، وصار منذ ذلك الحين حراً طليقا ، بعد أن تبادلا وعوداً ودية كبيرة ، ومواثيق للمحالفة المتبادلة بينهما ، ثم صحب المأمون ضيفه إلى آخر حدود دولته[٢] . وما لبث ألفونس السادس ، الذى صار منذ ذلك الوقت ملكا على قشتالة وليون ، أن أخذ ينهج — بعد أن أضاف إلى ممتلكاته جليقية وكانت فى يد أخيه جارسيا — سياسة توسع إقليمى رفعت من شأنه . كما أخذ يشهر السلاح فى وجه المسلمين ، باعتباره بطلا لحركة الاسترداد المسيحى .

* * *

انتهى حكم المأمون فى السنة الثالثة من رحيل ألفونس السادس عنه فى طليطلة ، فقد مات المأمون فى قرطبة ، فى ظروف محزنة فى ٢٨ من يونيو سنة ١٠٧٥ م (١١ ذو القعدة سنة ٤٦٧ هـ) ، وكان حريصا

---

(١) La Espana del Cid ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ .
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢١١ .

منذ زمن طويل على الاستيلاء على العاصمة القديمة للخلافة الأموية ، إذ كانت فى يد أمير خامل من بنى جهور لا يقوى على الدفاع عنها . غير أنه لم يقدر على تنفيذ مشروعه ، بسبب ظروف عدة ، فقد سبقه إلى ذلك المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية فى سنة ١٠٦٨م ، إذ استولى على قرطبة ، وصار ملكا عليها. ولم يكف المأمون عن السعى للتغلب على أمير إشبيلية ، حتى استطاع أخيرا فى نهاية عام ١٠٧٤م ؛ بفضل معاونة مغامر قرطبي يدعى ابن عكاشة تحقيق أحـــلامه ، غير أنه ما لبث أن مات مسموما بعد ذلك بستة أشهر فى المدينة التى طالما اشتهاها ــ سواء أكان ذلك بتدبير ابن عكاشة هذا، أم بتدبير المعتمد نفسه . ولم تبلغ طليطلة من الازدهار فى نظر العـالم الإسلامى ، قدر ما بلغته إبّان حكم المأمون ، إذ لم تمنعه حروبه المتصلة مع جيرانه من ملوك الطوائف من أن يكفل لعاصمته ازدهارا لم يتهيأ لهـا من قبل ، إذ جمع البلاط الطليطلي نخبة الأرستقراطية الأندلسية، وصار إعذار[١] ذى النون مضرب الأمثال فى إسبانيا الإسلامية عصـورا طويلة[٢] . وكان القصر الملـكى بطليطلة تحفة من العجائب .

وذكر المقرى، نقلا عن ابن بدرون، فى شرح قصيدة ابن عبدون، أن المأمون يحي بن ذى النون صاحب طليطلة ، بنى بها قصراً تأنق فى

(١) الإعذار : الختان .

(٢) انظر فى وصف هذا الإعذار كتاب « الذخيرة » القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٩ .

بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون . وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها ، محيطاً بها متصلا بعضه ببعض . فكانت القبة فى غلالة من الماء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل[1] .

وقد أورد ابن بسام أيضا فى الجزء الرابع من الذخيرة تفاصيل عديدة عن الترف الذى كان فى قصر المأمون ، وساق وصفا طويلا لابن حيان — نقلا عن الأديب ابن جابر الذى شهد الإعذار بنفسه[2] فقال : « احتفل المأمون ابن ذى النون، فى مدعاة إعذار حفيده يحيى ، فحشد أمراء البلاد، وجملة الوزراء والقواد، فأقبلوا إليها كالقطا القارب أرسالا ، وقد رسم لخدمته فى توسيع مشارب هذا الإعذار ، وإرغاد موائده ، وتكميل وظائفه ، وإذكاء مطابخه ، رسوما انتهوا فيها إلى حده ، وشقق عليها جيوب أكياسه ، وأمر بالاستكثار من الطهاة ، والإتآق[3] للقدور، والإتراع للجفان، والصلة لأيام الطعام ، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام ، والإغراب فى صنعة ألوانها مع شياب أباريقها بالطيوب الزكية ، والقران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد، وحلو وحامض، والمماثلة بين رائق أشخاصها، وبين ما تودع فيها من نفائس صحافها، والاستكثار لها من أنواع الحلواء المجبرة للمعد

---

(١) المقرى — نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٧٣ .

(٢) الأديب ابن جابر — انظر « الذخيرة » ج ٤ ص ٩٩ — ١٠٦ .

(٣) الامتلاء .

من داء الإتخام، وتجاوز عَسَلِيِّها إلى السكر. فجاءوا فى ذلك كله بأمر كبار، أبيدت لمطابخه أمم من الأنعام، جمع فيه بين المشاء والطيار والعوام، وانتسفت لمخابزه أهراء من الطعام، وأنفقت على مجامره ومعاطره جمل من الأموال الجسام، فاغتدى ختاما لمداعى أهل الاسلام العظام»[1].

ثم وصف مجلسا «قد فرش بالديباج التسترى المرقوم بالذهب، وسدلت فوق حناياه ستور من جنسه، تكاد تلتمع الأبصار، بصناعة ألوانها، وإشراق عقيانها... ثم عدل بالناس إلى مكان الأطعمة... وقد مدت فيه صنوف الطعام، ووصفاء الموائد الحافون من حولهم، يطردون الأذبة عن مجلسهم، بطوال المذاب البديعة الصنعة، المقمعة الأطراف بفاخر الحلية»،...، ثم قال: «وأغرب ما قيد لحظى من بهى زخرفه، الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه إلى ما فوقه، إزاره الرائع الدائر بأسه، حيث دار، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة، ونصاعة التلوين، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار... وذهب المأمون إلى تتميم تكريم زواره من رجال الأمراء، الذين استحضرهم يومئذ لشهود فرحته بمشاهدة مجلس خلوته، وتنعيم أسماعهم بلذات أغانيه، وقد علم أن فيهم من يرخص فى النبيذ، ولا يسوغ له نعيم دونه، فاحتمل حرج ذلك مبالغة فى تأنيسهم، فاحتفل لهم فى مجلس قد نضد،

(١) ابن بسام «الذخيرة» المجلد الرابع القسم الأول ص ٩٩.

وأحضر فيه جميع آلات الأنس. فلما استوى بالقوم مجلسهم، واشرأبوا إلى الأخذ فى شأنهم ، قرب إليهم أطعمة طَنُّوبرية جوامد وباردة ، وصنوفا من المصوص والأشربة والطباهج ، موائد مترعة اتخذوها بسطا لنبيذهم ، ثم انثنوا للشراب ونفوسهم به صبة، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ، ونظمت نوبة المغنين زمرا ، فهاجوا الإطراب واستخفوا الألباب ، ونقلوا الطباع ، فجاءوا بأمر عجاب »⁽¹⁾ .

وبالاختصار مثَّل قصر المأمون الملكى — الذى لم يبق منه لسوء الحظ أى أثر — فى نظر الأندلسيين وجيرانهم المسيحيين كذلك — غاية الرشاقة والترف . ولم يكن يضارع طليطلة من المدن الإسبانية ، سوى سرقسطة وبلنسية وإشبيلية ، أما قرطبة فقد تخلفت تماما فى هذا الميدان ، بل إن طليطلة كانت تبز هذه المدن جميعا بجمالها ، وعظمتها التى أحاطها بها أميرها ، وبحياة الأبهة والترف التى عاشها فى مقره على ضفاف نهر تاجه .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن طليطلة على الرغم من اختلاف سكانها — فقد كان بها مسلمون ومسيحيون ويهود — عاشوا متآخين فى كل شىء . وكانت طليطلة ، فيما يظهر، من أنشط مراكز الثقافة العربية فى شبه الجزيرة . ولم ينقطع وجود الشعراء فى بلاط المأمون ، كما كان الأمير يشجع الدراسات الإسلامية فى عاصمته ، شأنه فى ذلك شأن سائر ملوك الطوائف . وقام كثيرون من مشاهير فقهاء مملكته بالتعليم

---

(١) الذخيرة — لابن بسام — مجلد ٤ القسم الأول ص ١٠٤ — ١٠٥ .

فى عهده ، فى جامع طليطلة الكبير . وكانوا من الكثرة إلى حد أن أحدهم ، وهو أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر المتوفى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) ، « له كتاب فى تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها »[١]. وحفظ لنا ابن بشكوال أسماء بعضهم ، وكان من أشهرهم فى منتصف القرن الحادى عشر، ابن الحذاء القرطبي (توفى سنة ٤٦٧ هـ)[٢]، وأبو الوليد أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد[٣]، وابو زيد عبدالرحمن بن الحشاد[٤]، وأبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن صاعد الشهير[٥]، صاحب كتاب طبقات الأمم ، وهو موجز فى تاريخ العلوم، ذاع صيته دهراً طويلا فى الشرق .

أما دولة طليطلة ، فقد سارت من ناحيتها على النظم السائدة فى إسبانيا الإسلامية، منذ عهد خلافة الأمويين فى قرطبة. وكان المأمون قد قسم الإدارة فيها بين اثنين من أنشط المقربين إليه وأكثرهم ذكاء،

---

(١) انظر ابن بشكوال : كتاب الصلة ت ١٤٨ ص ٧٢ ـ ٧٣ والضبي : بغية الملتمس ت ٤٣٣ ص ١٧٧ .

(٢) فيما يختص بهذا القاضى: انظر ابن بشكوال ـ كتاب الصلة ت ١٣١ ص ١٦٥

(٣) توفى وهوفى وظيفته سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) : نفس المصدر ت ١١٥ ص ٥٨

(٤) قاضى طليطلة من سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) إلى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ ـ ١٠٦٨ م) ، ثم بعد ذلك فى طرطوشة ، ثم فى دانية ، حيث مات فى سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ ـ ١٠٨١ م) ، ابن بشكوال ت ٧٢٥ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٥) انظر عن هذه الشخصية مقالى فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ص ٨٧٤ ـ ٨٧٥ .

وذلك بأن جعل شؤون الجيش وتعبئته وتجهيزه وإعداد الحملات المستمرة التى قام بها من اختصاص الوزير أبى عامر بن الفَرَج ، وهو ابن أحد سادة قُونكه، وكان شديد الإخلاص لبنى ذى النون ، كما كان يلقب بذى الوزارتين[١] ، ومعه الفقيه أبو بكر يحي بن سعيد بن الحديدى[٢] . الذى كان له الإشراف على الإدارة المدنية ، كما كان المستشار الخاص للملك. وكان أبوه قد اشتهر كعالم ورحالة فى الشرق وإفريقية[٣] . وسرعان ما تمكن أبو بكر من أن ينال نفوذا ، بفضل مواهبه لدى حكام طليطلة ، فقبْل تولى المأمون خدم أباه إسماعيل الظافر ، ولهذا طال عهده بتولى المناصب ، على الرغم من العداوات الكثيرة التى سببتها له وظائفه العالية ، وعهد إليه المأمون قبل موته فى النصح لخليفته الصغير يحي القادر . ومن هذا كانت ، فيما ذكر المؤرخون العرب محنة ابن الحديدى فى طليطلة، إذ أصبحت من غير حاكم نشيط ماهر يتولى زمامها ، فكان الحديدى سببا فى إثارة الاضطرابات السياسية فى مملكة طليطلة ، وكان يعوزها حاكم قوى

---

(١) انظر عن هذه الشخصية ابن بسام : كتاب « الذخيرة » ج ٣ ، (ودوزى فى كتابه Abbadites ج ٣ ص ٥١) ، وابن الأبار : كتاب الحلة ، طبعة دوزى ص ١٩٣ ــ ١٩٤ والفتح ابن خاقان : كتاب المطمح ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٢٣ هـ ص ١٧ ــ ١٨ ، ودوزى فى كتابه Recherches ج ٢ ص ٤٨ من المقدمة .

(٢) انظر ابن بشكوال : كتاب الصلة ت ١٣٦٠ ص ٦٠٨ .

(٣) نفس المصدر ت ٤٩٣ ص ٢١٨ .

مستنير منذ ذلك الوقت، مما أدى إلى سقوطها فى يد ألفونسو السادس.

كان يحيى القادر حفيداً للمأمون ، ولابد أن أباه إسماعيل مات شاباً ، إذ تعوزنا تفاصيل عن تاريخه . ولا يجوز الاعتماد على ما جاء فى المدونة التاريخية الإسبانية Cronica Général ، من أن لبنا آخر للمأمون يدعى هشاما[1] ، قد حكم فترة وجيزة جداً بين المأمون وبين القادر .

على أنه من المؤكد أن القادر فيما يذهب إليه ابن بسام ، ولى أمر طليطلة فعلا بعد وفاة جده بشهرين على الأكثر . وقد تغير الموقف السياسى دفعة واحدة ، فألفونس السادس مع ارتباطه إلى ذلك الحين ارتباطا أدبيا بوعود الصداقة التى كان قد تبادلها مع المأمون ، سرعان مالاحظ أن الحفيد ليس من جنس الجد ، وأن الظروف قد واتته لتنفيذ رغباته يوما ما .

وأما ملوك الطوائف ، وبخاصة المعتمد بن عباد ، ملك إشبيلية ، وكان حريصا على الانتقام لطرد جيوشه من قرطبة ، وفقدان أحد أبنائه فى تلك المدينة ، فقد كانوا على استعداد للانقضاض على أملاك ملك طليطلة الجديد ، ولعلهم شعروا أن عجزه لن تجدى معه نصائح الوزير ابن الحديدى ، ولا ندرى إن كان القادر قد بادر إلى التخلص من مستشاره بسبب دسائس منافسيه على الرغم من أن جده المأمون قد أوصاه بأن يتبع هذه النصائح ، وألا يخرج عنها قيد أنملة .

(١) انظر : A. Prieto Vives : Los reyes de Taifas ص ٥٤ حاشية ٢ وكذلك : R. Ménendez Pidal : Esp. del Cid ج ١ ص ٢٩٠

على أنه جعل همه أولا فى مضايقته ، ثم إبعاده بعد ذلك ، والتخلص منه نهائياً . ذكر ابن بسام أنه « لما هلك المأمون بقرطبة ونعى بطليطلة ، احتوشت إلى حفيده جملة ممن كان يتعلق بسببه ، وطفقوا يغرونه بأبى بكر بن الحديدى جماع أمره ، ومظنة تأييده ونصره ، لما كانوا يدرون من التقلب عليه ، وخوفوه غوائل ختله ، وزعموا أن سلطانه لا يتم إلا بعد الفراغ من قتله » ، وذلك بعد أن حاولوا عبثاً التفريق بينه وبين المأمون فى حياته . أما وقد مات المأمون ، فهل اكتفوا بالقضاء على ابن الحديدى هذه المرة ؟ الواقع أن طرده من القصر لم يكن كل ما يبغون وإنما كانوا يطالبون برأسه .

« وقد كان أثيره أبو سعيد بن الفرج ينهاه عن إخفار الذمام ، ويخوفه سوء عواقب الأيام ، فركب هواه ، وخالف ناصحه وعصاه ، وجرد قطعة من جنده ، وأمرها باستقبال تابوت جده ، فى طريقهم من قرطبة ، وأنهى إليهم سراً قتل ابن الحديدى المستقل بحمله الناظم لأشتات فَلِّه . وقال لهم : إذا لقيتموه ، فكونوا حوله ، وعظموا قوله ، فإذا أمكنتم غرته ، وبدت لكم ثغرته ، فاقتلوه كيف أمكن ، وعلى ما ظهر وبطن . ونمى الخبر إلى ابن الحديدى ، فكفر بطاغوتهم ، ونفض يديه من تابوتهم ، ونكب إلى بعض ضياعه . فى لمة من شيعته وأتباعه . فاضطرمت الصدور ، وبطل ذلك التدبير . ثم وافى البلد ليلة ، وقد استوحش من أنسه ، وأوجس خيفة فى نفسه ، وأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، ونادماً يتتبع ويتعقب ، يعض يديه ،

ويحسب كل صيحة عليه ، وطفق أصحاب ابن ذى النون بزعمه يقولون : قد حذرك ، وتيقن خبرك ، ولا يصلح لك أبداً ، ولا يرد عن مكروهك يداً . ومشت بينهما الرسل ، وأعملت فى اجتماعهما الحيل فركب إليه ذات يوم ، وقد أخذ حذره ، وحشد عرفه ونكره ، واستبطن من كان تبعه يومئذ من الدهماء ، وتعلق بركابه لمشهد أمره من الغوغاء . فملأوا أفنية القصر ، أسرع من الماء إلى الصب ، وأهول من النار فى الحطب .

... فحين ارتفعت الأصوات ، وغصت بهم العرصات ، انصاع ابن ذى النون ، فأمر ابن الحديدى بالخروج ، فخرج والدولة متعلقة بأذياله ، وطبقات أعيانها عن يمينه وشماله ... وكان عندما أذكى عيونه، وحشر شياطينه ، قد أوقع تهمته على شيخين من شيوخ الخدمة ، يدعيان مؤملا وابن صَرُوم ، فأغرى العامة باستئصالهما ، وتحبب إليهم بنهبة أموالهما ، فكانا عنوان الفتنة ، وباكورة المحنة ،»[1] . وتلا ذلك قيام فتنة أسرع القادر على أثرها إلى إطلاق عدد من أشراف طليطلة ، ممن كان المأمون قد قبض عليهم ، وحبسهم فى أحد الحصون بتهمة مقاومة ابن الحديدى .

يقول ابن بسام إن القادر « أدخلهم البلد سرا من بعض مداخله الخفية . وقد سترهم باللثُم ، وأوهم أنهم بعض الحرم ، حتى وصلوا إليه ،

(١) ابن بسام ـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة القسم ، الرابع من المجلد الأول طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ ص ١١٨ ـ ١١٩ .

ومثلوا بين يديه ، وذلك اليوم يوم الجمعة لعشر خلت لمحرم سنة ثمان وستين [وأربعمائة . ه] . وكان الذى مالأ ابن ذى النون على ذلك، وسهل له - زعموا - تلك المناهج الخبيثة والمسالك ، الفقيه ابن السقّاط[1] متولى القضاء، كان يومئذ بقونكه . وكان أبو بكر بن الحديدى يألفه، ويسكن إليه قديما ، فاستدرجه بالأمان ، واستفزه إلى مصرعه يومئذ بمزورات الأيمان ، حتى جرعه رداه ، وأسلمه إلى عداه . ودخل ابن الحديدى يومئذ القصر ، والمقدار يزعجه ، والخائن الغدار ابن السقاط يستدرجه . فلما أفضى إلى مجلس ابن ذى النون رأى وجوها قد أمنها مما تخوفها ، وأنكرها من طول ما عرفها ، وأيقن بالشر لاخلاص ولات حين مناص . . . فشغبوا عليه ، وشغلوه ، وأحاطوا به ، حتى قتلوه ،[2] « ولما أحست العامة بقتله ، وهمت بسلاحها من أجله ، ثار أولئك المخرَجون فى وجوههم، أطلال فى أسمال . فأخذ كل واحد منهم بطرف من الطريق ، وذهب ممن كان هنالك من العامة بفريق ، بين صديق لهم يسر وعدو يفر ،[3] . وقد صارت الفتنة بعد مصرع ابن الحديدى على أشدها ، وانقسمت المدينة إلى فريقين ، كل فريق يتربص بالآخر ، ويريد أن يشعلها حربا أهلية ، وترك القادر الحبل على الغارب ، وزادت الفتن عندما بلغ العاصمة خبر خطير : « إذ انتبذ

---

(١) محمد بن خلف بن مسعود . انظر ابن بشكوال : الصلة ت ١١١١ .

(٢) الذخيرة ص ١٢٠ .

(٣) نفس المصدر .

أبو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية — وهى من أقاليم بنى ذى النون منذ سنة ١٠٦٥ — من جماعته : وخلع يده من طاعته ، إلا هدنة على دَخَن يتطارد له بِصَيْدها ، فلما أحَسَّ القادر بالخطر يتهدده فى مدينته وخشى ضياع جزء من دولته ، رأى السلامة فى الانتصار بألفونس السادس ، الذى انتظر هذه الساعة ، وفَغَر الطاغية أذفونُش ابن فَرذَلَنْد فمه على ثغوره المثغورة ، فجعل لوقته يطويها طى السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيّب فى الشباب ، وابن ذى النون يُلقمه أفلاذ كبده ، ويرجمه بسَبَده ولَبَده ، وأدفونش - لعنه الله - لا يقنع منه بصيد العنقاء ، ولا ببيض الأنوق [١] ، بل يكلفه إحضار الأبلق [٢] العقوق ، ويسومه درك الشمس ، ويطالبه برد أمس . فلما أكل الإنفاق شبج [٣] ماله ، وأخذ الخناق بكظم احتياله ، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما إلى معاقله المنيعة ، وذرى أملاكه الرفيعة ، عدد الأنام ، ودُروب الإسلام ، فما راهنه منها عليه غلق ، وما رام أخذه من يديه ، لم يدركه حتى مزق » .

وراح القادر ليتمكن من جمع هذه الجزية ، يثقل على كاهل رعاياه ، وفقد العطف الذى كان يمكن أن يبقى له . مضت على ذلك أربعة

---

(١) الأنوق — الرخمة وبيضها لا يكاد أحد يظفر به .

(٢) الأبلق الذكر والعقوق الحامل ، أى طلب منه مالا يمكن .

(٣) الشبج — معظم الشىء .

أعوام، وساء حال الملك، ففوض أمور السلطة إلى من كان المأمون قد سجنهم، فراحوا يبثون الرعب فى طليطلة وتوسلوا بشر الأساليب العنيفة لابتزاز الأموال من الأهلين، ودفع الجزية منها إلى الملك المسيحى. على أن الحقيقة مالبثت أن بدت واضحة أمام القادر، فلم يبق ملكا إلا بالاسم فقط. حتى صار مهددا بثورة وشيكة الوقوع، لن تكلفه عرشه فحسب، بل ربما كلفته حياته أيضا، وهذا لم يعد أمامه غير حل واحد هو الهرب، وذلك ما حدث، فذات يوم خرج من عاصمته دون أن يقول كلمة لأحد. قال ابن بسام: «حدثت أن زوجه بنت المظفر بن عامر ـ طريد جده كان من بلنسية ـ وابنته منها، تبعتاه يومئذ راجلتين، نيفا على فرسخين، حتى أدركتا بمركوب، وقد أخذ الجهد منهما بأوفر نصيب، واجتمع مشيخة طليطلة بفناء القصر، مرتبكين بين اللجاج والذعر، عامتهم تتطاول بزعمها إليه، وخاصتهم تتخيل المثول بين يديه، وهم يظنونه بحيث يرى ويسمع، ويتوهمون أنه سيفعل ويصنع، فوجدوه قد أذعن للدنية، وخرج من بعض المخارج الخفية، ومشى القهقرى، فاستأسدت كلابهم لأكل لحم ليس له ناصر . . . ، وألقوا يومئذ فى تنور الطاغية أدفونش من تلك الجواهر المكنونة، والذخائر المصونة»[١].

أما الملك الهارب (القادر)، فإنه لجأ أولا إلى مدينة وادى[٢]،

---

(١) الذخيرة ـ ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) انظر: R. Ménendez Pidal : Esp. del Cid ج ١ ص ٢٨١ وحاشية ٣.

ثم إلى قونكة ، ومنها كتب إلى الأمير المسيحى ، يطلب منه العون والنصرة ، وقد فقد أهل طليطلة عادة تبديل ملوكهم ، فكان أول همهم غداة رحيل القادر المفاجىء البحث عمن يقلدونه أمرهم ، وتشاوروا فى ذلك وغلب رأى رآه رسول من ملك بطليوس كان هناك يومئذ ويدعى أبا محمد يوسف بن القلّاس ، فمملكة طليطلة ستقدم لقمة سائغة إلى المتوكل من بنى الأفطس ، فأرسلوا إليه وفدا ، ولم يكن أحب إليه من قبول ما عرضه الوفد ، حتى لقد جاء بنفسه ليدخل عاصمة ولايته الجديدة فى يونية من سنة ١٠٨٠ م (آخر سنة ٤٧٢ هـ).

* * *

وكان بنو الأفطس ، كما هو شأن بنى ذى النون ، من أصل بربرى ، وإن ادعوا نسبتهم فى قبيلة يمنية ، فهم جميعا ينحدرون من قبيلة مكناسة المغربية ، قد حكموا إمارة بطليوس منذ نصف قرن مضى ، واضطروا هم أيضا للمحافظة على كيانهم إلى مقاتلة جيرانهم المسلمين ، وعمر الذى تسمى « المتوكل » وآثره أهل طليطلة ، كان أديبا دون أن يزهد فى ملاذ الدنيا . ولما استقر فى طليطلة ، لم يفكر قط فى وسائل الدفاع عن المدينة على ما ذكر ابن بسام ، ولا فى الاستعداد بأن يحاول التفاهم مع غيره من ملوك الطوائف لمواجهة الطمع والحماس المتقد الذى يعتمل فى نفس ألفونس السادس والقادر حليفه المخلوع .

وراح يقضى كل وقته فى إعداد الولائم ، حتى إذا اتصل به أن سيد طليطلة القديم ، وحليفه القوى قد توجها إلى المدينة للاستيلاء عليها رأى أن من حسن التدبير الرحيل عن المدينة وتركها لمصيرها . وفى إبريل سنة ١٠٨١ ، اتخذ طريقه إلى بطليوس ، بعد أن مكث فى عاصمة بنى ذى النون عشرة أشهر .

ولم يكن القادر ساكنا فى هذه الأثناء ، فقد ظل هذا العاجز يطمع فى أن يسترد عرشه بالقوة ، ولم يستسلم لما أصابه من ضياع ملكه ، ويحكى المؤرخون العرب أنه طالب ألفونس السادس بالوفاء بما كان جده المأمون قد بذله له من خدمات ، ليهب إلى نجدته . ولم يكن الملك المسيحى بالذى لا يستجيب للتذكير بكرم الضيافة ، ثم إن قبوله لندائه لا ضرر فيه على مصالحه الذاتية ، بل إن القادر أزجى إليه الوعود الخلابة ، فقد أخذ على عاتقه أن يعطيه قلعتين من القلاع الحصينة ذات الأهمية الاستراتيجية [١] ، إذا هو اعتلى العرش ، واتفقا على ذلك .

ويؤرخ الأستاذ منندث بيدال فى كتابه Espana del Cid هذا الاتفاق فى سنة ١٠٧٩ م ، وقد تلاه فى الحال هجوم على المتوكل ، أفضى إلى الاستيلاء على قورية . ولعل الحرب لغزو طليطلة بدأت وقتئذ ،

---

(١) انظر : ابن كردبوس : كتاب الاكتفاء ، ودوزى فى كتابه Abbadites جـ ٢ ص ١٧ .

بحيث لم يستطع القادر أن يدخل عاصمته إلا بقوة السلاح [1] .

وقد رأينا أن ابن بسام يورد تواريخ متباينة ، ويصور الأحداث بطريقة أخرى ، فيذهب إلى أن ألفونس السادس والقادر لا يبلغان طليطلة إلا بعد رحيل المتوكل عنها ، وأن الأهلين لا يضعون عقبة ما فى سبيلهما ، فألفونس السادس يعيد القادر إلى عرشه ، فيسارع عنا كعادته سابقا إلى إرهاق رعاياه ليجمع الجزية التى وعد بها حليفه ، وينطلق ألفونس بكل حرية متجولا فى أنحاء مملكة طليطلة . ويترك بدون شك جزءا من جيشه أمام المدينة، وكثيرا ما كان يعود إلى معسكره ، وتنقضى سنة بأكملها على هذه الحال . وتظهر بوادر الثورة من جديد، ولكنها لا تندلع إلا فى تاريخ محدد ذكره المؤرخ العربى ، وعينه بيوم عيد الأضحى (من سنة ٤٧٤ هـ - ٢ مايو سنة ١٠٨٢ م) . فنى هذا اليوم ، يذهب أهل طليطلة يشكون إلى ألفونس السادس من المعاملة السيئة التى يلاقونها من القادر . ولم يكتف الملك المسيحى برفض شكواهم ، بل طردهم جميعاً ، وما لبث أن مات ابن مغيث زعيم المعارضة ، وأحد أشراف طليطلة ، الذى كان ينتمى إلى أسرة من القضاة ، فيحار الثائرون السيئو الحظ إلى أى حزب ينتمون من بعده ، فييأسون من بلاد قشتالة ، فيما يقول ابن بسام ، ويتحصن بعضهم فى مجريط ، حيث أعلنوا الاستقلال ، فيأمر القادر بمصادرة أملاكهم فى طليطلة .

---

(1) Esp. del Cid ج ١ ص ٢٩٢ .

أما أولئك الذين وقعوا فى يده بعد ذلك، فقد قتلوا بلا رحمة، وصلبوا، بينما لجأ آخرون إلى الهجرة نحو الممالك الإسلامية فى الجنوب، أو فى الغرب، وإن كانت فرق ألفونس قد تعقبتهم، إذ أن الملك المسيحى قد احتل بناء على طلب القادر جميع المخارج والمنافذ التى يجب المرور بها لمغادرة قشتالة. وبما أنه كان يتجول بمطلق حريته فى جميع أراضى مملكة طليطلة، فقد أدى به ذلك فى النهاية إلى الإحداق بها من جميع نواحيها. ولم يلبث الحصار أن اشتد وضاق حول العاصمة.

ولم يطل الموقف أكثر من هذا، ومهما كان يتصف به القادر من الغباء والافتقار إلى التفكير السياسى، فلابد أنه أدرك أن لدى حاميه، أيا كانت النتائج، من الشروط والرهائن ما لا يجعله يرحب بتركها عن طيب خاطر. ولا شك فى أنه فى تلك الحقبة أو بعد ذلك بشهور قليلة قد استقر رأى حفيد المأمون على أن يتخلى عن طليطلة نهائياً لحليفه، إذا شاء هذا أن يعينه على استرداد ولاياته فى شرق الأندلس، وتفاهم مع ألفونس السادس على هذا، ثم أوى إلى قصره، انتظاراً لما تأتى به الأيام من أحداث.

ولكن لم يكن يكفى أن يتخلى القادر عن مدينته، بل كان لابد أن يصير ألفونس السادس سيدها والقابض على زمامها، وعلى هذا بدأ الحصار دون توان، وربما كان ذلك فى نهاية صيف سنة ١٠٨٤م. قبل شتاء هذه السنة نفسها على أى حال، فقد أقام الملك مقر قيادته

أمام طليطلة فى القصر الرائع الذى كان المأمون قد بناه ، ولعله كان على التل الذى تقع عليه اليوم أطلال حصن سان سرفاندو Castillo de San Servando واسمه المنية المنصورة . واستعد لأن يقضى هنا لك كل الوقت الذى يستلزمه إرغام المدينة على التسليم .

بدأت سنة ١٠٨٥ م ، وحالت رداءة الجو دون وصول المؤن إلى ألفونس السادس من الشمال بانتظام . وكان ملوك الطوائف — فيما يقال — هم الذين يرسلون إليه المؤن ؛ ولم تلبث طليطلة أن اشتدت بها وطأة القحط والمجاعة .

يقول ابن بسام «إن البُر كان على زعمهم يمكث عندهم أكثر من خمسين سنة ، لا يؤثر فيه طول القدم ، ولا يُخاف عليه آفة العدم ، ولم يرفع مدة الفتنة من البيادر — على تعذر بدره ، وضيق الحيلة عن محاولة شيء من أمره — إلا وقد بدا البلى عليه ، وأسرعت الآفة إليه »[1] . وعبثاً حاول أهل طليطلة إرسال رسلهم عبر الخطوط المسيحية فى طلب الغوث من ملوك المسلمين ، على أن هؤلاء وقد استولى عليهم الذعر ، ظنوا أن طليطلة قد سقطت ، وكانوا فى جملتهم يؤدون الجزية لألفونس السادس ، وقد نضب معينهم ، ولكنهم عاجزون عن أن يروا السبيل إلى التخلص من مطالبه .

وفى ٣ من مايو سنة ١٠٨٥ م ، اجتاز وفد من أشرافهم قنطرة

(١) ابن بسام : الذخيرة ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، والمقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤٨ .

نهر تاجه ، يسألون الملك المنتصر شروطه ، ويطلبون الضمانات الكافية منه لتأمين أهل طليطلة المسلمين . ولا يذكر ابن بسام شيئاً عن هذه الشروط التي نجد تعدادها فقط فى كتاب الاكتفاء لابن كردبوس [١] واستقبل ألفونس السادس هذا الوفد وآلى على نفسه أن يحافظ على حياة مسلمى طليطلة ، وحياة نسائهم وأطفالهم . وألا يلحق ضرراً بأملاكهم ، كما تعهد بأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج ، ومن يريد أن يبقى بالبقاء ، والذين يريدون البقاء بطليطلة لا يطلب منهم أكثر من دفع ضريبة الرأس لهم ولأسرتهم . وهناك شرط آخر ينص على أن كل مهاجر يمكنه أن يعود فى الحال ويستعيد أملاكه مهما عظمت قيمتها دون معارضة ، كما طلب أهل طليطلة أيضاً ضمانات تتصل بحرية ممارستهم لشعائرهم الدينية ، كما طلبوا وعداً باحترام جامعهم الكبير ، وكان لهم ذلك أيضاً

بعد هذا بثلاثة أيام ، فى ٦ من مايو سنة ١٠٨٥ الموافق العاشر من المحرم سنة ٤٧٨ هـ [٢] ، دخل ألفونس السادس طليطلة سيداً عليها من باب شاقره [٣] .

---

(١) انظر دوزى : Abbad ج ٢ ص ١٨ .

(٢) نجد جميع المؤرخين المحدثين يذكرون تاريخ ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ . أما تاريخ ١٠ من المحرم ٤٧٨ هـ = ٦ من مايو سنة ١٠٨٥ م ، فهو بلا شك التاريخ الصحيح ، إذ ورد فى كتاب مؤرخ بالمنسى معاصر ، وهو ابن علقمة .

انظر : المقرى ج ٢ ص ٦٧٣ ، وابن الأبار : تكملة الصلة ج ١ نشر Bel & Bencheneb ، الجزائر ، ص ٢٩ .

انظر أيضاً :

M. Bencheneb : Notes Chronologiques Principalement sur la Conquête de l'Espagne par les Chrétiens.

المنشور فى : Mélanges R. Basset طبعة باريس سنة ١٩٢٣ ج ١ ص ٥٧

(٣) سبق ذكر هذا الباب .

يجب أن نذكر ما أصاب القادر بعد ذلك ، وكيف أن حليفه قد تحلل من وعوده ، التي تعهد فيها أن يعيده إلى عرش بلنسية . هذا وقد ندد جميع المؤرخين العرب بآخر ملك مسلم فى طليطلة ، لتركه عاصمته فى جبن ، وسخر منه ابن بسام فى قوله : « حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال . وبيده اصطرلاب ، يرصد فيه أى وقت يرحل ، وعلى أى شىء يعول ، وأى سبيل يتمثل ، وقد أطاف به النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله »[1]

وقد ذكر ابن بسام ما حدث بطليطلة فى الأيام التى تلت دخول المسيحيين ، أما ألفونس السادس ، فقد عهد بحكم المدينة إلى أحد أتباعه وهو الكونت المستعرب ششنند Sisnando Davidiz[2] . والظاهر أنه كان على درجة كبيرة من التسامح ، وأنه عمل كل ما فى وسعه لمنع سيده من نقض مواثيقه وعهوده التى كان قد أبرمها

(١) ابن بسام : الذخيرة ص ١٣٠ والمقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٧٨ طبعة ليدن وكذلك : R. Ménendez Pidal : Esp. del Cid جـ ١ ص ٣٣٤ .

(٢) انظر فيما يختص بالكونت Sisnando Davidiz :
R. Menedez Pidal : Esp. del Cid.
فى الفهرس وكذلك :
الفصل الذى عقده منندث بيدال مع غرسيه غومس بعنوان :
El Conde Mozarabe Sisnando Davidiz y la politica de Alfonso VI con los Taifas.
المنشور فى مجلة Al-Andalus مجلد ١٢ سنة ١٩٤٧ ، ص ٢٧ ـ ٤١ . (يوجد فى هذا المقال ترجمة كاملة لفقرة الذخيرة ص ١٣٠ ـ ١٣٢) الخاص بالكونت المذكور ، وبالدور الذى قام به فى طليطلة بعد سقوط المدينة .

قبل ذلك بأيام قليلة مع مسلمي طليطلة . غير أن ماحدث بعد ذلك كان على عكس ذلك تماما . ولكى نقف على ما يتصل بتحويل جامع طليطلة إلى كنيسة ، لابد من الرجوع إلى مصادر غير عربية .

فلا يخفى ما كان لجماعة من رهبان كاونى Cluny ، ممن وفدوا من فرنسا إلى إسبانيا من نفوذ فى بلاط ألفونس السادس ، ومن تأثير على زوجته بصفة خاصة .

والذى نقض عهد الملك بمجرد أن ترك المدينة ، برنار رئيس أساقفة دير سهاجون ، وصار فيما بعد أسقف طليطلة . ويقال إن ألفونس السادس استشاط غضبا عند سماعه هذا الخبر ، كما يقال إن مسلمى طليطلة سعوا لدى الملك ليمنعوه من إنزال عقاب شديد بالأسقف(١) والظاهر أن ابن بسام قد تحرج من أن يعفى ألفونس السادس من التبعة . وقد ذهب إلى أن تحويل المسجد الجامع إلى كنيسة حدث فى يولية سنة ١٠٨٥ م (ربيع الأول سنة ٤٧٨ هـ) ، أى فى الشهر التالى لسقوط العاصمة . ويزيد على ذلك قوله : « فأمر أدفونش بتغيير المسجد الجامع ... وحدثنى من شهد طواغيته تبتدره فى يوم أعمى البصائر . . . وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامى(٢) ، آخر من صدر عنه واعتمده فى ذلك

---

(١) انظر خاصة :

J. Simonet : Historia de los mozarabes de Espana.

طبعة مدريد سنة ١٨٩٧ – ١٩٠٣ ص ٦٧٨ .

(٢) محمد بن عيسى بن فرج أبو عبد الله المغامى – انظر ترجمته فى كتاب الصلة لابن بشكوال ت ١١٠٨ ص ٥٠٠ .

اليوم ليتزود منه ، وقد أطاف به مردة عفاريته ، وسَرَعانُ طواغيته وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلما قالوا له عَجِّل ، أشار هو إلى تلميذه بأن أكملْ ، ثم قام ماطاش ولاتهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد إليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد »[١] .

وقد حُدثت أن شيعة أدفونش ـ لعنه الله وبددها ـ أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج ، وزينوا له زى من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين إياها من أعلاج ، فقال لا ، حتى أطأ ذروة المُلك ، وآخذ قرطبتهم واسطة السلك ، وكان أعد لمسجدها الجامع ناقوسا تأنق فى إبداعه ، وتجاوز الحد فى استنباطه واختراعه »[٢] . وهنا أيضا نجد الحقيقة غير ذلك : إذ لا يلبث ألفونس السادس أن يتسمى فى العربيـــة بالامبراطور ذى الملتين ، يعنى على أهل الدينين الإسلام والمسيحية ، ويقابل فى اللاتينية Imperatur totius hispaniae (٣) .

وعلى الرغم من الذهول الذى أصاب المغرب الإسلامى لسقوط طليطلة وعلى الرغم من اقتراب جيوش يوسف بن تاشفين ، والقصائد

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٤٨ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٣) انظر دوزى : Abbad ، جـ ٢ ص ٢٠ ؛ ومننديث بيدال Esp. del Cid جـ ١ ص ٣٣٧ .

التى تفيض أسى ، كتلك التى قالها ابن العسال ، وقد ذكرها المقرى[١] فإن عاصمة المأمون القديمة ، وقد تنصرت ، لم تخل من سكانها المسلمين، إذ بقى بها كثيرون ، وكثير منهم أسماؤهم معروفة[٢] . وفى هذه المدينة التى كان فيها إبان الحكم الإسلامى أكبر نسبة من السكان المسيحيين . صارت تضم منذ سقوطها إلى قرون عدة أكبر جالية من الموريسك فى إسبانيا التى استردها المسيحيون[٣] .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧٢ .

(٢) كابن مطاهر الذى سبق ذكره ، وانظر ابن بشكوال : كتاب الصلة ت ١١٥ ص ٥٠٤

(٣) انظر « مذكرات » الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة ، المنشورة فى مجلة Al-Andalus ج ٣ و ٤ و ٦ ، مدريد ، سنة ١٩٣٥ـ ١٩٣٦ و ١٩٤١ . وفى هذه المذكرات وصف موجز لغزو ألفونس السادس لطليطلة . (ج ٣ ص ٩٠ ـ ٩١ وص ١٢٤ ـ ١٢٦) . ولكنها تشهد بصحة ما ذكرناه عن سياسة ألفونس السادس بإزاء القادر ، كما تصور أيضاً ذلك الدور المشئوم ، الذى قامت به بعض الأسرات الكبيرة بطليطلة فى عهد القادر ، وبخاصة بنو الحوارشى وبنو مغيث . نشرت هذه المذكرات المسماة بكتاب التبيان كاملة فى سلسلة ذخائر العرب طبعة دار المعارف ، وورد خبر استيلاء ألفونس على طليطلة فى ص٧٦ و ٧٨ من هذه الطبعة . (المراجع)

وانظر أيضاً :

R. Menendez Pidal : Leyendo las « Memorias » del rey ziri "Abd Allah".

المنشور فى مجلة Al-Andalus مجلد ٩ سنة ١٩٤٤ ص ١ ــ ٨ .

الفصل الخامس

« زايدة المسلمة » زوجة ألفونس السادس
وولدهما الأمير دون سانشو

ظهر هذا المقال فى مجلة Hespéris بالجزء الثامن عشر من سنة ١٩٣٤، صفحات ١ - ٨، (وكان التحقيق الوارد فى النهاية موضع ملاحظة مقتضبة (انظر نفس المرجع، جزء ١٨ سنة ١٩٣٤ صفحات ٢٠٠-٢٠١)، تحت عنوان «زايدة المسلمة» كتبه المعتمد)

استوفى الأستاذ منندث بيدال بحث التاريخ الطويل لحكم ألفونس السادس ملك قشتالة وليون فى كتابه القيم الموسوم ب « إسبانيا على عهد السيد » ، فقد فصّل القول فى تاريخ هذا الملك الذى فتح طليطلة ثم باء بالهزيمة فى موقعة الزلاقة والذى نجد عنه روايات مفصلة فى المصنفات الإسبانية الحديثة ؛ وبعد عامين من ظهور هذا الكتاب فى سنة ١٩٣١ وقفت على فصل من كتاب الذخيرة لابن بسام عن دولة بنى ذى النون فى طليطلة وعن استيلاء ألفونس السادس على مدينة طليطلة عاصمة القوط القديمة . وقد أتاح لى ذلك عرض حوادث هذا الاسترداد فى ضوء جديد ، وأفضى بمنندث بيدال إلى الاستفادة منه فى تحديد ما كان قد غمض عليه وأفرد لذلك بحثا عنوانه

« Adefonsus, imperator toletanus, magnificus triumphator» (١)

وفى سنة ١٩٣٤ ظهرت حقيقة جديدة تضمنها نص جديد لمؤرخ مسلم زودنى بالوسيلة التى أحقق بها شخصية « زايدة المسلمة » التى عرضها مؤرخو إسبانيا النصرانية خلال ستار كثيف من الشكوك ، ونعنى بها تلك المرأة المسلمة الأصل التى قيل إنها كانت عشيقة ألفونس السادس وإنه أنجب منها ولده الوحيد الأمير دون سانشو Sancho ، وقد قتل

---

(١) فى مجلة الجمعية التاريخية Boletin de la Academia de la Historia مدريد ١٩٣٢ صفحات ٥١٣ ــ ٥٣٨ . وقد أورد منندث بيدال هذا المقال فى كتابه « التاريخ والملحمة » "Historia y epopeya" مدريد ١٩٣٤ صفحات ٢٣٥ ــ ٢٦٤ .

هذا الأمير وهو فى ميعة صباه فى ٣٠ مايو سنة ١١٠٨ تحت ضربات المرابطين وذلك فى واقعة أقليش إحدى الوقائع التى أنزل فيها الإسلام الهزيمة بالنصرانية فى شبه الجزيرة الأيبيرية [١] .

* * *

لقد أخذ منندث بيدال باستنتاجات يغلب عليها طابع الصدفة ، تواترت منذ أمد بعيد بين مؤرخى إسبانيا فى العصور الوسطى [٢] . فقد انتهى منندث بيدال إلى ما يلى : لم يلبث أن ساء موقف الملوك

---

(١) فيما يختص بحملة أقليش والنكبة التى لحقت بالجيش القشتالى ، انظر كوديرا : « تدهور وزوال ملك المرابطين بأسبانيا » F. Codera: Decadencia y desaparición de los Almorávides en Espana سرقسطة سنة ١٨٩٩ صفحات ٦ ـ ١٠ ، ٢٣٩ ـ ٢٤٢ ؛ رامون منندث بيدال : إسبانيا فى عهد السيد القنبيطور (طبعة أولى) R.Menéndez-Pidal: La Espana del Cid والمصدر العربى الوحيد الذى عالج تلك الحملة ببعض التفصيل هو روض القرطاس لابن أبى زرع ، طبعة تورنبرج Tornberg صفحات ١٠٣ ، ١٠٤ ـ ومن الممكن الاطلاع على الروايات التى تضمنها البيان المغرب لابن عذارى ونظم الجمان لابن القطان فى كتابى « وثائق جديدة فى تاريخ المرابطين » Documents inédits d'histoire almoravide

(٢) انظر كذلك ا . بريتواى فيفس A. Prieto y Vives فى كتابه ملوك الطوائف ، دراسة تاريخية لعملات مسلمى إسبانيا فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) مدريد ١٩٢٦ ، ص ٧٥ . Los Reyes de Taifas, Estudio histórico - numismático de los Mosulmanes espanoles en el siglo v de la hégira (XI de J. C.)

وكان تاريخ زواج « زايدة المسلمة » موضع أبحاث طويلة بدأت منذ القرن ١٨ فى إسبانيا : انظر فلوريث Floréz فى كتابه « الملكات الكاثوليكيات » "Reinas Católicas" مدريد ١٧٩٠ جزء أول صفحات ٢٠٨ ـ ٢١٦ ، ٢٢٨ .

المسلمين فى الأعوام التى تلت واقعة الزلاقة عام ١٠٨٦ . وعندئذعقد أكبرهم وهو المعتمد بن عباد ملك إشبيلية حلفاً مع ألفونس السادس عدوه القديم حتى يواجه أطماع المرابطين الصريحة فى التوسع داخل الأراضى الإسبانية ، وفى سبيل تدعيم هذا الحلف وتقويته ، اقترح على ملك قشتالة عام ١٠٩٠ أو ١٠٩١ أن يبعث إليه بابنته زايدة لتكون عشيقته فى نظير أن يتخلى له عن جزء من مملكة طليطلة الاسلامية القديمة ، التى استولى عليها ، ونقصد بذلك مناطق قنيشرة وويذة وكونكة . ووافق ألفونس السادس على هذا المشروع ، وولد له ابنه الأول الأمير دون سانشو بعد فترة قصيرة من علاقته «بزايدة المسلمة» ، غير أن أميرة إشبيلية التى اعتنقت الكاثوليكية والتى عمدت باسم إيزابيلا ، توفيت عند وضعها الأمير ، ودفنت فى دير ساهاجون فى تاريخ يمكن تحديده فى ١٠٩٩ . وحين بلغ سن الأمير ما يقرب من تسع سنوات ، أرسله أبوه ليشترك مع جيوشه فى حملة وجهها ضد المرابطين عام ١١٠٨ ، فلقى الأمير مصرعه فى «وقعة أقليش» . وعندما بلغ ألفونس السادس نبأ هلكه أصابه حزن شديد لم يمهله أكثر من عام واحد بعد وفاة ابنه ، فأدركه الموت بدوره فى ٣٠ يونيو سنة ١١٠٩[1]

ولم يسع منندث بيدال ، شأنه فى ذلك شأن من سبقه ، إلا أن يستعمل المصادر غير العربية لبناء هذا الحشد من الافتراضات التى

(١) انظر « إسبانيا على عهد السيد » طبعة أولى صفحات ٤٢٣ ، ٦٢٩ وخاصة صفحات ٧٧٧ ــ ٧٧٩ .

تنتهى جميعاً إلى حقيقة واحدة صريحة لا تقبل الجدال ، هى موت سانشو فى ١١٠٨ . فاعتمد قبل كل شىء على الحقائق التى تتضمنها المدونة التاريخية المسماة De Rebus Hispaniae ، وقد وضعها عام ١٢٤٣ الأسقف رودريج الطليطلى Rodrigue de Tolède المؤرخ الرسمى فى عهد الملك فرديناند القديس St. Ferdinand . ومعنى هذا أنه كان متأخراً نسبياً عن هذه الحوادث التى نعالجها . ومع ذلك فقد أعترف منندث بيدال أكثر من مرة فى كتابه ، بأن روايته تحتاج إلى الحيطة عند الأخذ بها فى كثير من الأحيان إذ أن الأسطورة تختلط فيها غالباً بالتاريخ الحقيق [1] . والإشارة الوحيدة الجديرة فى اعتقاده بالأخذ ، هى التى أدلى بها بلايو أوبيدو Pelayo d'Oviedo المعاصر لألفونس السادس ورددها من بعده أسقف توى Tûy فى كتابه " Chronicon Mundi " ويرجع إلى سنة ١٢٣٦ .

وكل ما تتضمنه هذه الإشارة أن زايدة كانت إحدى عشيقتى ألفونس السادس ، حظى بهما طوال حكمه [2] . ثم جاء رودريج الطليطلى فأضاف إلى علاقة ملك قشتالة بالأميرة المسلمة تفصيلات يعد الشطر الأكبر منها خرافة محضة ، ولا شك أن رودريج قد تأثر ، كما مال إلى ذلك بحق الأستاذ منندث بيدال ، بملحمة زايدة المسلمة ، Cantar de la Mora Zaida ، إذ يرجح أنه كان يعرفها ، ومن هنا كان ما ذهب إليه

(١) انظر نفس المرجع ص ٩٠ .

(٢) كتاب Espana Sagrada ج ١٤ ، ص ٤٩٠ . انظر إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٢٢ .

رودريج ، من أن زايدة تزوجت بألفونس السادس عقب وفاة زوجته الرابعة إيزابيل وذلك فى سنة ١١٠٧ ، أى قبل حدوث واقعة أقليش بعام واحد تماماً[1] ؛ ثم إشارته إلى اسم مارى Marie الذى عمدت به « زايدة المسلمة » بدلا من إيزابيل الذى يبدو أن مصدره من الأدب الشعبى[2] ، ثم « روايته المشوشة ذات المصدر الشاعرى » التى يعلن فيها أن المرابطين حاربوا ملك إشبيلية المسلم ، فى إحدى المرات التى عبروا فيها إلى إسبانيا ، وهى المرة الثالثة ، لأنه كان قد وهب ابنته لتكون زوجة لألفونس السادس[3] . ولكن هناك أمراً جديراً بالإبقاء عليه فى رواية رودريج الطليطلى . ذلك أن الأمير دون شانسو كان عند وقوع معركة أقليش فى ميعة شبابه Adhuc Parvulo وإن كان فى سن تتيح له امتطاء الجواد[4] .

والظاهر أن هذه الاستنتاجات التى وصل إليها منندث بيدال بعد أن أخضع الحقائق المختلفة لفحص نقدى ، لا تقوم فى جملتها على أسس تاريخية مؤكدة بل إنها والحق يقال قليلة الإقناع . فكون ألفونس السادس الكلف بالمتعة الجنسية قد عقد فى مغرب حياته

---

(١) De Rebus Hispaniae ج ٦ ص ٢٠ (انظر إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٧) .

(٢) إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٩ .

(٣) De Rebus Hispaniae ج ٦ ص ٣٠ (إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٨) .

(٤) المرجع السابق ج ٦ ص ٣٢ (إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٧٧٩) .

زواجا شرعياً أو غير شرعى على زوجة مسلمة ، وكونه أنجب منها ولده سانشو .. كل هذا يبدو محتملا جداً ، بل يتمشى تماما مع عادات عصر كان الزواج المختلط فيه أمراً شائعاً فى إسبانيا ، فلون الحياة الإسلامية فيه كان يبدو لدى أمراء النصارى بشبه الجزيرة على أقل تقدير ، فى نفس التطور والرقة التى كان ينعم بهما رعاياهم أنفسهم. وإن ملكا إسبانياً يضرب فى طليطلة المستردة عملات نقوشها عربية ، ويعيش بين سكان كثيرين ما زالو مسلمين ، ليمكنه بالأحرى أن يتخذ امرأة مسلمة زوجة له ، لكنه من المستبعد أن يتصور المرء أن يهب المعتمد ، على ما فى ذلك من ذلة ، إحدى بناته لملك نصرانى كان عدوه اللدود الذى يفرض عليه جزية سنوية فادحة . ولو أننا قبلنا جدلا أن ملك إشبيلية استطاع أن يسلك هذا المسلك غير الطبيعى ، لكان ذلك جنوناً صريحاً منه ؛ ففى ذلك الوقت كان صلحاء المسلمين فى حاضرته ينكرون عليه وعلى زوجته اعتماد الرميكية أقل تصرف يخل بأحكام الإسلام وينكرون عليهما عدم حرصهما على الدين ، وفى ذلك الوقت كانا يعملان على إثبات بطلان هذه الظنون ، هو بدقته فى القيام بواجبات المسلم الحق ، وهى بحرصها على أن تقيم باسمها المنشآت الدينية ، ثم ماذا أفاد مؤرخو المرابطين من هذه الهبة ، لتلطيخ ذكرى منفى أغمات الشقى ، وقد كان الأمر على الضد من ذلك ، إذ تأسفوا جميعاً لما آل إليه من مصير محزن ؟ . وأخيراً لماذا تحمل « زايدة المسلمة » إلى سيدها الجديد وكأنها أميرة مسيحية بجرى فى

عروقها الدم الملكى ، من أميرات القرون المتأخرة ، صداقا عظيما يتألف من جميع البلاد التى تتاخم جنوب طليطلة بما فيها الحصون التى أورد ذكرها[1] رودريج الطليطلى وهى حصن كارا كواى والأرك وقنيشرة ومورة وأوكانية واوريجة وأقليش وامستريجو وكونكة ؟ تصرف يمكن أن يفسر من غـــير شك بأنه رمز ، ولكنه إذ يفيض بالروح القصصية لايتفق إطلاقا مع التقاليد الإسلامية فى جميع البلاد وفى جميع العصور ، زد على ذلك أن ألفونس السادس كان وقتئذ متزوجا زواجا شرعياً من أميرة مسيحية ، فلا يمكن أن يكون الأمر متعلقا بزواج شرعى بل بمجرد اتخاذ لعشيقة .

ولو صح أن المعتمد ترك كل هذه الحصون المنيعة لألفونس السادس ، فالمؤرخون العرب لا يشيرون إطلاقا إلى أنها كانت فى حوزته ثم تخلى عنها ، لو صح هذا لكان من الأيسر ومن المعقول أن يفترض المرء أن ذلك كان تنفيذاً لشرط من شروط معاهدة التحالف التى طلبها ملك إشبيلية من ملك قشتالة لما استقر رأى المرابطين على عزله وضم مملكاته إليهم دون أن يكون من الضرورى وجود علاقة بين هذا التخلى وبين هبة الأميرة المسلمة . فلم يكن المعتمد ، على دقة موقفه ليرضى بذلك حتى ولو دفعته حاشيته إليه دفعاً ، ثم إن ذلك لمما يعجب منه ألفونس

---

(١) De rebus Hispaniae جزء ٦ ص ٣٠ (إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى صفحات ٧٧٨ ـ ٧٧٩) .

السادس ويدهش له، فأطماعه لم تكن بلاشك تبلغ إلى هذا الحد .

* * *

ذلك هو الوضع الذى انتهت إليه المشكلة الخاصة بتاريخ أو أسطورة « زايدة المسلمة » ، وهى مشكلة يبدو أنها كانت قد بقيت معلقة ، فقد كان مما يقل احتماله العثور على مصدر جديد لاتينى أو قشتالى . وأبعد من ذلك على مصدر عربى يمدنا بمفتاح هذه المشكلة ، ومع ذلك فقد أتى لى به بطريق الصدفة نص لمؤرخ عربى .

فقد ورد ذكر الحملة التى وجهها ألفونس السادس ضد قوات أبى الطاهر تميم أخى على بن يوسف التى كانت تحاصر حصن أقليش فى سنة ٥٠١ هجرية (١١٠٨ م .) فى الجزء الثالث من كتاب البيان المغرب لابن عذارى فى أثناء كلامه على تاريخ المرابطين . ذكر المؤرخ فى عبارات صريحة أن شانجة الذى أنجبه ألفونس من زوجة المأمون ابن عباد التى اعتنقت النصرانية وصل تحت أسوار هذا الحصن على رأس سبعة آلاف فارس تقريباً . هذه الإشارة التى جرى بها قلم مؤرخ مسلم بحيث لا سبيل إلى أن نشك فى صحتها ، تؤيد بصورة قاطعة وجود امرأة من أصل إسلامى باعتبارها خليلة لألفونس السادس ، وكانت أم الأمير ؛ ثم تدل على أن هذه المرأة هى كنته ، إذ كانت زوجة لابنه المأمون .

ولقب المأمون لم يكن يحمله أحد من أمراء بنى عباد بإشبيلية سوى

الابن الثانى للمعتمد واسمه عباد أو فتح (١). كان أبوه قد ولاه حكومة قرطبة، فلما غزا المرابطون إسبانيا فى نهاية سنة ١٠٩٠ تحت قيادة سير بن أبى بكر، انفصل عنهم جيش كانت مهمته محاصرة حاضرة خلفاء بنى أمية، ولم يقاوم أهل قرطبة جيوش المرابطين إلا مقاومة طفيفة دخلوا بعدها المدينة فى ٢٦ مارس سنة ١٠٩١ (٣ صفر فى ٤٨٤ هـ): وهلك الأمير المأمون والسلاح فى يده فى الوقت الذى انتزعت فيه قرطبة انتزاعاً (٢)، ثم سقطت إشبيلية بعد ذلك بعدة شهور؛ ومن ثم يمكننا إدراك أن أرملة المأمون. وقد امتلأ قلبها حقداً على قاتلى زوجها وسجانى أبيه بعد ذلك بقليل، لم تلبث أن رحلت باحثة عن ملاذ لها فى مملكة الفونس السادس، فاجتازت جبال سيراموريना، وهناك أصبحت الزوجة غير الشرعية للملك قشتالة بعد أن ارتدت عن الإسلام واعتنقت المسيحية. ومن الممكن تحديد هذا الزواج فى تاريخ قريب من سقوط قرطبة وإشبيلية فى نهاية سنة ١٠٩١ أو بداية سنة ١٠٩٢ (٣) دون التعرض كثيراً للوقوع فى الزلل.

---

(١) فيما يختص بأبناء المعتمد الأربعة وهم الرشيد والمأمون والراضى والمؤتمن (أو المعتمد بالله) انظر المراجع المذكورة فى كتابى «النقوش الكتابية العربية بإسبانيا» " Inscriptions arabes d'Espagne " طبعة ليدن — باريس، ١٩٣١ ص ٤١ ملحوظة رقم ٥.

(٢) انظر بصفة خاصة ر. دوزى فى كتابه: تاريخ المسلمين بإسبانيا "Histoire des Musulmans d'Espagne" الطبعة الجديدة، ليدن ١٩٣٢ ج ٣ ص ١٤٨ وانظر المراجع المذكورة فى ملحوظة ٢.

(٣) ليس هناك فى الحقيقة نصيب كبير من الصحة للرأى القائل بأن زوجة ألفونس =

ويفهم من هذا كيف أمكن أن تتولد أسطورة « زايدة المسلمة » زوجة المعتمد المزعومة والتي أهداها إلى سرير ملك قشتالة « عربونا لسياسته الموجهة ضد المرابطين »[1] . وليس أيسر أو أكثر إغراء

= السادس المسامة كانت قد عقدت زواجها به فى أثناء حياة زوجها الأولى بعد أن طلقت منه . ثم إن هذا الزواج لم يكن شرعياً ، إذ أن ألفونس السادس كان متزوجاً فى هذه الفترة منذ ١٠٨٠ وللمرة الثانية بالملكة كونستانس أرملة كونت دى شالون سير ساءون Chalon - Sur - Saône وابنة روبير Robert دوق بورجونى Bourgogne وابنة أخ روبير الصالح Robert le Pieux ملك فرنسا . وماتت كونستانس فى بداية عام ١٠٩٣ ودفنت فى ساهاجون ، وكانت قد أعقبت ابنتها أراكه التى تزوجت ريمون دى بورجنى Raymond de Bourgogne ثم ألفونس المحارب Alphonse le Batailleur . وفى نفس هذا العام تزوج ألفونس السادس بعد عهد قصير من الترمل ، الملكة بيرت Berthe ، وماتت بدورها فى سنة ١١٠٠ — انظر : رامون منندث بيدال ، إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى صفحات ٢٧٢ ، ٤٤٨ ، ٧٧٨ وقد ذكرت هذه الملكة كونستانس — التى يطلق عليها المؤرخون العرب القمجيطة (وهى الزوجة السابقة لكونت دى شالون) — عرضاً فى بداية القصة الطويلة لمعركة الزلاقة والأسباب التى أدت إلى وقوعها ، وهى قصة أوردها عبد المنعم الحميرى فى معجمه التاريخى الجغرافى وعنوانه « الروض المعطار فى خبر الأقطار » انظر ا . ليفى بروفنسال ، شبه جزيرة أيبيريا فى العصر الوسيط ، ليدن ١٩٣٨ صفحات ١٠٤ ، ١٠٥ : E. Lévi-Provençal : La Peninsule Ibérique au Moyen âge وأيضاً المقرى : نفح الطيب ٢/٦٧٦ ط ليدن (ترجم سيمونيه هذه الفقرة وشرحها بإسهاب فى تاريخ المستعربين فى إسبانيا ، مدريد ١٩٠٣ صفحات ٦٤٩ ، ٦٥٠ Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana. وكذلك السلاوى فى الاستقصا ج ١ ص ١١٣) وكان ألفونس السادس قد أرسل إلى المعتمد وزيره اليهودى ليسأله السماح لزوجته الحبلى بالذهاب إلى مدينة الزهراء لتضع بسبب المناخ الملائم فى هذا المكان ، ولكى تتمكن من زيارة الكنيسة القديمة التى بنى عليها المسجد الجامع بقرطبة ، ولم يرفض المعتمد فحسب بل ثار على الرسول اليهودى وصلبه .

(١) إسبانيا فى عهد السيد ط . أولى ص ٤٢٢ .

لرعايا ملك طليطلة ومؤرخي العصور التالية بالخيال من اعتبار الأميرة التي ارتدت عن الإسلام بعد أن ترملت وصارت طليقة ثم ربطت حياتها بحياة ألفونس السادس ، الابنة الحقيقية لملك إشبيلية . أما قصة « الصداق » فلم يكن لها من غير شك أصل سوى هذا ؛ على أن ذلك كله ليس إلا إحكاماً جاء في عصر متأخر ، لحلقة في القصة القشتالية .

ولكي نختم ذلك يحسن بنا الإشارة إلى أن مولد الأمير دون سانشو لا يمكن أن يكون قد حدث في وقت متأخر بكثير عن الزواج الذي عقده ألفونس السادس على أرملة المأمون ، فقد توفيت هذه وهي تلد إذا صدقنا ما تضمنه شاهد قبرها الذي كان قائماً في دير ساهاجون ، وقد نصبه الأسقف ساندوڤال Sandoval من جديد ، إلا أن الكتابة فيها سقط فلم يرد ذكر العصر الذي ماتت فيه الخليلة ، إذ سقط من التاريخ الرقم الدال على السنة ، ولم يبق سوى ١٢ سبتمبر ، ويوم من أيام الأخمسة تبعاً لقراءة ساندوڤال ، أو أحد أيام الاثنين في رواية تضمنتها صورة منه كانت عند فلوريث Floriz[1] . وقد ذهب الأستاذ منندث بيدال إلى أن التاريخ هو يوم الاثنين الثاني عشر من سبتمبر سنة ١٠٩٩ ، وبنى ذلك على الاحتمالات التاريخية التي تدل عليها عناصر التاريخ هذه ، لكن لم لا نؤثر تاريخاً أقدم عهداً وهو الاثنين ١٢ سبتمبر سنة ١٠٩٣ ؟ لا شك أن هذا من شأنه أن يكون الأمير دون سانشو وقت حدوث موقعة أقليش التي لقي فيها حتفه في الخامسة عشرة تقريباً لا في التاسعة ، وبهذا يستساغ عقلاً اشتراكه سنة ١١٠٨

(١) المرجع السابق ص ٧٧٩ .

فى الحملة الفاشلة التى حاربت فيها الجيوش القشتالية المرابطين وما استتبع ذلك من سقوط الأمير المسيحى صريعا .

• • •

وبعد شهور من اكتشاف العبارة الواردة فى البيان المغرب عن « زايدة المسلمة » كتب إلى زميلى هنرى بيريس H. Pérès بجامعة الجزائر بدليل جديد يحقق شخصية الأميرة المسلمة وأنها كانت كنة المعتمد، فهناك فتوى (نازلة) دونها الفقيه المراكشى أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشى [1] فى آخر القرن الخامس عشر أو مستهل القرن السادس عشر ، تتعلق بالمسلم الذى فى استطاعته أن يجتاز إلى إفريقية ، هل له أن يظل فى إسبانيا ليعين المستضعفين من إخوانه فى الدين . ومن الحجج التى ساقها الونشريشى ليؤيد إجابته بالنفى على هذا السؤال ، أن ما يدفع المسلمين إلى الهجرة إلى بلد مسلم هو خوفهم من العار الذى يصيبهم لارتداد نسائهم عن الإسلام ، فالذى لديه زوجة أو ابنة أو فتاة من قرابته قد أشرفت على سن البلوغ يخشى من أن تنشأ علاقة بينها وبين شخص بالغ من بين الكلاب أعداء الدين والخنازير الملاعين ، إذ قد يفتنها فى دينها ، وفى ذلك العار والشنار ، كما وقع لكنة المعتمد ابن عباد وأطفالها

والإشارة هنا إلى علاقة القرابة صريحة لا تحتاج إلى بيان ، فأميرة إشبيلية التى أصبحت زوجة ألفونسو السادس لم تكن ابنة المعتمد بل كنته . وفى العبارة ملحظ آخر له دلالته ؛ ذلك أن « زايدة المسلمة »

---

(١) مخطوطة رقم ١٠٤٣ بالمكتبة الوطنية بالجزائر ورقة ٦ ظ — ٧ و

لم تذهب وحدها إلى بلاد الشرك ، بل لحقت بملك قشتالة ومعها أبناؤها من المأمون ، وهؤلاء أيضا ارتدوا عن الإسلام وتنصروا[1].

---

(١) لمنندث بيدال مقال عنوانه « نقد ما ورد عن السيد والتاريخ الوسيط La critica cidiana y la histoira medieval ظهر فى Zeitschrift für romanische philologie جزء ٦٤ سنة ١٩٤٤ وفى مجلة Revista nacional de educacion. ، مدريد ، نوفبر — ديسمبر سنة ١٩٤٤ صفحات ٤ — ٤٠ ، ثم أورده فى كتاب « قشتاله : التقاليد واللغة » (مجموعة . Austra ، مدريد بوينس آيرس ١٩٤٥) صفحات ٩٥ — ١٣٩ ، بحث فيه الأدلة التى سقناها عن المشاكل الخاصة بجوازه زايدة المسلمة » إلى بلاد النصارى (صفحات ١١١ — ١١٣ فى كتاب قشتالة) . والظاهر أن المؤرخ الإسبانى مع قبوله لما ذكرناه عن حقيقة شخصية الأميرة ، لا يميل كثيراً إلى تغيير موقفه الذى بسطه فى كتاب « إسبانيا فى عهد السيد » فيما يتعلق بطبيعة العلاقات بين الفونس السادس والمعتمد قبيل استيلاء المرابطين على إشبيلية . ويرى أن « كون ملك أندلس يدفع جزية إلى الفونس مما لا تشتم منه عداوة بل مما يقتضيه الود والتحالف السياسى ليضمن حماية الملك المسيحى له ؛ ثم إن ذلك الحماس الدينى الذى أوهم المعتمد الناس به قاصداً من ذلك ألا يدع هناك مجالا لتدخل أمير المرابطين ، كان موقفاً قد فات أوانه فى اللحظة التى حدثت فيها قصة اتخاذ الفونس زايدة خليلة له . . . وليس من الطبيعى فى هذا الموقف افتراض أن زايدة المسلمة قد تصرفت وفق هواها (وهو أمر فى حد ذاته لا يقبله العقل خاصة إذا صدر من امرأة مسلمة) ؟ وإنما المعتمد نفسه هو الذى دبر هذا الأمر ولم يكن الإخلال بأحكام الإسلام الذى فشا فى هذه الأسرة الملكية عملا انفردت به الأميرة الأرملة ، وإنما كان عملا سياسيا قام به المعتمد الزنديق وكان وقتئذ قد امتلأ صدره غيظاً على مظهر المرابطين الزائف وعداوتهم له وحرص على أن يحظى بتعاون فعلى من الفونس بأى ثمن رغبة فى الدفاع عن إشبيلية » . وإذا كنت لا أجد فى هذه الحجج مقنعاً فإنى أوافق العالم المدريدى الشهير فيما ذهب إليه عند كلامه على أسطورة « زايدة المسلمة » من أن « الشعر القصصى الأسبانى فى نصوصه الأولية ، وكان ثمرة للقرن الحادى عشر ، يحمل فى طياته أساسا تاريخيا أكثر مما يحمل الشعر القصصى فى البلاد الأخرى أثناء تلك الحقبة » .

الفصل السادس

السيد القنبيطور فى التاريخ

ظهر هذا البحث فى المجلة التاريخية Revue Historique جزء ١٧٠ باريس ١٩٢٧ صفحات من ٥٨ إلى ٧٤ .

خُلّد السّيد منذ عهد طويل فى الصفحات الأولى من ميراث أسبانيا فى البطولة ، وقد أريق مداد كثير فى تدوين حياته الحقيقية وحياته الأسطورية شأنه فى ذلك شأن سائر الأبطال : كما أثارت كلتا حياتيه بين العلماء صراعاً لم يخل من الهوى . ولم تكن « معركة السيد فى التاريخ » أقل عنفا من « معركة السيد » فى مسرحية كورنى من أجل أنها أحدث منها عهداً : فقد دامت ما يزيد على قرن من الزمان ، ولكنها انتهت اليوم فيما يظهر . فقد عكف مننديث بيدال العالم الثبت فى دراسات العصور الوسطى الذى تفخر به اليوم أسبانيا ، منذ عشرين عاماً ، بروح المؤرخ الذى هو من الطراز الأول ، على نفض الغبار الكثيف الذى علق بشخصية الكونت القشتالى المرموق ، وتوسل بالحجج القاطعة ليبرر الإحساس الغامض الذى أذكاه الشعراء الشعبيون بأشعارهم عن القنبيطور ، بحيث أخذ يسمو السيد حافز الهمم شيئا فشيئا إلى مرتبة البطل الأبى الذى يمثل النبل الأسبانى فى العصور الوسطى . فهو ، فيما يبدو ، لم يترك شيئا من شأنه أن يبين العلة فى أن السيد صار فى ذلك العصر رمزاً للمثالية فى الفروسية بشبه الجزيرة ، وهى مثالية تألفت فى آن واحد من إدراك بالغ للنخوة مع نشاط وشجاعة يتجاوزان نطاق البشرية . وكان كتاب مننديث بيدال عن السيد بمثابة الذروة لرد الفعل العاطفى العلمى أيضا لتقاليد تاريخية

طويلة الأمد كانت قد حطت شيئا فشيئا طوال القرن التاسع عشر من الدور الذى لعبه رودريجو دياث Rodrigo Diaz فى الاقتصاد الإسبانى المسيحى فى العصور الوسطى ، وجعلت منه شخصية من الدرجة الثانية ، ومغامراً لم تستطع بعض حسناته التى لا جدال فيها أن تذهب بما استوجب القدح فيه .

لن نعيد إلى الأذهان تلك المصنفات المتعاقبة التى اتضحت فيها المظاهر المختلفة لهذه الحملة الشعواء على السيد ، افتتحها اليسوعى الأسبانى الأب مسديو ، ثم أضيفت إلى هذه الحملة القائمة على نقد الوثائق التقليدية التى كانت وقتئذ فى متناول اليد، سلسلة من الاكتشافات اهتدى إليها المستشرق الهولندى ربهارت دوزى، وهى وثائق سرعان مازودتنا بفيض هام من الأدلة الجديدة، ولم يكن فى هذه الاكتشافات ما يبعث على الدهشة ، فقد كان من الطبيعى أن يترك البطل الذى نسجت حوله أسطورة الاسترداد ومحاربة الإسلام الإسبانى فى نهاية القرن الحادى عشر بعض آثار فى روايات مؤرخى العرب ، ولما كان التأريخ المسيحى فى هذا العصر يكاد يكون معدوماً ، فقد لقى إظهار وثائق أصلية باللغة العربية عن السيد ترحيبا ، وكان من شأنه أن يفضى إلى ما يقتضيه البحث العلمى ، ولقد تهيأ لدوزى العثور فى مكتبة خاصة بجوته فى ألمانيا على مخطوطة عربية تحتوى على رواية مطولة عن النشاط السياسى الذى قام به الكونت القشتالى حيال مدينة بلنسية فى ذلك الوقت ، وما لبثت أن أفضت أبحاث جديدة لهذا العالم إلى اكتشافات

أخرى ، واستطاع دوزى وهو يتابع تحقيقه ، بفحص المصادر المسيحية لتاريخ السيد عن كثب ، أن يقتنع بأن أهم المصادر عربى الأصل . وأمكنه فى الحقيقة أن يثبت بصفة قاطعة أن تاريخ الكونت القشتالى الذى يؤلف جزءاً هاماً من المدونة الأولى للتاريخ العام — وهى مدونة جمعت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر فى عهد الفونس العاشر العالم — لم يكن سوى صورة مباشرة من الأصل العربى لمصنف فى السنوات الأخيرة من حياة السيد ، دونه فى بلنسية نفسها مؤرخ أندلسى يدعى ابن علقمة ، وظهر بحث دوزى فى عام ١٨٤٩ ، وأحدث ضجة كبرى فى تلك الحقبة ، وكان عنوانه « السيد فى ضوء وثائق جديدة « Le Cid d'après de nouveaux documents » ولم تجد المدرسة التاريخية الأسبانية حيال الوثائق التى أتى بها المستعرب الهولندى ، وهى وثائق لا يتطرق إليها الشك ، بدأ من قبول نتائجها ، وكان فى هذه النتائج إفراط من بعض الجوانب وخاصة فيما يتعلق بطابع الشخصية والتشويه الأسطورى لعصر السيد ، بحيث كان لا بد من الانتظار إلى سنة ١٩٠٠ ليظهر رد الفعل فى أسبانيا ذاتها ، وكان ذلك على يد بوبول إى الونسو أول الأمر ، ثم تلاه مننديث بيدال مع كثير من التوسع والتثبت العلمى ، فواصل الجهد فى تقديم شخصية البطل ، ونشر بعض الأبحاث التى عالج فيها مشكلته ، وتوج ذلك كله بكتابه القيم « إسبانيا فى عهد السيد La Espana del Cid » الذى ظهرت أولى طبعاته فى مدريد سنة ١٩٢٩ .

ولو أن « مننديث بيدال » انتظر عدة سنوات قبل أن يقدم إلى الجمهور نتائج أبحاثه عن السيد، لكان قد أدخل بعض التحفظات أو أثار بعض الأسئلة على الأقل فى الصورة التى رسمها للقنبيطور وحرص فيها على أن يدافع عنه ويلتمس له المعاذير ، فلقد تهيأ لى فى ذلك الوقت بالذات ، بفضل ما عثرت عليه من مخطوطات فى مكتبة جامع القرويين بفاس « وهى مكتبة ظلت إلى وقت كتابة هذه السطور مجهولة فى الغالب ، أن أكمل المراجع الأصلية التى ورد فيها ذكر السيد وأشير فيها إلى مليكه ألفونس السادس مالك قشتالة وليون الذى تعمد مننديث بيدال أن يؤخره عن مكانته فى الإطار الذى وضعه ، وقد كان من أثر بعض الوثائق التى أطلعتُ عليها العالم الأسبانى أن أدرك أن بعض نتائجه التى تتسم بضعف التماسك أو التى يرجع الأمر فيها إلى صمت كتب التاريخ المتأخرة عن التعرض لها، لا سند لها ، واضطر إلى أن يستأنف فى طبعتين أخريين من الكتاب إحداهما فى بوينس أيرس سنة ١٩٤٩ والأخرى فى مدريد سنة ١٩٤٧ النظر فى نواحى قضية قيلت فيها الكلمة النهائية فيما يبدو ؛ كذلك كان شأن الظروف التى اكتنفت استيلاء الفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ ، ومسألة الصداق الخيالى ، وقضية الشخصية الحقيقية لزايدة المسلمة ، وتسويغ العقاب الذى أنزله السيد بابن جحاف قاضى بلنسية إذ ألقى به فى النار .

كان ذلك إذن «هوى مع السيد» طغى على الدوائر العلمية الأسبانية فى الربع الثانى من القرن العشرين ، وهو وضع طبيعى لعودة الأمور إلى نصابها ، ونحن إذ نحاول أن نتبين المراحل الأساسية فى الحياة الصاخبة للقنبيطور لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن نغضى عنه كما لم يمكن أن نغضى عن مبالغات المدرسة التاريخية فى القرن التاسع عشر التى تذهب فى عكس هذا الاتجاه .

• • •

لعل من المجدى أن نحاول أولا تحديد المكان الذى يشغله القرن الحادى عشر من تاريخ شبه جزيرة أيبيريا فى العصور الوسطى بقدر ما نستطيع من الإيجاز . فقد شهد هذا القرن الذى يمثل فترة طويلة من الانتقال السياسى، للجانب الإسلامى والجانب المسيحى على السواء حشداً من الحوادث لم يروها المؤرخون فى كلا المعسكرين ، والحق يقال ، بأمانة تامة . كما شهدت السنوات الأولى لهذا القرن انتثار عقد الخلافة القرطبية فى جنوب شبه الجزيرة ، وسجلت الأعوام الأخيرة له حالة جديدة لم تكن فى الحسبان هى تدخل إفريقية الشمالية فى اقتصاد الإسلام الأندلسى

وإذا أرسلنا البصر إلى ما وراء الأراضى الإسلامية لنرى ما يقع إذ ذاك من أحداث ، رأينا كذلك نظاما جديداً يوضع فى الدويلات المسيحية بأسبانيا الشمالية ، فقد أخذت حركة الاسترداد تتسع

ويعظم شأنها ، ولا يتمثل ذلك فى ارتداد حدود الإسلام فحسب بل فى فرض الممالك الإسبانية سلطانها على الإمارات الإسلامية المجاورة . ثم حدث أن اضطرت هذه الحركة إلى التوقف فجأة قرب نهاية هذا القرن .

فالواقع أننا نشهد حتى قرب عام ١٠٥٠ ، الترنحات الأخيرة للخلافة القرطبية ثم انقسام الإمبراطورية الأموية إلى عدد من الدويلات المستقلة التى تنتظم فى صورة حسنة كانت أو سيئة ، فتحاول أن تعيش داخل نطاق محدود من الأراضى ، على ميزانية صغيرة . ولم يلبث بعض هذه الدول بطبيعة الحال أن ألقى زمام أموره إلى البعض الآخر . ولم تضم هذه الدول الأخيرة الدول الأولى إليها ببساطة ، ثم كانت بين الممالك القوية القليلة التى بقيت بعد فناء الأخرى معارك دائمة أو محالفات لم تلبث أن ألغيت بأسرع مما عقدت به ، وكانت الحالة السياسية لهذه الدويلات الإسلامية تتغير من سنة إلى أخرى ، فكان مدار الأمر على الريبة وطموح بعض الأمراء الذين كانوا يحلمون باسترجاع السيطرة القديمة على عهد الخلافة لمصلحتهم . وفى مثل تلك الحال ، لم يكن لأهل أسبانيا الشمالية غير الكسب الذى لم يعدموه قط : فقد عمدوا إلى إطالة هذا الاضطراب السياسى حتى يخرجوا منه بمغنم وفير ، وانتهى بهم الأمر بعدئذ ، تحت دفع بعض أمرائهم الأمجاد ذوى الهمة إلى التعرض للشئون الداخلية للدويلات الإسلامية دون أى تحفظ ، وإملاء شروطهم عليها ، حتى أفضى الأمر بها إلى دفع الجزية وهى صاغرة .

وفى الربع الأخير من القرن الحادى عشر أخذت الحوادث تجرى بسرعة وساء موقف الإسلام الأندلسى إلى درجة الخطورة ، ولم يبق لديه سوى وسيلة واحدة ليقوّم بها موقفه ، وهى الاستنجاد بإفريقية الشمالية أى المغرب . وكان الأمراء الأندلسيون الذين اشتركوا عن رضى عنهم أو كره فى توجيه هذا النداء ، يعلمون حق العلم أنهم يوقعون فى نفس الوقت قرار سقوطهم .

وفى أثناء تلك الفترة المليئة بالفوضى والاضطراب أخذت بعض الشخصيات البارزة تظهر فى جلاء ناصع على المسرح السياسى : وهى شخصيات لبعض أمراء المسلمين فى جنوب شبه الجزيرة ، نذكر منهم الملك الشاعر المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، ثم باديس وعبد الله من بنى زيرى فى غرناطة ، وظهر بصفة خاصة أمير المرابطين ، ابن تاشفين كما ظهر فى المعسكر الآخر شخصية ألفونس السادس ملك قشتالة وفاتح طليطلة والذى باء بعد ذلك بالهزيمة فى الزلاقة ، ثم تجلت بعد ذلك بقليل صورة السيد القنبيطور التى كللتها الأسطورة بالغار . وكان تاريخ بعض هؤلاء يتشابك بدون انقطاع مع تاريخ البعض الآخر ، فهو يؤلف وحدة لا يمكن فصمها ، وقد حان الوقت الذى يمكننا فيه أن ننقيه من شوائب الشكوك التى ظلت تحيط به .

ودراسة الظروف السياسية فى أسبانيا إبان القرن الحادى عشر لا سبيل إليها إذا نحن فصلنا التاريخ المسيحى عن التاريخ الإسلامى ، فهما جزآن

لشيء واحد ، ولا ينبغي كذلك أن تهمل تلك الدراسة حقيقة أساسية لم يوفها الباحثون حقها من الإبراز : هي دوام التداخل في العصور الوسطى بين شعوب شبه الجزيرة ؛ فلم يكن الإسباني المسلم وقتئذ أجنبيا أو مختلفا في شيء عن الأسباني المسيحي كما كان يخيل للبعض ، فقد كانت الإمارات الشمالية منذ عهد مبكر تضم بين رعاياها عدداً من المسلمين ؛ وكانت إسبانيا الإسلامية من جانبها تضم دائما في أراضيها نسبة عالية جداً من العناصر الأسبانية التي بقيت على دينها . والذين يتتبعون تطور التاريخ السياسي لشبه الجزيرة في العصر الوسيط الأعلى لايدرسون إلا ناحية جزئية جداً من ماضيه، فتاريخ تطوره الاجتماعي الذي ما يزال غير معروف لقلة الوثائق المتصلة به ، من شأنه أن يوضح ، لو أن لدينا الوسائل لمعالجته ، مشكلات ما فتئت غير واضحة إن لم تكن مظلمة غامضة .

وهناك تصور حديث يوشك أن يؤدي إلى تزييف إطار أسبانيا في العصور الوسطى ، وهو إطار يضم عناصر شتى ؛ نعني بذلك مسألة الحدود على نحو ما نفهمها اليوم أي تعوزها المرونة ، ويثبتها على الخريطة خط يدل من الناحية الجغرافية أحيانا على أنه صناعي . ففي العصور الوسطى وفي سائر المغرب الإسلامي، كانت الحدود الطبيعية فقط هي التي تؤلف الحد السياسي ، ولم تكن تلك الحدود تتخذ صورة خط جامد وإنما تتخذ شكل شريط يختلف اتساعه ، بحيث لا نستطيع الجزم بتبعيته لإحدى الدولتين اللتين يفصل بينهما . وقد

لعب هذا العامل الذى يتمثل فى وجود حدود غير ثابتة دوره فى كل لحظة من تاريخ أسبانيا فى القرن الحادى عشر ؛ فإن تعدد الدول كان من شأنه أن يزيد من مساحة مناطق الحدود هذه ، فكانت الدعاية اللبقة لدى السكان أجدى فى الغالب من التدخل المسلح . ويجدر بنا ونحن نتناول بالدراسة التقلبات التى اتسمت بها ملحمة السيد القنبيطور فى نطاق هذا التاريخ المشترك ، أن نضع نصب أعيننا هذه الطائفة من الظروف الخاصة .

• • •

لا نعرف شيئا كثيرا على وجه الدقة عن طفولته ، ففى عام ١٠٤٥ ولد ، على ما يحتمل ، رودريجو دياث Rodrigo Diaz فى بليدة فيفار على تسعة كيلومترات شمالى مدينة برغش ، وهو من المواضع المهجورة فى الهضبة القشتالية ، تكتنفه طبيعة قاسية لا نظير لها فى جلالها ، والحياة فى هذه البقاع قاسية على السكان الذين اعتادوا منذ حداثتهم أن يعيشوا عيشة معدومة اليسر ، مليئة بمظاهر الحرمان . وكان دييجو لاينيث Diego Lainez والد رودريجو من أسرة نبيلة فهو ينحدر من سلالة القاضى لاين كلفو Lain Calvo ، ويبدو أنه عاش فى عزلة ولم يكن على جانب كبير من الثراء ، يعيش فى أراضيه الفقيرة بفيفار . أما أم السيد التى لا نعرف اسمها فقد كانت تنحدر أيضا من سلالة نبيلة : فقد كان أبوها رودريجو ألفاريث سيدا كبير النفوذ ، يمتلك إقطاعيات فى وادى الدويره وقد اشترك فى ميعة شبابه مع دييجو لاينيث فى حملات ضد مملكة نافارة الغربية وذلك

لحساب ملك ليون ، فرناندو الأول ، ولكن يبدو أن والده قد توفى منذ عام ١٠٥٨ وكان وقتئذ غلاما يافعا . غير أن رودريجو وقد ورث ما خلفه أبوه ، وجد ترحيبا من الملك سانشو بن فرناندو الأول على عادة الملوك فى هذا العصر ، فضمه إليه ليكمل تثقيفه ، ولم يكن يكبره إلا ببضع سنوات ؛ ثم قلده السيف وخلع عليه شارة الفروسية وجعله فى حماه ، وقد اشترك السيد معه بعدئذ فى موقعة جراوس عام ١٠٦٣ وفيها انتصر جند قشتالة الذين جاءوا لمساعدة المقتدر بن هود ملك سرقسطة فى حربه مع الأرجونيين بمنطقة البرانس السفلى ، وقتل فى تلك المعركة راميرو الأول عم دون سانشو . وهكذا نرى أن السيد شهر سلاحه أول ما شهر ، وهو فى صفوف الجيش الإسلامى أثناء مدافعته الأسبان المسيحيين ، ولا يفوتنا أن نذكر أن ذلك كان أمرا مألوفا وقتئذ .

نحن نعلم كيف وزع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، الذى أضاف إلى تاريخ الاسترداد فى شبه الجزيرة الأيبيرية صفحات جليلة ، مُلكه فى آخر حياته بين أبنائه على نحو يدل على عدم التبصر فى الشئون السياسية ؛ فكان من نصيب أكبر أبنائه : حامى السيد ، مملكة قشتالة ، وكان لثانيهم الفونس السادس ، مملكة ليون ، ولثالثهم غرسية مملكة جليقية وأقطع ابنتيه أراكة وألبيرة الأديرة الغنية وكان من شأن هذه القسمة الجائرة أن أفضت إلى حرب من أجل وراثة الملك لم تلبث أن نشبت بين أبناء فرناندو عقيب وفاته سنة ١٠٦٥ فى ليون ،

فهاجم أكبرهم ، سانشو الثانى بادىء ذى بدء شقيقه ألفونس السادس ملك ليون عام ١٠٦٨ أملا فى أن يسترد ولايات إخوته إذ كان يرى أنها قد اغتصبت منه شخصيا ؛ ودارت فى سهول ليانتادا فى ١٦ يوليو سنة ١٠٦٩ رحى معركة انتهت على وجه غامض ، وبعد ذلك بعامين تمكن سانشو من أن يزيل أخاه غرسية ملك جليقية عن عرشه ، ولم يلبث أن تحول إلى ألفونس السادس وهزمه فى معركة جلبخيرة غير بعيد من حصن قريون دى لوس كونديس ، ثم اقتاده أسيرا إلى برغش ، وتوسطت له أخته أرّاكة ، فبعث به بعد ذلك بقليل منفيا إلى طليطلة فى بلاط المأمون بن ذى النون ، وكان إذ ذاك يعطى الجزية لسانشو الثانى ؛ والظاهر أن السيد لم يكن سلبيا أثناء هـذا الصراع القائم بين ابنى فرناندو الأول ، إذ لم يلبث أن صار فارس الملك القشتالى أى حامل لوائه وقائد جيوشه على نحو ما . وفى هذه الأثناء واتته الفرصة لإظهار مواهبه إذ صارع فارسا من أبناء نافارة نصرعه ، ولعل ذلك خوّله لقب القنبيطور Campeador . على أن هذا التأويل بعيد ، فلفظ Campeador ليس معناه البطل ، وإنما معناه على التحقيق « قائد الغارات فى السهول » . ويفسر المؤرخون العرب فى العصور الوسطى هذا اللقب الذى يقابله فى اللغة اللاتينية لفظ Campidoctus « بصاحب الفحص » ، ولعله أطلق منذ ذلك الحين على الخبير بالغزوات فى أرض الأعداء .

ومهما يكن من أمر ، فى تلك الحقبة تنسب إلى القنبيطور أمور

كثيرة يبدو أنه فرضها على راعيه سانشو الثانى : فبإلحاحه ، انقلبت معركة جلبخيرة التى تفوق فيها ألفونس السادس بادئ الأمر وسرح فرسانه من أبناء ليون ، إلى نكبة أصيب بها فى اليوم التالى ، فقد مضى عنه أعوانه ، طوعاً لثقته العمياء بكلمة أخيه ، ومن هنا كان الاتهام الشنيع الذى ألصق بالسيد ، بحيث راح المحامون عنه من المحدثين يحطمونه أو يقللون من شأنه ، وسبيلهم إلى ذلك حجج لم يتهيأ لسوء الحظ أن تكون دامغة مقنعة .

ونعلم ما تلا ذلك من أحداث : فبعد أن قضى ألفونس السادس تسعة أشهر فى طليطلة مدينة الإسلام منفيا ، ينعم برغد العيش ، وجد نفسه بين عشية وضحاها وقد رد إليه عرشه الذى أخذه منه أخوه سانشو الثانى غصبا ، ثم انتهى إليه ميراث الملك . فقد دبرت ثورة على سانشو الثانى من أخته أراكة يؤازرها پدرو أنسوريث وهو شيخ كان يؤدب ألفونس السادس . واضطر سانشو فى سبيل إنقاذ الموقف إلى المجىء بنفسه ، وحاصر مركز الثورة فى حصن سمُّورة ، وبذل المحاصرون بعد أن وهنت قواهم غاية جهدهم : وخرج أحدهم وهو بيبدو أدولفو ، وكان فارسا باسلا ، من الموقع المحصور وأوغل فى محلة المحاصرين ، واستطاع أن يفاجىء الملك سانشو الثانى بطعنة من رمحه أردته قتيلا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٠٧٢ ، ففقد بموته رودريجو دياث سيده وراعيه فى ضربة من ضربات القدر ، وكان قد اشترك فى حصار سمورة . وتعزو الأسطورة المتأخرة له دورا فى هذا المصرع الدامى ،

فقد روى أنه امتطى جواده ورمحه فى قبضته وانطلق فى أثر القاتل ، الذى استطاع أن يفلت من القصاص فقد أغلق باب سمورة بعد أن دخلها .

ولم يجد القنبيطور بدأ من الرضوخ أمام الشعور الذى أجمع عليه نبلاء قشتالة الآخرون ، فقد قرروا أن يعهدوا بمصير المملكة إلى ألفونس السادس المنفى فى طليطلة ، ولعلهم لم يتخذوا هذا القرار الوحيد الذى أملته عليهم الظروف إلا على الرغم منهم ، فمع أن شعر الملاحم المتأخر قد نسج من هذه الحادثة سلسلة من الأقاصيص الخيالية التى لا تستطيع الصمود أمام النقد العلمى إلا أنه يكاد يكون من المحقق أن طبقة النبلاء فى قشتالة طلبت من عاهلها الجديد أن يحلف أمامها اليمين بأنه لا يد له فى مؤامرة سمورة وأنه برىء من دم سانشو الثانى ، واضطر ألفونس السادس إلى النزول على إرادتهم مع ما فيها من شطط : ففى آخر عام ١٠٧٢ رضى أن يحلف اليمين فى كنيسة سانتا جاديا ببرغش على براءته التامة ؛ وتشاء الرواية أن تجعل من رودريجو دياث رئيسا لهذا الحفل ، فيتلق نيابة عن نبلاء قشتالة المجتمعين فى الكنيسة ، القسم المهين لألفونس السادس الذى لم يغفر له قط هذا الدليل الجارح على انعدام الثقة فيه ، والظاهر مع ذلك أن كراهية ملك قشتالة وليون الجديد للقنبيطور لم تكن ترجع إلى ذلك العهد ، فقد كان القنبيطور فى هذه الأثناء أحد المقربين من رجال الحاشية ، بل عهد إليه الملك فى بعض المنازعات أن يتولى الدعوى نيابة عن رئيس دير

كاردانيا ، ولكن السيد فقد لقبه كفارس ملكى ، وصار بدرو أنسوريث المؤدب القديم للملك وغرسية أردونييث Garcia Ordonez الشاب القشتالى النبيل الذى صار منذ ذلك الحين المنافس العنيد لرودريجو دياث ، هما أكثر المستشارين قربا إلى نفسه .

ومع ذلك فقد أظهر ملك قشتالة للسيد بعد ذلك بقليل دليلا قاطعاً على تقديره له عندما عمد إلى البحث له عن زواج شريف تحقيقا لإحدى واجبات الملك الأساسية حيال تابعه ، فقد زوجه فتاة من أكثر طبقة نبلاء أشتورية نقاء هى دنيا خيمينا دياث ابنة دييجو رودريجيث قمط مدينة أوفييدو . فإن هذه الحفيدة الصغرى لألفونس الخامس ملك ليون كانت ابنة عم الملك الجالس على العرش ، وقد أهدى القنبيطور خطيبته ـ جريا على عادات العصر ـ أراضى من أملاكه بقشتالة ؛ وسجل هذه الهبة محفوظ ، تاريخه ١٩ يوليو ١٠٧٤ ، وهو دون شك نفس اليوم الذى احتفل فيه بزواج السيد من خيمينا ، وكان ألفونس السادس يرى أن هذا الزواج سيكون له أثره فى إقامة الصلح بين طبقة الأشراف فى قشتالة وطبقة الأشراف فى ليون ، وبينهما عداوة منذ حوادث سمورة . والظاهر أنه ، تمكيناً لهذا الصلح ، دعا ألفونس السادس السيد بعد زواجه مباشرة لمرافقته فى حجه إلى أوفييدو التى كانت تضم وقتئذ أجل مكان دينى فى إسبانيا بعد كنيسة شنت يعقوب بجليقية ، يتمثل فى كاتدرائية سان سلفادور ، وظل البلاط القشتالى أشهراً كثيرة فى المدينة الأشتورية ، ولم يعد إلى برغش إلا بعد عيد الصوم الكبير عام ١٠٧٥ .

وكانت السنون التى تلت ذلك بالنسبة لألفونس السادس تعج بالمشاحنات مع البابا جريجوار السابع على أثر النفوذ الذى فرضته عليه زوجته الجديدة «الكونتيسة» الفرنسية كونستانس ابنة روبير دى بورجنى، ثم نفوذ رهبان كلونى الذين أحضرتهم معها إلى إسبانيا فى حاشيتها. وقد أدى ذلك كما نعرف، إلى استبدال الطقوس الرومانية فى جميع أنحاء مملكة ألفونس السادس بطقوس طليطلة القديمة وتعرف أيضا بالطقوس القوطية أو طقوس المستعربين. ولم يلبث ألفونس أن صرف همته إلى الرسالة التقليدية التى مضى عليها أسلافه وهى استئناف حركة الاسترداد القومى ومحاربة الإسلام الإسبانى.

وأهم الدول الإسلامية التى كانت تؤدى الجزية وتتخذ لبلاط برغش بمقتضى معاهدة قديمة هما مملكة طليطلة ومملكة إشبيلية، فكانت تفد على هاتين الحاضرتين الإسلاميتين كل عام سفارة قشتالية أو ليونية لتتلقى منهما الجزية، ولعل ألفونس السادس قد عهد فى نهاية عام ١٠٧٩ إلى السيد برئاسة الوفد الذى توجه إلى المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وذلك على الرغم من أننا لا نجد ذكراً لهذه السفارة فى كتب التاريخ العربية، وكان من شأن الدور الذى قام به القنبيطور فى هذه المناسبة أن يؤثر تأثيراً خطيراً فى اتجاه نشاطه فيما بعد وفى علاقاته مع مولاه الملك ألفونس السادس، فعندما وصل الوفد القشتالى إلى إشبيلية كان المعتمد فى حرب صريحة مع عبد الله الزيرى ملك غرناطة الذى عثرت على مذكراته القيمة فى فترات متعاقبة خلال سنوات

عديدة وزرجتها ؛ وكان هذا الأمير أيضاً قد رضى قبل ذلك بقليل ، بأن يدفع الجزية لملك قشتالة ، وعقد معه - كما يتبين ذلك من كتابه - علاقات سياسية ، وكان جيش ملك غرناطة يضم فى ذلك الحين نسبة كبيرة من جند قشتالة ، ولعل ألفونس السادس وضعهم تحت تصرفه رغبة فى إقامة توازن بين الجيوش الإسلامية المتعادية فى جنوب شبه الجزيرة ، وفى الحد من أطماع ملك إشبيلية ، وكان يرنو إلى توسيع رقعة ملكه ، ومن هنا اشتمل جيش ملك غرناطة على ممثلين لطبقة النبلاء بقشتالة ، وكان منهم الكونت غرسية أوردونيث نفسه ، خصم السيد . وما إن وجد رودريجو دياث نفسه فى إشبيلية يحيط به جو الحرب من كل جانب حتى خاطر بالمساهمة شخصياً مع قوته الصغيرة فى الدفاع عن مملكة إشبيلية بحجة أن صاحبها مشمول بحماية ملك قشتالة، وعلى هذا نشبت معركة قرب قبرة اشترك فيها فرسان مسيحيون وطنيون ، فريق فى جيش ملك غرناطة وفريق فى جيش ملك إشبيلية، تغذيهم أحقاد شخصية دفينة ، وقد هزم جيش غرناطة ، وأسر جيش إشبيلية بفضل بلاء السيد وبطانته من الفرسان ، عدداً كبيراً من نبلاء النصارى ومن بينهم فارس ألفونس السادس نفسه غرسية أوردونيث . وكان لابد له هو ومن معه أن ينتظروا ثلاثة أيام قبل أن يفك القنبيطور أسرهم ويستأنفوا طريقهم إلى برغش وقد لحقهم الذل الشديد .

أما السيد فقد عاد سنة ١٠٨٠ إلى عاصمة قشتالة بعد أن أتم مهمته وجبى الجزية من ملك إشبيلية .

ولم يكن غرسية أوردونيث بالذى يرضى بأن تقف الأمور عند هذا الحد بطبيعة الحال ، فقد أذكى منــــذ ذلك الوقت حملة من الدسائس ضد رودريجو دياث ، وضم كثيراً من المناصرين له ، ولم يلبث البلاط القشتالى بأجمعه ان أفصح عن شعوره العدائى حيال القنبيطور ذى الهمة البعيدة ، ولم يستطع الملك نفسه أن يصم أذنيه أكثر من هذا عن تحريض بطانته له على السيد ، ولكن كان لابد له من ذريعة يلتمسها لينكر على تابعه مسلكه ، ولم يلبث أن واتته الفرصة لتحقيق مآربه ، فبينما كان ألفونس السادس مشغولا عند الحدود الجنوبية لقشتالة وقد بدأ حملته على مملكة طليطلة ، نمى إلى السيد وكان قد بقى فى برغش ، نبأ هجوم موفق شنه فريق من المسلمين على حصن غرماج الواقع على خط نهر الدويره ، فقام من تلقاء نفسه بهجوم مضاد دون أن يرجع إلى الملك ، إذ أغار بمئات من الفرسان على أطراف مملكة طليطلة ، وعاد ومعه غنائم كثيرة وآلاف من الأسرى ، وقد صور نبلاء قشتالة للملك مبلغ ما فى مسلك السيد من إفراط تجاوز الحد ، وكان السيد يظن أنه لا حاجة له إلى تفويض من الملك ليظفر بانتصاره ، وأذعن ألفونس السادس لقولهم ، وأبلغ رودريجو دياث فى عام ١٨٠١ أنه منفى من بلاده .

• • •

كانت هذه بداية أوديسة القنبيطور الخاصة به ، وقد أفضى هذا النفى بطبيعة الحال إلى أساطير وروايات قصصية بعيدة عن الحقيقة ،

ولم يبق سوى أن هذا النفى كان نقطة التحول الهامة فى حياة البطل القشتالى ، والحكم بنفى النبلاء كان أمراً شائعاً فى بلاط النصارى بشبه الجزيرة وبقية بلاد أوربا الغربية ، وهو يقترن بإخراج مسرحى حقيق ، وتسريح النفى فى نظام ودقة ، يحتفظ المنفى ببعض الحقوق التى لا يمكن تجريده منها ، فلا تصادر أراضيه إذا لم يكن قد اقترف جريمة تتعلق بالشرف ، وله الحق فى أن يصطحب معه فى منفاه ذوى قرباه وحشمه بالمعنى الواسع لهذا اللفظ أى بما فى ذلك جنده وفرسانه ، الذين يتولى تلقيبهم ، ويظلون على وفائهم له مهما حدث له . وهكذا اتخذ رودريجو دياث طريقه نحو الشرق ، بعد طرده من قشتالة على رأس فرقة تضم ثلثمائة فارس تقريباً ليظفر «بلقمة العيش» فى أرض غريبة على حد تعبير القانون العرفى القديم . اتجه أولا إلى برشلونة ليعرض فيها خدماته على الكونت رامون بيرنجر ، فلم يجد منه ترحيباً ، فمضى القنبيطور إلى ملك سرقسطة المسلم الذى استقبله بأحسن مما فعل الأول ، ولم يكن خيراً عند هذا الملك ـ وهو أحمد المقتدر ـ من أن يظفر بهذا العون الهام من الجنود المرتزقة الذين تشلهم القوة المرافقة للكونت المنفى ، ولكن المقتدر مات فى هذا العام بعد أن قسم أملاكه بين ولديه : فكان نصيب المؤتمن مدينة سرقسطة وما اتصل بها ، وورث المنذر دانية وطرطوشة ولاردة ، ثم لم يلبث الأخوان أن تحاربا ، واستمر القنبيطور فى خدمة الأكبر وانحاز الثانى إلى سانشو راميريث ملك أرغون ورامون بيرنجر الثانى كونت برشلونة ، ووجد

رودريجو دياث نفسه منذ ذلك الحين مضطراً إلى محاربة الأرجونيين والقطالانيين فى آن واحد لحساب ملك سرقسطة المسلم ، ولكنه استطاع بالرغم من التفوق العددى لهؤلاء أن ينتصر عليهم انتصاراً باهراً بالقرب من حصن المنار على مسافة قصيرة شمال غربى لاردة . وظفر بغنيمة عظيمة وأسر كونت برشلونة ، ولكنه لم يتردد فى أن يرد إليه حريته وكان كريماً معه . ثم دخل سرقسطة واستقبل فيها استقبال الظافر وأغدق عليه ملكها الهدايا وخلع عليه مراتب الشرف، واستطاع بهذا النجاح أن يظفر بمكانة ونفوذ بين جنود المؤتمن على نحو لا نظير له ، ولعله فى هذه الحقبة ، أخذ يطلق عليه لقب « سيدى » بكسر السين وإسكان الياء ، وهو صورة أندلسية للفظ سَيِّدى فى الفصحى بمعنى مولاى، ونقلت إلى الإسبانية فأصبحت ميو سيد Mio Cid وصار هذا اللقب الذى أظفرته به مواهبه العسكرية علماً عليه ، على أننا لا نجد له ذكراً لا فى المصنفات التاريخية القشتالية القديمة ولا فى المصنفات العربية ، وإنما نجده فى هذه مذكوراً بلقبه الآخر وهو القنبيطور .

ولم يكن ألفونس السادس بالذى يتغاضى عن النجاح الذى أصابه هذا الذى نفاه من بلاده لعهد قريب وذلك لحساب مملكة إسلامية عدوة له . وحاول أن يرد على هذا فأرسل جيشاً ليحتل حصن روطة تلبية لرغبة حاكمه ، وهو حصن هام من أملاك المؤتمن يبعد خمسة وثلاثين كيلو

متراً من سرقسطة على ضفة نهر شلون ، ولكن ذلك لم يكن سوى شرك أعد له ، إذ قتل جميع قواده الذين أرسلهم هناك ، ولما علم السيد بهذه المكيدة خشى أن يقحمه فى هذه المشكلة أعداؤه فى بلاط قشتالة الذين لم يلقوا سلاحهم بعد ، فسارع تبرئة لنفسه بالحضور إلى معسكر ألفونس السادس الذى قدم هناك على عجل ، لكن ملك قشتالة استقبله بفتور شديد ، فلم تكن ساعة الصلح قد دقت بعد ، وعاد السيد إلى سرقسطة واستمر فى شن حملاته الظافرة من أجل مليكها ، فهاجم موريليا وهزم ملك أرغون وأسر عدداً كبيراً من نبلائها فى أغسطس عام ١٠٨٤ ، وبقى فى سرقسطة إلى عام ١٠٨٦ على أقل تقدير . ولكن تعوزنا التفاصيل عن نشاطه الذى استطاع أن يقوم به فى هذه الأثناء ، غير أن شهرة ألفونس السادس كانت قد حجبت شهرته تماماً ، ففى ٦ مايو سنة ١٠٨٥ دخل ألفونس السادس طليطلة وانتزعها هى وماحولها من سلطان الإسلام .

ومات المؤتمن ملك سرقسطة فى نفس هذا الوقت وانتقل السيد إلى خدمة ابنه وخليفته أحمد المستعين ، ومنذ اعتلى العرش ، والسيد يفكر فى الاستيلاء على بلنسية ليضمها إلى ملك المستعين .

وإمارة بلنسية المستقلة التى أسسها عبد العزيز حفيد المنصور بن أبى عامر ، الدكتاتور الشهير ، على أثر سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ضمت إلى مملكة طليطلة عام ١٠٦٥ ، ولما استقر القادر فى عرش طليطلة عاصمة القوط القديمة سنة ١٠٧٤ بعد وفاة جده المأمون ، لم يلبث أن

سلبه بلنسية حاكمها الذى كان يمثله . واستمرت هذه الأحوال أكثر من عشرة أعوام تكفل بعدها ألفونس السادس ملك قشتالة ، وكان يستغل كل تدخل ممكن فى الخصومات التى تنشأ بين المسلمين، بأن يعيد إلى القادر بلنسية عاصمة شرق الأندلس ، فى مقابل حصوله هو على مدينة طليطلة نفسها ، وقد سلمت إليه فى ١٠٨٥ فكان عند وعده . واستطاع بمساعدة فرقة من الجيش القشتالى تحت قيادة الجنرال ألفار هانييث (البرهانس) أن يدخل مدينة بلنسية بدون قتال ، ولكن سرعان ما أصبح مكروها لدى رعاياه فى عاصمته الجديدة ، غير أن وجود ألفار هانييث إلى جانبه مكنه من البقاء . ولكن فى سنة ١٠٨٦ ، نزل المرابطون إسبانيا قبيل وقوع معركة الزلاقة مباشرة ، فدعا ألفونس السادس ألفار هانييث إليه من بلنسية ، وانتهز المنذر صاحب لاردة هذه الفرصة فهاجم القادر ، الذى استنجد عندئذ بملك قشتالة وبملك سرقسطة فى الوقت ذاته ، ورأى ملك سرقسطة أن الفرصة سانحة ليجرد ملك بلنسية من إمارته فعقد اتفاقاً مع السيد ، تؤول إليه بمقتضاه الأسلاب والغنائم التى يظفر بها فى الحملة .

فهل شعر رودريجو دياث بغضاضة من محاربته القادر وهو فى حمى ألفونس السادس وكان أشد أمراء المسلمين خضوعاً له ؟ لاشك أنه لم يصم أذنيه دائماً عن توسلات القادر ، فقد كان يرجوه ، وهو يمنيه بالهدايا الثمينة ، ألا يهاجمه ، ولعل السيد قد أحس بأنه إذ يحمى هذا الذى يتمتع برعاية ملك قشتالة إنما يمهد السبيل إلى صلح اشتدت

رغبته فيه بعد أن انضمت إلى ألفونس السادس طبقة النبلاء فى قشتالة بأسرها وذلك بفضل بلائه فى مدافعة الإسلام ، وبفضل الجهود التى بذلها فى تأليف جبهة موحدة حيال خطر المرابطين الجاثم ، لكن هذه الجهود ذهبت كما نعلم أدراج الرياح ، ففى ١٢ أكتوبر سنة ١٠٨٦ هزمت جيوش المرابطين والأندلسيين بقيادة الأمير يوسف بن تاشفين جيوش ألفونس السادس هزيمة نكراء فى الزلاقة غير بعيد من بطليوس ، ولم يسع ملك قشتالة من جانبه بعد الهزيمة التى نزلت به فى الزلاقة إلا أن يغير من شعوره نحو السيد ، وقد حانت الفرصة ليعود هذا القائد المقدام الذى استطاع أن يظفر بما ظفر به فى منفاه، إلى الجماعة . ولعل ذلك الصلح تم فى ربيع عام ١٠٨٧ بطليلة وقد قصدها بنفسه واستقبل فيها بأعظم مظاهر التشريف ومنح الهبات السنية كحصن دوينياس وغرماج وبريفيسكا ، وقد قضى عاماً كاملا فى بلاط مليكه ، ثم عاد بموافقة ألفونس إلى شمال شرق شبه الجزيرة على رأس جيش قشتالى حقيقى ليرفع راية المسيحية فى أرض الإسلام، ومنذ ذلك الحين ارتفع شأنه وتحدث الناس بحظه السياسى والعسكرى، أما صلحه مع ملك قشتالة فكان إلى حين .

• • •

انتهز ملك سرقسطة غياب السيد ، فعقد حلفاً مع كونت برشلونة القطالانى ، عدوه القديم الذى كان يحاصر بلنسية . . . غير أن

رامون بيرنجر الثانى انسحب أمام السيد الذى وعد القادر بأن يحميه من كل عدوان عليه ، وذلك مقابل جزية خاصة ، كان ذلك العهد الذى جاز فيه الأمير يوسف بن تاشفين الزقاق للمرة الثانية لمحاصرة حصن أليطة المسيحى غير بعيد من مرسية ، واهتم ألفونس السادس إذ ذاك بجمع جيش كبير ليدفع الهجوم الذى قد يشنه المرابطون فى القريب العاجل . واستدعى السيد لهذا الغرض ، ولكنه أصم أذنيه عن نداء مولاه ، أوعلى الأقل تمهل قليلا فى إجابته ، ثم كان ذلك من جديد مصدراً للقطيعة التى تعمدها السيد هذه المرة ، وشرع السيد من ذلك العصر فى إبداء فيض من النشاط لحسابه الخاص ، وبعد أن أصبح فى الحقيقة سيدا له مطلق الحرية ، أخذ يعيث فساداً منذ ١٠٩١ فى سائر المنطقة الشرقية من أوريولة إلى شاطبة وسار نحو طرطوشة وتحدى كونت برشلونة ، وعقد معه معاهدة شخصية ، ولم يلبث أمير طرطوشة المسلم ، بعد ذلك بقليل ، أن طلب حمايته مقابل ضريبة ، وصار السيد شيئاً فشيئاً ذا ثراء عريض ، وسرعان ما دفع له الضريبة بالفعل جميع أمراء المسلمين الصغار الذين استطاعوا حتى ذلك الوقت أن يحتفظوا بإماراتهم فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة . وهم أمراء بنى رزين والبونت ومربيطر وشبرب وشارقة والمنارة .

وأخذت العداوة الجديدة بين ألفونس والسيد مع ذلك فى الازدياد ، واستقر عزم ملك قشتالة على أن ينتزع من السيد بلنسية حتى يضع حداً لنفوذ تابعه القوى الذى تجاوز كل حد ، فعقد حلفاً مع أهل

بيزة وجنوة وحاصر المدينة من البر وحاصرتها الأساطيل من البحر . وكان السيد فى تلك الأثناء مشغولا بمؤازرة ملك سرقسطة بقواته فى حربه مع ملك أرغون المسيحى ، فلما نمى إليه ما حدث ، عزم على اتخاذ إجراء غاية فى الشدة ، فغادر سرقسطة مع جيشه وراح ينشر الدمار فى أراضى قشتالة نفسها وذلك فى ولاية ناجرة وقلهرة ، وكانت من أملاك الكونت غرسية أوردنيث عدوه اللدود . وأتى السيد على مدينة لوجرونيو فى لاريوخا وجعل عاليها سافلها ، ولما اتصل بألفونس السادس ما حدث فى هذا الجزء من مملكته اضطر إلى رفع الحصار عن بلنسية دون أن يظفر بأى نتيجة وعاد إلى قشتالة بينما وجد السيد كعادته ملجأ له فى مملكة سرقسطة الإسلامية . وإذا كانت المصادر اللاتينية والقشتالية هى المرجع الذى يمكن الوقوف منه على تتابع الحوادث فيما يتعلق بنشاط السيد قريبا من سنة ١٠٩٠ ، فمنذ هذه اللحظة نرى أن الوثائق العربية هى التى تلقى أكبر الضوء على تطور حياة القنبيطور ، سواء أكانت هذه الوثائق فى صورتها الأصلية أم فى النقول المتأخرة الواردة فى المدونة التاريخية الإسبانية الأولى .

وكان السيد قد اعتاد أثناء تنقلاته العديدة أن يترك ببلنسية ممثلا مباشرا له هو رجل مسلم شديد الإخلاص لقضيته اسمه ابن الفرج ، ظل إلى جانب المقتدر ، لكن أمر المقتدر انتهى فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ أثناء غياب السيد ، إذ قضى عليه أهل بلنسية بالموت بعد أن اشتد حنقهم عليه وقد أرهقهم بمطالبه المالية الدائمة . ووكل أهل بلنسية مصير

مدينتهم إلى عدة أفراد من كبار مواطنيهم ، أهمهم قاضي المدينة جعفر ابن جحّاف الذى لم يلبث وقد أسكرته شهوة السلطان أن راودته فكرة الظهور بمظهر الملك الحقيقى ، فدعا إلى بلنسية فرقة صغيرة من المرابطين ووكل إليها أمر حراسة المدينة من أى هجوم يمكن السيد أن يقوم به ، وكان لتوقعه ما يبرره ، ولكن العون الذى كان ينتظره من المرابطين لم يلبث أن ظهر عدم جدواه . ولم تمض على ذلك بضعة أشهر حتى زحف السيد على بلنسية بجيشه كله فى يوليو سنة ١٠٩٣ ، واستولى دون مقاومة على ربضى فيلا نوبيا والكدية وهزم جيشا للمرابطين بموقعة كوارتى فى أرباض بلنسية ، وكان هذا الجيش قد أقبل من دانية ليخلص المدينة ، ثم شدد السيد الحصار على المدينة نفسها ، ومنذ ذلك الحين تحملت بلنسية أسوأ ما يمكن أن تتحمله مدينة من الحرمان ، وسرعان ما أفنت المجاعة عدداً هائلا من سكانها ، واضطر القاضى ابن جحاف حاكم هذه الدويلة البلنسية وقد تعجل الحوادث ، أن يسلم المدينة إلى السيد فدخلها فى ١٥ يونيو سنة ١٠٩٤ .

ولم يسىء القنبيطور قط إلى مسلمى بلنسية إذ كان يعرفهم حق المعرفة من قبل ، وأعلنوا له ولاءهم وذلك بخضوعهم المطلق له ، وفى المدونة الأولى للتاريخ العام أنه خطب فيهم عند استيلائه على بلنسية ، وهناك ما يدل على صحة هذه الخطبة ونحن ننقل فيما يلى بدايتها : « إنى رجل لم يكن لى مُلك قط ، ولم يكن كذلك لأحد من قومى ، ولكن منذ اليوم الذى رأيت فيه هذه المدينة ، وجدتها تطيب لى ، ورغبته

فيها وسألت الله أن يجعلني سيدها ، فانظروا إلى قدرة الله .. الذى أنعم على بأن وهبنى بلنسية ، وإن حكمت بالعدل وأحسنت تصريف الأمور فسيتركها الله لى ، أما إن تجبرت وأسأت فسيستردها منى ، فليرجع كل إلى ماله ويتملكه كما كان يتملكه من قبل ، فمن وجد كرمه أو جنته خالصة فليعد إليه ، ومن وجد حقله مزروعا فليدفع أجر زارعه ويمتلكه كما تأمر الشريعة الإسلامية ، ولا يأخذن جباة الضرائب فى المدينة أكثر من العشر كما جرى عليه العمل . وقد هيأت نفسى لأسمع الشكاوى يومين من كل أسبوع هما الاثنين والخميس ولكن من كانت لديه قضية عادلة فليأت متى شاء وسأستمع إليه ، فإنى لا أحتجب عنكم ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما يفعل أولو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم ، وأود أن أعالج جميع أموركم بنفسى ، وأن أكون لكم رفيقاً ، وأدافع عنكم كما يدافع الصديق عن صديقه والقريب عن قريبه ؛ وسأكون قاضيكم ووزيركم ، وإن شكا أحدكم من آخر أنصفته منه » .

وسواء أخلص السيد فى هذه الوعود أو لم يخلص فإنه لم يغفر لوجوه بلنسية ما فعلوه ، حيث دبروا مقتل القادر المشمول بحمايته ، وطرحت جثته ، بعد أن حز رأسه ، فى سبخة . وكان القاضى ابن جحاف هو المسؤول الأول فى نظر السيد عن مقتل القادر ، وراح السيد يطالبه برد أموال القادر دون تأخير ، ليقينه بأنه احتجزها لنفسه واستولى عليها ؛ واستحال على القاضى أن يبرىء نفسه أمام السيد

الذى كان يعده خائناً ولصاً فى آن واحد مما دعاه إلى أن يحكم عليه بالحرق حيا ، وأنزل هذا العقاب بكثير من أهل بلنسية فى شهر مايو سنة ١٠٩٥ ؛ ومما لا شك فيه أن أهل بلنسية حاولوا إضرام نيران الثورة وقتئذ ، إلا أن السيد استطاع القضاء عليها سريعاً وهى فى مهدها .

لقد رأى بعض المؤرخين فى العقاب الشديد الذى ناله ابن جحاف وغيره من كبراء بلنسية دليلا على قسوة السيد البالغة ، هذا مما لا شك فيه ؛ لكن لا ينبغى التغاضى عن مغالاة كتب التاريخ العربى ، وننسى مع ذلك أن الشعور بالإنسانية فى ذلك الوقت لم يكن له كبير وزن فى كلا المعسكرين المتضادين بشبه جزيرة أيبيريا ، ومع ذلك فإن الرغبة فى تبرير الحكم الذى نطق به السيد ، وتبرير ما أمر به من عقاب يتنافى مع الإنسانية كما حاول أن يفعل مننديث بيدال ، مما لا سبيل إليه بطبيعة الحال .

وهكذا أصبح السّيد السّيد المطلق فى بلنسية لا سلطان لأحد عليه ، وكان إذ ذاك قد نيف على الخمسين ، فجعل من المدينة الإسلامية مقره العسكرى وتصرف كما يتصرف الملوك المتوجون ، ثم أراد أن يستريح بعض الشىء فدعا إليه زوجته خيمينا وأبناءه الثلاثة الذين أنجبهم منها قبل نفيه ، أى قبل ذلك بثلاثة عشر عاما : وهم ديجو (مات عام ١٠٩٧ فى زهرة شبابه على أثر الهزيمة التى أنزلها المرابطون بجند قشتالة فى قنيشرة) وفتاتان هما كريستينا وماريا ، تزوجت الأولى

بعد ذلك بأعوام الأمير راميرو دى نافارة ، وتزوجت الثانية رامون بيرنجر الثالث كونت برشلونة وكان تزويجهما يمثل الغاية التى انتهت إليها حياة السيد الموفقة ، بل يدل على أن الآلام التى عاناها فى حياته كثرت أو قلت لم يعد لها وجود منذ استيلائه على بلنسية .

ولم يستطع المرابطون ، على الرغم من الاتساع الذى انتهى إليه سلطانهم فى إسبانيا أن يستولوا على بلنسية ما بقى فيها السيد . وقد قضى القنبيطور السنوات الأخيرة من حياته فى توسيع رقعة ممتلكاته بشكل ملحوظ ، ولم يعرف الفشل لأول مرة إلا فى أواخر حياته ، وقد خطب وده بعض الأمراء المسيحيين فى شمال إسبانيا ، وكذلك بدرو صاحب أرغون ، واشترك معه السيد سنة ١٠٩٤ فى حملة ضد المرابطين فى منطقة شاطبة ، وهزم المسلمين فى بايرين بالقرب من جانديا وساعد كذلك الأمير الأرغونى على إخماد ثورة اشتعلت فى مقره بحصن منتورنيس .

وانصرف السيد فى الوقت ذاته إلى بلنسية نفسها : فحول مسجدها الجامع إلى كاتدرائية تحمل اسم سانتا ماريا ، وعهد بإدارة أسقفية بلنسية إلى راهب فرنسى اسمه چيروم دى بيريجورد استدعاه أسقف طليطلة برناردى سيديراك إلى إسبانيا ، وفى تلك الحقبة أيضاً على وجه التقريب تقرر زواج ابنتى السيد وخيمينا ، وتم الاحتفال بزفافهما فى يوم واحد حسب التقاليد ، وأحيط السيد فى بلنسية بحياة ملكية اختلطت فيها البساطة القشتالية بالترف والرقة التى تتسم بها الأعياد

التي يشاد بذكرها فى الروايات الأندلسية ، ومما يتجه إليه الظن أن السيد لا بد أن يكون قد تعرّب على الأقل فيما يختص بالمظاهر الخارجية لسلطانه شأنه فى ذلك شأن كثير من أمراء إسبانيا النصرانية لذلك العهد ، وعلى الأخص بدرو الأرغونى الذى كان يوقع رسائله بالعربية ، ومن المرجح جداً أن السيد كان يتكلم العربية بطلاقة فى حفلات القصر ببلنسية ، وأن الشعراء المسلمين والمسيحيين كانوا يتنافسون بين يديه ، كل بلغته ، فى إنشاد أشعارهم التى يتغنون فيها بالحب العذرى .

* * *

والتفاصيل الخاصة بالفترة الأخيرة من حياة السيد قليلة للغاية ، فليس لدينا من الحقائق ما يجعلنا نؤكد أن الصلح النهائى قد عقد بين ألفونس السادس وتابعه السابق ، الذي أصبح فى الحقيقة مستقلا تمام الاستقلال ، وقد تلاحقت النكبات التى حاقت بجيوش قشتالة . وفى سنة ١٠٩٧ فجع السيد بوفاة ابنه الوحيد دييجو إذ قتل فى معركة مع المرابطين ، وكان كل همهم منذ تلك اللحظة استرجاع بلنسية وراحوا يعدون العدة للأخذ بثأرهم وأنزلوا بالقائد ألفار هانيث فى كونكة هزيمة منكرة ، وبعد ذلك بقليل أنزلوا الهزيمة على مقربة من جزيرة شقر بجيش أرسله السيد إليهم ليثبت لهم بسالة جنده . وكانت هذه المرة الأولى التى أبى الحظ أن يبتسم له فيها ، على أنه استطاع

بعد ذلك بعدة شهور أن يثأر إلى حد ما، فقد أملاكه نحو الشمال واستولى على حصن سجنت القديم وحصن المنارة فى مربيطر. وكانت حياة السيد قد قاربت نهايتها، فقد هده المرض. ولم يبرأ من جراح قديمة أصابته فى حروبه ومات القنبيطور يوم الأحد فى العاشر من شهر يوليو سنة ١٠٩٩ وهو فى السادسة والخمسين فقط.

حزنت خيمينا لوفاة زوجها السيد حزنا شديداً، على أنها رأت عملا بمشورة الحاشية التى كانت تحيط بسيد بلنسية الراحل، ألا تترك المدينة، بل تقوم على العكس من ذلك بتنظيم حركة المقاومة لمدافعة المرابطين، وما إن علم هؤلاء بوفاة عدوهم الأكبر حتى ضيقوا الخناق على ما كان يمتلكه السيد، وأقرت خيمينا بعد ذلك بعدة شهور بفشل جهودها، فبعثت جيروم دى بيريجور أسقف بلنسية يتوسل باسمها إلى ابن عمها ملك قشتالة ألفونس السادس أن يرسل إليها النجدة، وقد وصل على عجل لكن تبين له أن الموقف لا سبيل إلى السيطرة عليه فعزم على التخلى عن المدينة وتركها بدون قتال، فأخليت بلنسية من كل حاميتها المسيحية من أول مايو إلى الرابع منه سنة ١١٠٢ ثم نهبت وأضرمت فيها النيران، وفى اليوم التالى لرحيل آخر القوات القشتالية دخل مزدلى قائد المرابطين المدينة، وأخذ يزيل عنها الخراب.

وحمل أتباع القنبيطور معهم عند مغادرتهم بلنسية رفات سيدهم

الراحل ، ودفنت جثته بناء على مشورة خيمينا على بعد كيلومترات إلى الجنوب الشرقى من برغش فى دير سان پدرو دى كاردينيا ، وعاشت خيمينا خمسة عشر عاماً بعد وفاة زوجها ، فأوت إلى الدير الذى يضم قبر السيد ، وطلبت أن ترقد فيه رقدتها الأخيرة .

• • •

هذه هى المراحل الأساسية للحياة المضطربة التى عاشها السيد القنبيطور رودريجو دياث دى ڤيڤار ، فى أراضى الإسلام والمسيحية بإسبانيا تبدو خلال صورة مبسطة للغاية ، ومجموع العناصر التى تكاد تكون قصصية فى حياته تهيء السبيل أكثر من أى حياة أخرى إلى التخيلات القصصية التى لم تتجاوز الحد فى التضخم إلا بعد وفاة البطل بزمن طويل . والسيد ، كما رأيناه لم يكن مثلما حاولوا أن يصوروه تصويراً مبالغاً فيه أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ، جنديا من المرتزقة ، مجرداً من النزاهة ولا رئيس عصابة تنكر للدين والقانون ، ولا بالمغامر الذى هو أشد قسوة ووحشية من معاصريه فى إسبانيا الإسلامية أو المسيحية فى القرن الحادى عشر ؛ ولا شك أن السبب الأساسى للشعبية التى تمتع بها السيد فى حياته وبعد مماته بنوع خاص ، أنه استطاع وهو فى منفاه أن يضيف إلى تاريخ قشتالة القومى صفحات مجيدة . ولكن لم تتجسد فيه الخصال المثالية والجوهرية للفارس القشتالى فى نظر إسبانيا المسيحية وهى تتابع حركة الاسترداد ومدافعة الإسلام إلا فى عصر متأخر فى أخبار شبه الجزيرة . فقد

تجمعت حول اسمه ، على حساب بطل آخر تدين له إسبانيا المسيحية بالشيء الكثير ونعني به ألفونس السادس ، أصوات الرضى فى بلد استطاع أكثر من أى بلد آخر فى أوروبا أن يقود أشد صراع فى العصور الوسطى ، فى سبيل المحافظة أو استرجاع الوحدة القومية التى لم تتم إلا فى السنوات الأخيرة للقرن الخامس عشر [١] بعد ثمن باهظ من التضحيات الأليمة المقرونة أحيانا بهزات داخلية خطيرة .

---

(١) عرض الأستاذ منندث بيدال فى مقالته التى عنوانها « النقد السِّيدى والتاريخ الوسيط La Critica cidiana y la historia medieval » لمسألتين يتضمنهما البحث السابق . (انظر بصفة خاصة : قشتالة ، التقاليد ، اللغة ـ صفحات ١٠١ ـ ١٠٣ Castilla : La tradición, el idioma ، تنصبّ أولاهما على الدور الذى لعبه السيد فى موقعة جُلبخيرة . وثانيهما الموقف القاسى الذى وقفه السيد عندما حكم على القاضى ابن جحاف بحرقه حياً بعد سقوط بلنسية . وفيما يتعلق بالموضوع الأول الذى نشر عنه المأسوف عليه ج . سيرو نصلا قصيراً فى Bulletin hispanique (جزء ٤١ سنة ١٩٣٩ ، صفحات ٨٧ — ٨٩) لا أعد مسلك السيد « مقيتاً » وإنما الاتهام الزائف الذى ألصق به هو الذى يستحق هذا النعت . أما الحكم على ابن جحاف فلا أزال عند رأيى فيه من أنه عمل جائر لا إنسانية فيه دون أن ألقى اللوم مع ذلك على القنبيطور ، خاصة إذا راعينا أن العصر لم يكن يحسب فيه للحياة فى كلا المعسكرين أى حساب . هذا إلى أن النصوص الواردة فى الصفحات القادمة تتيح للقارئ أن يكوّن لنفسه رأياً إذا لم يكن لديه على الأقل نفس الأسباب العاطفية التى لدى مؤرخ السيد العظيم ، وتفضى به إلى أن يرفع البطل القشتالى إلى الذروة بأى ثمن وفى كل مناسبة .

الفصل السابع

استيلاء السيد على بلنسية

فى المصادر الاسلامية والأصل العربى

للمدونة العامة لتاريخ إسبانيا

كان التقدير أن يظهر هذا المقال فى سنة ١٩٤٠ فى Bulletin Hispanique ؛ إلا أن المخطوطة ضاعت فى المطبعة فى الأشهر المحزنة من نفس السنة ؛ وقد ترجمه الأستاذ غرسية جوميث إلى اللغة الإسبانية ونشر مع النص العربى فى مجلة الأندلس "Al-Andalus" الجزء ١٣ سنة ١٩٤٨ صفحات ٩٧ — ١٥٦ ، تحت عنوان « استيلاء السيد على بلنسية : فى المصادر الإسلامية والأصل العربى للمدونة العامة لتاريخ إسبانيا » .

La toma de Valencia por el Cid; según las fuentes musulmanas y el original árabe de la Crónica general de Espana.

• • •

لابد أولا ، للتيسير على القارئ ، من إيراد بعض الملحوظات الجوهرية عن المصادر العربية لتاريخ السيد بنفس الصورة المجملة التى عرضنا فيها المراحل الأساسية لحياة بطل قشتالة .

إن من لديه أدنى إلمام بمصنفات التاريخ الأندلسى التى تعرض لأخبار شبه الجزيرة فى القرن الحادى عشر يعرف الحيز الضيق الذى تشغله أبرز الحوادث فى ملحمة السيد بالنسبة للإسلام ، وإذا كان النشاط الذى تعاطاه ألفونس السادس فى مدافعة الإسلام موضوعاً لأخبار مفصلة أفاض فيها المؤرخون العرب فإن نشاط السيد قد أجمل

القول فيه هؤلاء المؤرخون واقتصر على اشارات يسيرة جـداً ، وعبد الله الزيرى ملك غرناطة يجعل فى « مذكراته » من فاتح طليطلة Imperator Tolitanus الشخصية المركزية تقريباً لروايته ، فجهود ألفونس وصلابته التى أحبط بها محاولات المسلمين ليسلبوا منه العاصمة القوطية القديمة التى استردتها المسيحية بفضله، وإدراكه لدوره كمحرر للبلاد وبطل للاسترداد ، كل ذلك يسطره مؤلف هذه الوثيقة الثمينة ، فى وضوح يدعو إلى الدهشة ، أما السيد فلا يظفر بشىء من هذا ، وهو عندما يذكر فى كتب التاريخ العربية فى نهاية عصر ملوك الطوائف وبداية عصر المرابطين ، لا يعدو أن يكون ذكره مقصوراً على صورة جزئية دون التفصيل الشديد ، ذلك ما نجده على الأقل فى الكتب التى كانت حتى يومنا هذا فى متناول أيدى المؤرخين المحدثين لتاريخ إسبانيا فى العصور الوسطى .

على أن هذه الوثائق العربية الضئيلة فى تاريخ القنبيطور قد استغلت على أكمل وجه ، وقد جمعها العالم الهولندى ر. دوزى لأول مرة وطبعها مع ترجمتها فى كتاب منذ سنة ١٨٤٩ [١] . ثم تناولها الأستاذ منندث بيدال واستعان بها بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً

---

(١) ينبغى أن يرجع فى دراسة دوزى وعنوانها « السيد من وثائق جديدة » Le Cid de nouveaux documents إلى الصورة النهائية لها فى الجزء الثانى من الطبعة الثالثة لكتابه Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendants le moyen âge باريس — ليدن ، ١٨٨١ .

فى كتابه الرائع « إسبانيا فى عصر السيد» Espana del Cid على وجه الاستيعاب . وقائمة هذه المصادر ليست طويلة ، فهى لا تعدو بضع صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام ، وقطعة من تاريخ ابن كردبوس ثم طائفة من الأخبار المنبثة فى كتب التراجم الأندلسية، يضاف إلى ذلك أن منندث بيدال استطاع أن ينتفع فى كتابه بعبارة موجزة من كتاب لمؤلف مجهول ، كنت قد أوقفته على نصها مع الترجمة فى ذلك الوقت [1] .

على أى حال كان كل هذا قليلا جداً لا يمكن من إعادة وضع تاريخ السيد فى صورة مفصلة تفصيلا كافياً ، وقت أن حاصر بلنسية ثم دانت له إلى أن توفى سنة ١٠٩٩ . وبإزاء هذا الفقر فى المصادر العربية المعروفة نرى أن ما كتب عن السيد باللاتينية والقشتالية بنوع خاص يمدنا بالوسيلة التى تمكننا من سد هذا النقص، فى الحدود التى يستطاع فيها تجريد ما كتب من العناصر المشكوك فيها ، وغالباً ما تكون من أصل شعرى ، دخلت كتب التاريخ منذ اللحظة التى صار فيها السيد

---

(١) انظر « إسبانيا فى عهد السيد » ج ٢ صفحات ٧٩٦ ــ ٧٩٨ . النص الذى أورده منندث بيدال قام بترجمته زميلى وصديقى إميليو غرسية جوميث . وقد ترجمت هذه القطعة بعينها فى طبعتى الجديدة لكتاب « تاريخ المسلمين فى إسبانيا » لدوزى ، ليدن ١٩٣٢ ، الجزء الثالث صفحات ٢٢٧ ــ ٢٢٩ . والنص العربى الذى أوردناه فى « ذيل ا » موجود فى الجزء الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى نشر ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ صفحات ٣٠٥ ــ ٣٠٦ .

شخصية أسطورية ، ثم هي تمكننا من تمييز الحقيقة عن الخيال على وجه معقول .

وأهم أثرين لهذا الأدب المكتوب عن السيد ـ وهل نحن فى حاجة إلى أن نذكر ذلك ؟ ـ الملحمة الشعرية "Mio Cid" ثم «المدونة العامة لتاريخ إسبانيا » ، وقد وصلت إلينا فى نسخ شتى أهمها النسخة التى اصطلح على عنونتها بإسم Primera Crónica general [1] ، كتبت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر فى عهد ألفونس العاشر العالم ، والجزء الأخير منها يختص بحياة السيد ؛ والرواية المتعلقة بحصار بلنسية واستيلاء كونت قشتالة عليها يتسم فى صفحاته كلها ، بالتفصيل فى سرد الحقائق والدقة فى وصف البيئة الإسلامية لعاصمة شرق الأندلس فى تلك الحقبة . وهذه الخصائص مما يتميز به هذا الجزء تميزاً يظهر لأول وهلة بحيث يختلف عن الجزء الباقى من الوثيقة ، وينصب على نشاط القنبيطور فى الأراضى المسيحية ومنازعاته الطويلة مع مليكه .

وقد اتضح منذ زمن طويل ـ والفضل فى ذلك يرجع إلى دوزى ـ

(١) نستخدم هنا الطبعة التى نشرها فى مدريد سنة ١٩٠٦ منندث بيدال فى سلسلة:
La Nueva Biblioteca de Autores espanolés
وهى المعروفة بالمدونة الأولى للتاريخ العام Primera Cronica General, Osea,
Estoria de Espana que mando componer Alfonso el Sabio y se continuaba bajo Sancho IV, en 1289, tomo I, texto
أى تاريخ إسبانيا الذى أمر بتأليفه ألفونسو العالم واستمر فى عهد سانشو الرابع سنة ١٢٨٥ .

أن هذه الرواية الطويلة الواردة فى النسخ المختلفة لمدونة التاريخ العام نقلت مباشرة من تأليف تاريخى لمؤلف مسلم من أهل بلنسية ، كتبه فى بلنسية بالذات فى عصر عادت فيه هذه المدينة بصفة مؤقتة إلى المسيحية ، وصلة القربى بين هذا الأصل العربى وبين المدونة الأولى للتاريخ العام تتجلى فى فقرة وردت فى أكثر موضع من المدونة هذا نصها "E diz Abenalfarax en su aravigo, onde esta estoria fué sacada..." (١) .

وحتى لو لم تكن هذه العبارة واردة لأمكن الاستدلال مباشرة على وجود عبارات عربية التركيب فى المدونة كان دوزى أول من دل عليها (٢)، نقلها إلى اللغة القشتالية مترجم تنقصه البراعة ، بل مما لاشك فيه أنه قليل الدراية بالتراكيب والتعبيرات التى كان يتوخاها المسلمون فى إسبانيا

وابن الفرج الذى ورد ذكره فى «المدونة» باعتباره مصنفاً لكتاب التاريخ الذى نقلت عنه المدونة ، لاذكر له فى كتب التراجم الأندلسية، ولكن يحتمل جداً أن هذا الاسم الذى ورد بصور مختلفة (٣) فى

---

(١) Prim. Cron. Gen ص ٥٧٨ ، ١ ـ ٣ (578 b, I. 30)
وانظر Esp. del Cid ج ٢ ص ٨٩٦ حاشية ١.

(٢) Rech. الطبعة الثالثة ص ٣٦ ـ ٤٠ ج ٢ .

(٣) Esp. del Cid ج ٢ صفحة ٨٩٦ ؛ Abenfarax, Apenfax
Abenalfange.

المخطوطات القشتالية مشكوك فى أمره[١] . نعم ، من المعروف أن مؤلفاً آخر اسمه ابن علقمة قد صنف كتاباً عن سقوط بلنسية فى نفس هذا العصر ، كما نبه على ذلك المؤرخون العرب أنفسهم ، ويقتضى هذا صراحة أن ابن الفرج Abenalfarex المذكور فى المدونة العامة إنما هو ابن علقمة ، وقد كان هذا رأى دوزى . وإليه أيضاً يذهب منندث بيدال حيث يقول[٢] : «ومثار هذا الظن جلى لنا ، فمن المستبعد وجود مصنفين يقتصران بالذات على موضوع تغلب السيد على بلنسية» .

ولا نعدم أخباراً عن ابن علقمة هذا ، فقد ترجم له ابن الأبار[٣] وابن عبد الملك المراكشى[٤] ، وهو ، على ما ذكرا ، من أسرة عربية الأصل ، اسمه محمد بن الخلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفى ، يعرف بابن علقمة ، ويكنى أبا عبد الله ، مولده سنة ٤٢٨[٥] ، وتوفى سنة ٥٠٩هـ (١١١٦) ، لم يكن بالمبرز فى الكتابة ، وإنما كان قاصراً فى نظمه ونثره

---

(١) وقع أيضاً لبس بين هذا الاسم واسم وزير كان للسيد ورد فى المدونة العامة كما لاحظ ذلك منندث بيدال (انظر المرجع السابق) .

(٢) Esp. del Cid ، المصدر المذكور .

(٣) تكملة الصلة ، نشر كديرة ، الجزء الخامس من المكتبة العربية الإسبانية ، مدريد سنة ١٨٨٧ ترجمة رقم ٥١٤ ص ١٤٦ .

(٤) نقلا عن دوزى فى .Rech جـ ٢ ص ٤٥ — ٤٦ و XXXIX—XXXIV وانظر أيضاً بونس بويجس Pons Boigues فى كتابه Ensayo bio-biblio gráfico sobre los historiadores y gioprafos arábigo-espanoles, مدريد ١٨٩٨ رقم ١٤٠ ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٥) فى الأصل الفرنسى سنة ٣٢٨ والذى أثبتناه عن ابن الأبار . انظر التكملة ، ترجمة رقم ٥١٤ .

وانتحل الكتابة فى أحد الدواوين بشرق الأندلس ، غير أن أهم أثر ذكره من ترجموا له ، تاريخه فى تغلب السيد على بلنسيه قبل الخمسمائة ، سماه « بالبيان الواضح فى الملم الفادح ، وقد قال ابن عبد الملك عنه إنه عنوان يلزم مؤلفه بعهد لم يف به . ومنه نستنتج أن كتابه كان مضطرباً فى نظامه رديئاً فى طريقة عرضه .

فمن المحقق إذن أن المؤرخين المتأخرين عرفوا تأليف ابن علقمة [١] ، ونقلوا عنه ، على الطريقة الشائعة فى التأليف التاريخى أى بإيراد عبارات منه مع ذكر الإسناد أو عدم ذكره ، وفى العبارة القصيرة التى كنت قد أطلعت عليها منندث بيدال قبل أن ينشر كتابه «إسبانيا فى عهد السيد» ذكر لهذا التاريخ بوضوح ليس بعده وضوح وفيها نطالع : « وقد ألف ابن علقمة كتاباً فى أمرها (أى بلنسية) وحصارها يبكى القارىء ويذهل العاقل » [٢] وظاهر أن هذا النص ذاته وقد تضمن عبارة منقولة عن تأليف ابن علقمة ، إنما أخذ عن ابن علقمة المعنى الذى ذهب إليه فى شرح لفظه Campeador كما أشرنا إليه آنفا . ومما يجدر ذكره أن منندث بيدال [٣] لم يقبل

---

(١) ذكر حاجى خليفة تاريخ ابن علقمة فى « كشف الظنون » (طبعة فلوجل Flügel ج ٢ ص ١٢١) كما ذكره أيضاً ابن الخطيب ضمن المصنفات التاريخية المفردة لبلد مخصوص فى مقدمة كتابه « الإحاطة » (انظر طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ ج ١ ص ٦)

(٢) انظر دوزى Hist. Mus. Esp. الطبعة الثانية ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٣) انظر O. Cirot : Le Vrai Cid فى Bulletin hispanique ج١ ٤ =

تفسير القنبيطور بصاحب الفحص Dominus Campi لمـا فيه من تقبيح ، ولكني ، اعتباراً لأصله ، لا أزال أعزو إليه قيمة أعلى من قيمة كل معنى آخر ذهب إليه الباحثون ، على ضوء حجج أدبية بحتة ، في شأن هذا اللقب الذي أضفى على الكونت رودريجو دياث وكان شائعاً جداً بين المسلمين لعهده .

لم يتردد مننديث بيدال معتمدا على صلة القرابة بين بعض المدونات القشتالية وبين تاريخ عربي عن السيد ، أن يعزو إلى ابن علقمة هذا جميع ما ورد في المدونة العامة Crónica general من أخبار نرى فيها القنبيطور لذلك العهد يباشر نشاطه في شرق الأندلس ، فإليه تشير حواشي الجزء الثاني من كتاب « إسبانيا في عهد السيد » باطراد مع التنبيه على الروايات المطابقة لذلك في اللغة الإسبانية ؛ أما كيف يبرر المؤرخ الكبير ذلك في نهاية كتابه مع بعض التحفظ بعد محاولته إعادة تأليف الرواية الأصلية لابن علقمة فإليك بيانه : « إن إنشاء محتويات كتاب ابن علقمة من جديد عمل دونه عقبات جمة وتحيط به شكوك

= سنة ١٩٣٩ ص ٨٦ ــ ٨٩ ، و quelques notes encore sur le Cid (المرجع السابق ص ١٨٠) . إني أذهب إلى ما ذهب إليه الأسوف عليه سيرو فيما كتب إلى من أنه وقع لبس في تفسير القنبيطور وهي لفظة قشتالية لم يلتمس الباحثون معناها في ذاتها ولكنهم عمدوا إلى الاستعانة بما يقابلها في اللاتينية مثل campidoctor و campidoctus وليس هناك ما ينفي رغم استعمالهما في Historia Rodrici و le Carmen Campidoctoris أن هاتين الكلمتين ــ وقد وردت أولاهما في Végèce ــ قد اختيرتا بالذات احتياطا بسبب تقاربهما الصوتي للدلالة على اصطلاح شعبي يقابله في اللاتينية Campeator .

كثيرة، وقد نسبنا إلى هذا المؤرخ ما كان ذا طابع إسلامى من الأخبار التى نجدها فى المدونات القشتالية عن بلنسية ولكن هذه الطريقة غير مأمونة الجانب، وسيفضى العثور على النص الأصلى لتاريخ ابن علقمة، وسيأتى اليوم الذى يتم فيه ذلك، إلى تصويبات لما أنشأناه من جديد، كما أنه سيكشف فيما يتعلق بتاريخ السيد عن أشياء جديدة وتفاصيل لا شك فى قيمتها لا سيما ما كان متعلقا بالحقبة التى بدايتها سنة ١٠٩٥ ونهايتها سنة ١٠٩٩، على أن هذا لن يغير، فيما أرى، جوهر الخطوط العامة لسلطان السيد فى بلنسية على نحو ما بيناه إلا تغييراً طفيفاً» [1].

وقد مضى ما يقرب من عشرين عاماً على ما خطه قلم العالم الإسبانى دون أن تتحقق أمنيته، ولا أشاركه الأمل فى العثور يوماً ما على النص العربى الأصلى لتاريخ ابن علقمة، ذلك أن كتب التاريخ المخصوصة بمدن بعينها، أقل انتشاراً فى العالم الإسلامى من التواليف الجامعة التى تتضمن أخبار الدول أو التاريخ العام. ولا يصدق هذا فيما نعلم، على تاريخ بلنسية وحدها بل يصدق على سائر التواليف المخصوصة بالمدن الأندلسية الأخرى التى لها شأن يذكر. فالنسخ التى كانت تكتب من هذه المصنفات القاصرة على بلد واحـــد أو على إقليم بعينه كانت بالضرورة أقل عدداً من نسخ الكتب المسهبة، ومن هنا كان العثور

---

(١) Esp. del Cid جـ ٢ ص ٩٠١ ــ ويضيف منندث بيدال فى طبعة ١٩٤٧ (ص ٨٩٢) ما يلى: «إن العبارتين الواردتين فى بيان ابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب ــ وقد أوقفنى عليهما ليفى بروفنسال ــ لم تغيرا شيئاً مما مررت، بل على العكس فيهما تأييد له وتوكيد».

على أحدها أمراً قلما يتحقق ، ولكن هذا لم يكن كذلك قطعاً فى العصور الوسطى ، فإن هذه التواليف الصغيرة كانت مرجعاً مباشراً فى الغالب لذلك العهد ، وخاصة فى القرن الرابع عشر الذى ازدهر فيه التأليف التاريخى فى المغرب الإسلامى ، على أنه ليس هناك ما يمنع، وقد فقد نص ابن علقمة ذاته ، من احتمال أن يكون أحد المؤرخين فى تلك الحقبة ، وكان مدار الأمر فيها على تصنيف وجمع المؤلفات السابقة ، قد نقل قطعة كبيرة منه تشتمل على جوهره .

وللسان الدين بن الخطيب السياسى الأديب تأليف فى تاريخ أسبانيا الإسلامية كتبه قريباً من سنة ١٣٧٤ وهو الموسوم « بأعمال الأعلام » نشرته فى ١٩٣٤ [١] ، أورد فيه عبارة مطولة عن عمل السيد فى بلنسية فى نهاية القرن الرابع عشر [٢] ، غفل عنها دوزى فى أبحاثه، ولم يكن يعرفها مننديث بيدال قبل أن أطلعه عليها، وفى مدريد نسخة رديئة جداً من هذا الكتاب [٣] ، والإشارات الواردة فى هذه العبارة عن القنبيطور تتفق فى الأغلب والأعم مع الحقائق التى تتضمنها المصادر المسيحية وخاصة المدونة العامة ، ولكنها غير معزوة إلى ابن علقمة . وكان يمكن ، اعتمادا على النقة ، أن نعتبرها أصلية لولا أننا نعلم أن ابن الخطيب اقتصر غالباً فى هذا التاريخ على نقل ماورد فى

(١) كتاب « أعمال الأعلام » طبعة الرباط سنة ١٩٣٤ .

(٢) وردت هذه العبارة فى صفحات ٣٠٥ـ٣٠٦ من تعربى لهذا الكتاب ، وقد نقلناها فى ذيل « ب » .

(٣) مخطوط رقم ٣٧ بالقسم العربى من مخطوطات المجمع العلمى للتاريخ .

مصنف آخر أقدم عهداً كتبه ابن عذارى المراكشي فى سنة ١٣٠٦ عنوانه «البيان المغرب» نقلا حرفياً دون أن يجشم نفسه عناء ذكر المصدر الذى أخذ منه. وللمرء أن يذهب إلى أن ما فى هذا الكتاب من أخبار مسهبة عن السيد وتغلبه على بلنسية إنما استقاه المصنف من تاريخ ابن علقمة، ولدينا اليوم نص ابن عذارى كاملا تقريباً. ومعروف أن دوزى نشر جزءاً كبيراً منه فى ليدن عام ١٨٤٨ — ١٨٥١ [١]، واستطعت فى عام ١٩٣٠ أن أنشر جزءاً آخر منه من مخطوطة فى مكتبة خاصة بمدينة فاس [٢].

وبعد ذلك بأربع سنوات وفقت إلى العثور على جزء يتضمن قطعة لم تنشر فى تاريخ دولة المرابطين فى مراكش وأسبانيا وجدته ضمن أوراق مشوهة، فى محفوظات مكتبة المسجد الجامع بهذه المدينة نفسها [٣]. وكان هذا الجزء مضطرباً فى ترتيب أوراقه، فيه سقط كبير، وقد تمكنّا بفضل هذا الجزء من ضبط كثير من الوقائع الهامة

---

(١) بعنوان تاريخ إفريقيا وأسبانيا الموسوم بالبيان المغرب وقد ترجمه فانيان بعد ذلك إلى الفرنسية (الجزائر سنة ١٩٠١ ــ ١٩٠٤) وقد نشر الجزآن الأول والثانى من البيان على ضوء مخطوطة جديدة بعناية ليفى بروفنسال و ج. كولان بليدن (مطبعة بريل).

(٢) البيان المغرب ج ٣ (باريس ١٩٣٠) وهو يتناول تاريخ إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر.

(٣) فيما يتعلق بهذا الكشف انظر مقالى :

Observations sur le texte du tome III du Bayan d'Ibn Idārī في Mélanges Gaudefroy-Demombynes, le Caire, 1935-1945

ص ٢٤١ وما يليها.

فى تاريخ القرن الحادى عشر الأسبانى ، من ذلك تحقيق شخصية «زايدة المسلمة» الشهيرة التى بنى بها ألفونس السادس فى سنة ١٠٩١ أو ١٠٩٢ دون زواج شرعى وثبت أنها كنة المعتمد بن عباد ملك إشبيلية .

ومن هذا الجزء الخاص بالمرابطين فى كتاب البيان صفحات كثيرة تحتوى ، كما كنت أنتظر ، على أخبار مسهبة فى حصار بلنسية واستيلاء القنبيطور عليها ، وخير من ذلك أن نص هذه الأخبار منسوب إلى المؤرخ ابن علقمة ، ولكن القطعة لسوء الحظ مبتورة لوجود سقط كبير فى المخطوطة ، ولما كنت أظن أن قائمة المجموعات الجديدة بمكتبة فاس تتيح لى فى مستقبل قريب اكتشاف التكملة فقد فضلت أن أنتظر إلى أن نعثر على التتمة لكى أنتفع بالوثيقة الجديدة ، وقد تحقق هذا الظن منذ عدة سنوات : إذ بينما كنت أقيم فى عاصمة مراكش الشمالية عام ١٩٢٩ سرنى أنى اهتديت إلى نص تتضمنه الأوراق الجديدة التى تلى ما كنت قد اطلعت عليه سابقاً ؛ وفى هذه التكملة لما نسب إلى ابن علقمة لم أجد أى صعوبة فى العثور على العبارة التى ذكرها ابن الخطيب عن السيد وهى التى أثارت اهتمامى[1] .

وكنت قد حادثت الأستاذ منندث بيدال قبل هذا الاكتشاف بشهور فى خلوته العلمية بباريس عن الوثيقة الجديدة التى لدىّ وعن الأسباب التى تدفعنى إلى الأمل دون شك فى سرعة اكتمالها . وقد

(١) تشتمل نفس القطعة من كتاب البيان على ذكر استرداد القائد المرابط مزدلى لبلنسية فى سنة ١١٠٢ (٤٩٥ هـ) .

أعطيته النص المنسوب إلى ابن علقمة مع ترجمته الفرنسية حتى يستطيع أن يفيد منه فى الطبعة الجديدة لكتابه : «إسبانيا فى عهد السيد» ؛ وفى ٢٤ يناير سنة ١٩٣٩ تفضل فكتب إلى ما يلى : « إن القطعة الجديدة من البيان المغرب عظيمة الأهمية ، وقد اتضح لى أن القطعة التى تضمنتها المدونة العامة وكنت أعتقد أنها من القصص الشعبى البحت إنما هى ترجمة لنص ابن علقمة أدخلت فى سياق الشعر » . وفى هذا الحكم من أستاذ لا ينازَع فى الدراسات الخاصة بالسيد ما يسوغ ، إن اقتضى الأمر تسويغاً ، نشر الترجمة الفرنسية لهذا المصدر الجديد لتاريخ القنبيطور . أما النص العربى لها فسأورده حسب مكانه التاريخى فى كتاب « وثائق جديدة عن تاريخ المرابطين » الذى أعده الآن للطبع .

ولا يفوتنا ونحن نقرأ هذا النص تقرير أن الحقائق التاريخية التى وردت فى البيان المغرب لا تبطل ما تقرر حتى هذه اللحظة من تاريخ الحقبة التالية للحوادث التى أفضت فى سنة ١٠٩٤ إلى تغلب السيد على بلنسية ، بل إنها على الضد من ذلك ، تزيد من إيضاح ما استبهم ، بحيث لو وقف عليها الأستاذ مننديث بيدال حين أصدر الطبعة الأولى من كتابه « إسبانيا فى عهد السيد » لوفر على نفسه عناء الفروض التى لجأ إليها فى تأريخ بعض الوقائع مما لا دليل على ثبوته . ويجمل القول أن الوثيقة الجديدة التى سنقدمها بعد قليل تثبت ما كان يظنه العالم الأسبانى ، كما أن ما تقتضيه هذه الوثيقة من تصويب لا يغير فى شىء الخطوط

الكبرى للاطار الذى رسمه مستعيناً بالمصادر المسيحية بنوع خاص عن نشاط السيد فى بلنسية أثناء الحقبة الأخيرة من حياته .

• • •

كتب ابن عذارى الفصل الذى نحن بصدده من البيان المغرب . وقد سلك فيه سبيله الذى التزمه فى سائر مصنفه ، وجرى عليه جمهور المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى ، بأن سرد سلسلة الحوادث فى ترتيبها الزمنى ويردف ذلك فيما يظهر بذكر هذه الحوادث نفسها مع عرضها فى صورة أخرى ، وقد يورد روايات أخرى فى صميم الموضوع ، وكثيراً ما يكرر الفكرة على نحو يدهش له القارىء الذى لاعلم له . وهذه الطريقة الكلاسيكية للتاريخ العربى تعصم المؤرخ من التحيز لفريق عند ما يجد نفسه بإزاء روايتين مختلفتين لحقيقة تاريخية واحدة ، ويدع للقارىء تكوين الرأى الذى يرى أنه أكثر اتفاقا مع الحقيقة . فلا عجب إذن أن نرى جزءاً من الأخبار التى سنعرضها ترد مرتين فى نص البيان ، على أن هذا الازدواج يوحى بأن المصنف كان لديه ، عند تدوين هذا الفصل ، مصدران كلاهما مستقل عن الآخر : أحدهما لا ينبه عليه بل إنه غير معروف وسيظل كذلك حتى يظهر مايدل عليه ، والآخر وقد ذكره ونقل عنه فى موضعين وهو تاريخ ابن علقمة الذى اتخذ مصدراً « للمدونة العامة » .

ومن الخير ألا نفصل قط فى الصفحات التالية عبارتى ابن علقمة عن النص الذى يطابقه فى « المدونة الأولى للتاريخ العام » ، وهو منقول

نقلا حرفياً . وسيتبين من مقابلة النص القشتالى بالنص العربى صحة ماذهب إليه دوزى منذ قرن من الزمان متوسلا بحجج لغوية من صلة القربى القائمة بينهما ، كما أن هذه المعارضة ستتيح أيضاً أن نحكم ، من زلات وقع فيها المترجم المكلف بالنقل ، على لغة ابن علقمة التى لاجدال فى أنه يعروها غموض واضطراب ، وليس من المستبعد أن يكون هناك إلى جانب هاتين العبارتين عبارات أخرى من الفصل الوارد فى « البيان » ولا مقابل لها فى « المدونة العامة » قد نقلت أيضاً عن تاريخ ابن علقمة رأسا . من ذلك الأخبار الواردة فى شأن العقاب الذى أنزل بابن جحاف قاضى بلنسية الذى قضى السيد بحرقه ، فالظاهر أن ابن عذارى قد نقلها حرفياً من نفس المصدر ، ومن هنا ندرك أن هذه الأخبار التى تتضمن التشنيع على القنبيطور لقسوته قد حذفت عمداً من الرواية القشتالية . ولا نشك فى أن مثل ذلك قد حدث فى جميع ما ذكره ابن علقمة حيث شنع هذا المؤرخ المسلم على عدو دينه ، ولا يستبعد أيضاً أن يكون كتاب المدونات القشتالية فى القرن الثالث عشر نظروا فى المراجع العربية التى لديهم عن السيد فحذفوا منها بعض الحقائق التى تنقص من قدر البطل أو خففوا كثيراً من حدة لهجتها على أقل تقدير .

وأخيراً ستتيح مقابلة النصين العربى والقشتالى إثبات أنه حيثما لاغبار على تصرف السيد ، تكون الأخبار الواردة فى المدونة الأولى للتاريخ العام أكثر إسهاباً ، على مايبدو ، مما فى أصل ابن علقمة . ويمكن

تفسير هذا الشذوذ على وجه الدقة بافتراضنا أن المصنف الإسبانى لهذه النصوص قد أسهب من تلقاء نفسه فى النص الموجود فى الأصل العربى ، على أن هذا الافتراض بعيد الاحتمال ، وخير منه ، فيما يبدو أن نلتمس تبرير الاختلاف فى القدر الذى تشتمل عليه كلتا الوثيقتين بأن المنقول فى كتاب عربى لا يؤلف بالضرورة النص كله ، إذ أن الناقل مع احترامه حرفية العبارات التى ينقلها بنصها يجتزىء بعبارات قد تطول جداً دون أن يترتب على ذلك فى الغالب انقطاع فى تسلسل الفكرة المبسوطة . وقد كان هذا ، بلا شك ، شأن النقول التى أوردها ابن عذارى فى بيانه وأخذها من تاريخ ابن علقمة ، وليس هناك ما يمنع من الظن أنها اقتضبت على هذا الوجه .

« وكان الطاغية لذريق النصرانى ، الملقب بالكَمْبِيطُور قد أخذ بمخنق بلنسية وألقى زوره عليها ، يجبى رعيتها ويستغلها حاضرة وبادية . وقد استضعف حفيد ابن ذى النون ، ملكها المشئوم ، وكان اجتلبه ليُحترم به ؛ فرمى بسهمه إلى نحره ، فخلعه اللعين وبقى حتى أراد الله بما أراد من حتفه . وكان أيضاً صاحب سرقسطة ابن هود يمير لذريق وأصحابه النصارى ، ويعضده بالسلفة ، ويوجه المغيرة يمنة ويسرة ، فكان ما يأتى به الذكر . قال محمد بن علقمة : وفى شعبان العام (٤٨٥ﻫ ٦ سبتمبر — ٤ أكتوبر سنة ١٠٩٢) انتقل الكمبيطور إلى سرقسطه ، واستخلف على أطعمته المختزنة وضرائبه المفترضة ببلنسية ، فتنفس بمنق أهلها ، وانفرجت الضيقة عنها .

ثورة القاضي ابن جحاف ببلنسية

ولما ظهر ابن عائشة بمرسية ، وتوالى ظفره بها وبذوانها ، وقع الإصفاق من القاضي أبي أحمد جعفر بن عبد الله بن جحّاف ، وصاحب الأحكام ابن واجب ، وأهل العقـــد والحل من أهل بلنسية ، على استدعاء محمد بن عائشة ؛ وأنفذ إليهم لمـّة من المرابطين تحت نظر ابن نصر ، واتصل النظر بمن ببلنسية ، فنظر أحبّاء سلطانهم ابن ذي النون في إنفاذ عيالهم وذخائرهم وأموالهم إلى المعاقل والقلاع ، وأخرج حفيد ابن ذي النون بعض عياله إلى ابن ياسين قائده على حصن شُربُ ، وإلى ابن حُديدة بحصن العقاب ، وفرّ على وجهه من فيها من الروم من رجال لُذريق . وخرج القاضي والفقهاء لتلقي ابن نصر ، رسول ابن عائشة وإدخاله البلد . وفر القادر عن البلد إلى دار هجينة ، ففحص ابن جحّاف عنه إلى أن ظفر عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان (٢٨ أكتوبر ١٠٩٢) .

مقتل القادر حفيد ابن ذي النون

لما حصل بيد ابن جحاف ، أمر بقتله ، فتولى ذلك فتى من بني الحديدي زعيم طليطلة ، فقتله بيده كفعله بوليّه أبي بكر بن الحديدي ، وحُمل رأسه على عصى يطاف به الأسواق والسكك . واحتـــوى ابن جحّاف على ما كان معه ، وطرحت جثته في سبخة ؛ فواراه رجل من النجار : اجتاز به على باب مغطى بحصير خلق ، ودفنه دون كفن .

وتبوأ ابن جحاف تبوؤ الرياسة ، ورتب أرزاق الجند والخدمة واستشعر غلظة الرؤساء ، وأظهر أبهة الملك ، وطمح بصره إلى قضية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد . فما حسن النظر ، ولا ساعده القدر فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء ، والغلمة أمامه ، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد ، ويتأخر عنه الجند ، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء .

وكتب لذريق الكبيطور إلى ابن جحاف المذكور يهنئه على تلك الأمور ، وي... بالحسنة التي اكتسبها في رمضانه بقتل سلطانه ، ويطلب منه أطعمته المختزنة عنده ببلنسية . فراجعه الكبيطور ، يقسم بمغلظات الأيمان ألا يبرح من بلنسية حتى يظفر به ، ويأخذ ثأر ابن ذي النون منه ، وأنفذ إلى الحصون المجاورة يستمد الأقوات فأمده من اتقى شره ، وأقبلت الميرة إلى محلته : واتصل الضرب منها إلى بلنسية ، فأضربها ، وقتل من ظفر به من أهلها . وكان معه جملة من رجال ابن ذي النون .

وفي خلال ذلك ، ألحق ابن جحاف من الجند عدداً ، وأنفذ إليه ابن عائشة بعد ذلك المدد مدداً ، واجتمع له ببلنسية زهاء ثلاثمائة فارس ، وابن جحاف يزداد غلظة وحجبة ، وجيش الروم يراوحهم ويغاديهم ، والحرب تدور عليهم . فنهم القتلى والجرحى . وأمل الكبيطور إزعاج المرابطين من بلنسية ، وكان ابن جحاف أيضاً قد استثقلهم ، لكنه يستعملهم ، واستشعروا ذلك منه . وداخل الكبيطور ابن جحاف في إخراجهم واستبداده بالملك لنفسه ليقيمه معه مقام ابن ذي النون ، يحمي حوزته ، ويقاتل عنه ، فطمع في ذلك .

وفي سنة ٤٨٦ هـ (أول فبراير ١٠٩٣ — ٢٠ يناير سنة ١٠٩٤) ،

عظُم بلاء الطاغية على بلنسية ، واشتد حالهم ، وعظُم أمرهم .
فاستصرخوا أمير المسلمين يوسف، وبسطوا عنده القول فيما نزل بهم .
فجـــدّ فى أمرهم ، وأمر قواده وعماله على بلاد الأندلس بنصرهم .
فتلاحقت جموع المسلمين بشاطبة ، واتصل النبأ بالعدو ، فما برح ،
ولا تزحزح . فوصلت الجيوش ومعها من المطوعة خلق كثير خيلا
ورجلا ، فاستقبلت بلنسية سيراً حثيثاً حتى أشرفت عليها ، واستشرف
أهلها عليهم ، واستبشروا بنصرهم والانتقام من عدوهم ، واستنشقوا
ريح الحياة . وخرج العدو إلى طرف محلته ؛ فعبأ الجيش فرقتين وأمر
كل فرقة ، فلزمت مصافها . وأوقع الله لما قضاه فى قلوب المسلمين
النكول عنهم ؛ فرجعوا عودهم فبُهت أهل المدينة ، وسُقط فى أيديهم
ويئسوا من الحياة . واستأسد العدو ، واشتد كَلَبه ، وأقام يحيى الرعية
ويوجه المغيرة ، ويمنع الدخول إلى المدينة ، ويعيث فى فلّ الفارّ عنها ،
ومن تحرك من قريته ، أو شُعر بحركته ، يستعبد أهله وولده . فلم يقدم
أحد على التحرك ولا حدث نفسه بالتحول . ولما صدرت جيوش
المسلمين إلى شاطبة : بادر الأمير أبو بكر بن إبراهيم إعلام أمير المسلمين.

وفى سنة ٤٨٧ هـ (٢٢ يناير سنة ١٠٩٤ — ١٠ يناير سنة ١٩٠٥)
لما انصرف جيش الأمير أبى بكر بن ابراهيم اللمتونى بحكم القدر
السابق عن بلنسية ؛ أيقن من فيها بالهلكة ، وغلب على الناس اليأس ،
وضاقت النفوس ؛ وزاد حقد العدو ، وقسا قلبه . وهلك أكثر الناس
جوعاً ، وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ، ومن فر إلى المحلة فقئت

عيناه ، أو قطعت يداه ، أو دقت ساقاه ، أو قتل . فرضى الناس بالموت فى المدينة ، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافاً لانفساح مدة الحصار . وتضاعف حقد العدو لصبرهم وطلبهم النُّصرة .

ذكر تغلب العدو على بلنسية فى هذه السنة

لما بلغ بأهل بلنسية الماءُ الزُّبا ، وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ولا نصر ولا غوث ، ألجأتهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار ، لا بحكم الاختيار . فتجمعوا إلى قاضيهم أبى المطرِّف ابن جحّاف ، وسفروا إلى الطاغية الكبيطور - لعنه الله ! - من يتوسط لهم معه أخذ الأمان . فأجاب فى هذا الشأن ، وعقد نيته على الختر ، ونقض العهد ، وإعطاء أمان مثله من الأنجاس . فخرج إليه القاضى ، وعقد عليه العقود ، وأخذ المواثيق والعهود ، وحزم فى كل ذلك ، وبلغ الغاية التى ما بعدها غاية ؛ ولا وراءها لمجتهد نهاية ، فلما كمل الأمر ؛ فتحت له الأبواب ، ودخل المدينة بجملته ، وذلك فى جمادى الأولى من هذه السنة (١٩ مايو — ١٧ يونيو ١٠٩٤) فلم يعمل هو وأصحابه - لعنهم الله - ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال ، فانتشطت الأنفس من عقال ، وانبسطت الآمال ، وأمن الناس . وهو مع ذلك يراعى أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة ، وحصل - لعنه الله - على هذه الحضرة ، ورمى على ما هى عليه من النعمة والنضرة والحسن والبهجة .

واشتد جزع المسلمين بدانية وما اتصل بهـا من ذلك الصُّقع من القلاع والقواعد ، وكثر شر الغارات من بلنسية عليها ، وتوالى الضرب وعظم الضرر ، وانقطعت السابلة ، وخافت الطرق ، وصار أهل تلك الجهـات فى أضيق من العزق ، وقد حميت الفتنة . فخاطب الناس أمير المسلمين مستصرخين معلمين بفساد الشرق ، وإشراف الأمة على الهلكة . فتحرك إلى مدينة سبتة ، وتقدم أمره إلى القبائل باللحاق بها ، وأقام هنالك بحند الأجناد ، ويسرّب الأمداد ، وجعل تلك الجيوش وأمرها إلى نظر ابن أخيه الأمير أبى عبد الله ابن أخى يوسف لأمه ، والأمير أبو بكر هو أيضاً ابن أخى يوسف بن تاشفين لأمه وابن عمه . وأوعز أمير المسلمين إلى صاحب إغرناطة وما والاها أن يمـدوه بأنفسهم ورجالهم ، وكتب إلى صاحب شنت بريّة ابن رزين الملقب بالحاجب ، وإلى الشّنياطى ـ وكان من أنجاد الفرسان ودهاة الحرب ـ ليجتمعوا مع ابن أخيه لاجتماع الكلمة واتصال المعاضدة والمظاهرة على منازلة العدو ببلنسية .

ولحق الجيش بالأندلس عقب شعبان المكرم مايثيف على أربعة آلاف فارس (١٣ سبتمبر ١٠٩٤) ، واضعافها مرات من الرجال . وتحرك من أمر بالحركة إلى الاجتماع به . وأقبلت دواب الميرة من كل صُقع ، ونزلت المحلات على فرسخ من بلنسية ، فصارت مصراً عظيما . ورأى الروم بحراً محيطاً ، وهموا بالفرار وإخلاء بلنسية إلا اللعين زعيمهم الكمبيطور ، فلم يَرُعه فى ظاهر الأمر ذلك الجمع ولا عبأ به ،

وكانت له فى الطير عيافة وزجر ، يضيف إلى ذلك مخرقة من كذبه ، يقوّى بها نفوس أصحابه ، وفى ذلك يقول أحد أهل بلنسية :

قولوا اللذريق إن الحق قد ظهرا أو نقّدوه إذا ما طيره زجرا
سيوف صنهاجة فى كل معترك تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

وعمد اللعين ، عند نزول المحلات عليه ، إلى الضعفة من النساء والولدان من المسلمين ؛ فأزعجهم إلى المحلة ، وقال : « الحقوا بأهل ملتكم » ، فوقعن إلى أيدى السودان وخدمة الدواب والسفلة من الباعة فغلبوا عليهن وفسقوا بهن ، ولم يُرفع ذلك إلى صاحب الجيش ، فيقع التغيير والنهى عن المنكر .

ثم رحلت المحلة إلى دانية وغيرها ، فضاع الحزم وانتقض العزم ، وظهر العجز ؛ واختل الجيش ؛ وصاحبه فى غفلة عنه ، مغتر بكثرته ، يقدّر أن الجيش بوفره ؛ ويتهاون بعدوه ، ويحسب أنه مثله على مثله . فبدت العورة ، وأمكنت الفرصة . وكان الكبيطور قد ضاقت نفسه من مقاومة هذا الجمع ؛ فاستجاش الأذفونش ، وشاع ذلك فى محلات المسلمين ، فتوجست النفوس : وأشربت خوفه القلوب ، وكانت هذه الأمور ، دواعى لما جره المقدور .

ذكر غدر لذريق اللعين لمحلة المسلمين

ولما رأى لذريق ـ لعنه الله ـ ضياع المحلة ، وتفرق الناس عنها فى كل وجهة ، اعتبر الغرة وأعمل الحيلة ، ولم ينتظر النصرة . فركب

فى بعض خيله ، وكمن البعض ليلا على مقربة من المحلة ، وخرج صبح تلك الليلة بمن معه فى أهبة وعلى تعبئة ؛ والناس فى طمأنينة وعلى غفلة . فلما اشتهر من فى المحلة ، وقعت الرجة وعلت الصيحة . وركب من بقى من المرتزقة والمطوعة ، ولم يبق فى المحلة إلا الغلمة ومن لا يدفع عن نفسه . وصممت الخيل إلى لذريق المذكور ، فاستطرد لهم إلى المدينة ، ونشطوا فى أثره ، فاستدرأ بالسور ، ولازمته الجيوش تصيب منه وتظهر عليه . فخرجت كائنة إلى المحلة ، فدوختها . وكان الأمير محمد ابن أخى أمير المسلمين شاكياً متخلفاً بهـــا ، فبادر بالخروج عنها . واتصلت بالمسلمين الصيحة بدخول المحلة ، فبهت الناس ، ولم يشكّوا ، لمـا كان فى أنفسهم ، أن الأذفونش طرقها . فهام كل على وجهه ، وأخذوا فى غير طريق ، ومن صمد إلى المحلة ، فرأى النهب فيها ، والخيل تخترقها ، تنكب عنها ، فلم يرجع أحد إليها . وأقبل العدو على النهب ، ولم يتبع الفل ، ورفه عن الخيل لسقوطها من عنده بالضيعة لمـا لحقها ببلنسية . فلم يعمل سيف ، ولا أريق دم إلا أفذاذ رزقهم الله الشهادة .

واتصل النبأ بإذفونش ـ وقمه الله ـ وقد تجاوز فى نصف طريقه لنصرة لذريق ، وبلغته هديته من نهب المحلة . فكره أن يفرق جمعه ويخفق جيشه ، فقصد أرض وادى آش من نظر إغرناطة ، فتردد فى جهاتها ، واكتسح ما ألفاه بها ، وحمل جملة من رعيتها المعاهدة لعمارة أرض طليطلة .

واتصل النبأ أيضاً بأمير المسلمين يوسف ، فبلغ منه كل مبلغ ، واشتد غضبه على ابن أخيه لتضييع الحزم وإسلام المحلة دون حرب يقوم به عذر . وانتقلت جيوش المسلمين إلى دانية ، ثم إلى شاطبة فابتدروا بمخاطبة أمير المسلمين معتذرين ، فأعرض عن كتبهم وأضرب عن جوابهم . ولما طال إعراض أمير المسلمين عن ابن أخيه ومن معه، استلطفه ورجع فى أمره إلى القضاء والقدر ، فسلّم الأمر لله فيما قضى ، وعاد من العتب والسخط إلى الرضى ، وخاطبه بلزوم شاطبة لتشمير العادية ، عن تلك الناحية ، وقطع الطرق إلى بلنسية ، وحضه على الضرب عليها . فبلغ من ذلك ما فى وسعه وبذل غاية جهده . ولم يزل أمير المسلمين يمد ابن أخيه بالأموال والرجال إلى أن عظم الجيش وكثف، وضخم أيضاً أمر الفتنة والتعب . وبعد ذلك كتب إليه ، يأمره بالقدوم عليه . وبعث عوضه أبا الحسن على بن الحاج ، فلحق بشاطبة وانضمت الجيوش عليه . وكانت هدنةٌ على دَخَن !

ذكر محنة القاضى أبى أحمد بن جحاف
ومحنة أهله وقرابته ومحنة أهل بلنسية

ولما تمهدت بلنسية للكمبيطور ـ لعنه الله ! ـ بدأ بثقاف قاضيها ابن جحاف وثقاف أهله وقرابته ، فعمهم الثقاف ، وبلغتهم المحنة ، وجعل يطالبهم بمال حفيد ابن ذى النون . ولم يزل يستخرج ما عندهم حتى استصفى أموالهم واستنفد أحوالهم . فلما لم يترك لهم ظاهراً

ولا باطناً ، أمر بإضرام النار ، وسيق القاضى أبو المطرّف ، يرسف فى قيوده ، وأهله وبنوه حوله وقد حشر الناس من المسلمين والروم . ثم قال لملأ من المسلمين : « ماجزاء من قتل أميره عندكم فى شرعكم ؟» فصمتوا ، فقال لهم : « جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! » ، وأمر به وبجملته إلى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة. فضج المسلمون والروم ، وتضرعوا إليه فى ترك الأطفال والعيال ، إذ لاذنب لهم ، ولا علم بتلك الأمور عندهم ، فأسعف الرعية فى رغبتهم بعد جهد ومدة ، وترك النساء والصبية . وحُفر للقاضى حفرة ، وأدخل فيها إلى حُجزته ، وسوّى التراب حوله ، وضمت النار إليه . فلما دنت منه ، ولفحت وجهه ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم ضمها إلى جسده : فاحترق ـ رحمه الله تعالى !

ولم يكف غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده فى طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاءً فى استمساك البلدة وإبقاء الكلمة .

وعمد الطاغية ـ لعنه الله ! ـ بعد إحراق القاضى ـ رحمه الله ! ـ إلى الجلة من أهل بلنسية ، فثقفهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل الناس فى المحنة إسوة ، يأخذهم على طبقاتهم ، حتى عمتهم المحنة ، وهلك فى ذلك الثقاف كثير منهم ـ رحمهم الله وجعلها كفارة لهم !

• • •

ومما امتحن به أهل بلنسية فى هذه السنة المؤرخة قتال محمد بن علقمة

بلغ رطل القمح فى ربيع الأول بمثقال ونصف ، ورطل الشعير بمثقال، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم البغلى بستة دنانير ، ورطل الجلد البقرى بخمسة دراهم .

وفى ربيع الثانى ، عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى فى عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جحاف اقتحام الدور فحصاً عن القوت . وأعاد ابن جحاف استصراخ ابن هود ورغّبه فى المال والبلد، مع الأجر فى استنقاذ المسلمين من القتل والأسر .

وانسلخ هـــذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ، وما سواه تابع له . ولا يصل إلى إدراك شىء من الموجود إلا أهل الجاه ، وترمّق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومَن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بنى آدم . وهُجم على نصرانى وقع فى الحفير ، فأخذ باليد ، ووزع لحمه

وجدّ الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة، لئلا يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار، فعُبث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم فى صوامع الأرباض وبواسق الأشجار .

ودخل جمادى الأولى ، وعدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس. ولم يبق من ذلك الجم إلا نزر يسير . وتوالى اليبس ، واستحكم الوباء،

وبينما الرجل يمشي ، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلا اثنان لابن جحاف وابنه ، واثنان لابن رتْبيرْ . وباع ابن رتبير فرسه من الجزارين بمائتي مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال ، فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير ، وآخره باثني عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالا.

ولما بلغ الأمر إلى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسويف والمطل ، اجتمع الناس إلى الفقيه ابن الوليد الوقَّشي في التكلم لابن جحاف . فأخذوا الأمان بشرط التوقف ريثما يستصرخ من بمرسية وصاحب سرقسطة ، وعلى بقاء ابن جحاف على حاله آمناً في نفسه وماله وجميع أهله ، ويُخَلِّي اللعين عن المدينة بعد ماقدم عليها ابن عُدَيْس مشرفاً ، وتكون الأبواب بأيدى الروم البلديين إلى آخر الشهر المؤجل . وخرج الأرسال في منتصفه ، وهو جمادى الأولى . وفي هذا اليوم وصل القمح ثلاثة مثاقيل الرطل ، ورطل الشعير مثقالين ونصف ، وأوقية الجبن بعشرة دراهم ، وبيضة دجاجة بثمانية دراهم . وبعد ما نفذت الأرسال ، ارتفعت الحرب ، ولان السعر ، والحمد لله ! وذلك لما انصرم الأجل ، خرج القاضي إلى الكبيطور يوم الخميس منسلخ الشهر المذكور (١٧ يونيو سنة ١٠٩٤) . ثم صار وفتح الباب،ودخل اللعين إلى المدينة مع جملة من رجاله . وصعد جماعة منهم ، فملكوا الأبراج والأبواب ، وتسابق الباعة من موضع المحلة بالخبز والفوا كه إلى المدينة . وخرج أهل البلد إليها لابتياع القوت منها ، فتهللت الوجوه ، وانبسطت النفوس ، إلا أهل العقول والنظر في العواقب .

واستمرت المحنة عليهم إلى أن دخل شهر شعبان (١٦ أغسطس ١٠٩٤) ، فاتصلت الأنباء أن عساكر المسلمين بمرسية . فأشاع الروم: « إنه متى نزلت علينا محلة المسلمين ، أمضينا السيف على أهل بلنسية ! » ومشى بريحه : « من وجد عنده شيء من آلات الحديد ، فماله ودمه حلال ! » ، فبرئ الناس منه حتى من الإبر والمسامير . ووضعوا ذلك بباب القصر ، وقد تضاعف الجزع والخوف . ثم مشى بريحه من الغد بالخروج إلى البحر لجر القطع التى فيه إلى البر ، فلما تكامل الناس ، لحق بهم المترجم مع زعماء الروم ، فميزهم ، فمن كان من أهل اليسار صُرف إلى المدينة ، ومن كان من أهل النجدة جُرد ونُفي ، وغلب على الظن أنهم قتلوا ، فكان الحزن فى دورهم . واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان (١٤ سبتمبر - ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٤)، ومحلة الأمير محمد بن تاشفين ابن أخى أمير المسلمين بقرب المدينة ، واجتمع على الأمير محمد جميع عساكر المرابطين المغربية والصحراوية ، وجميع عساكر الأندلس . فلحق به تأييد الدولة صاحب لاردة ، وسيد الدولة من طرطوشة ، وحسام الدولة من شنت برية ، ونظام الدولة من اليُونْت ، فكانت أفعالهم ضد ألقابهم ، ولحق الشنياطى من الثغر ، وابن ياسين صاحب شبرب وابن مَلُول صاحب حصن الأشراف وغير هؤلاء المذكورين ، واستهل هلال شوال (١٤ أكتوبر ١٠٩٤) وصلى الناس بمنزل عطاء على ساقية هوارة . ومن كان بالمدينة من النصارى المعاهدين يتصنع لمن بها من المسلمين ، ولا شك عندهم فى غلبتهم لهم .

وفى الثامن من شوال (٢١ أكتوبر) ، أشاع اللعين أن ابن رُدمير (ملك أرغون) لحق بجملته لنصرته ، فأعمل الحيلة وأخرج جمعاً من الروم ، وأمرهم أن يشغلوا المسلمين بالتناوش ليظنوا أنه الكبيطور ، وخرج هو من حومة أخرى ، فأجفلوا أمامه ، فأخذ إلى المحلة ، فدوختها خيله . واتصل الصراخ بالأمير محمد ، فكرّ إليها ، ومتى انفض الناس عنه والمحلة تُنهب ، فتوقف العدو عن الاتباع وأقبل على النهب . ثم رجع إلى المدينة ، فشى بريحه باجتماع المسلمين إلى القصر ، ثم خرج عليهم ونظر إليهم وعرّض بذكر المرابطين وكثرتهم وأن ذلك ما أغنى عنهم ، وجعل ينظر فى عطفه ، ويشمخ بأنفه . ثم قال : «انظروا إلىّ فى سبعمائة ألف مثقال ، وإلا هلكتم ، وأحلت السيوف عليكم ! » ثم خرج وبقى المسلمون فى القصر ، وأغلق عليهم الباب ، فصاروا فى سجن ، والروم تحفهم بالأسلحة ، فرأوا الموت ، ووقع البهت . وخرست الألسنة . ثم رجع اليهودى وزيره إليهم ، وقال لهم: «لم أزل ألاطفه حتى قاطعتُه عليكم بمائتى ألف مثقال ! فبادروا بتوزيعها ، وأفدوا أنفسكم منه ! » فتوزع العدد على الأحوال واشتد ثقاف الأغنياء.

وبلغ اليهودى - لعنه الله ! - من المسلمين مبلغ الغاية فى العذاب وسلّط اليهود على الإسلام ، فبلغوا النهاية فى النكال والنكاية ، ومنهم الأمناء الموكلون ، والمتصرفون ، وأصحاب الرسوم ، وخدام البر والبحر . وجلس اليهودى للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسوط ، وقيض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل عدو ، فإن جاء

بشيء ، وإلا أخذ بالسوط والعذاب ، وتمادت هذه المحنة مدة ، فلا قوة إلا بالله العلي العظيم ! » .

* * *

وكان يطول بنا القول لو سردنا ، مستعينين بهذا النص العربي الجديد الذي اقتصرنا على إيراده دون إثقاله بالحواشي ، الأخبار المفصلة للأحداث التي وقعت في بلنسية وفي شرق الأندلس بين عامي ١٠٩٠ ، ١٠٩٤ ، كما عرضها منندث بيدال بإسهاب في كتابه « إسبانيا في عهد السِّيد » ، وإليه نكل بمحض إرادتنا العناية ، التي هو أهل لها دون غيره باستخدام الحقائق الجديدة المختلفة التي يتضمنها هذا النص بعد تقديره حق قدره ، وهو نص لا يغير في شيء الخطوط الأساسية ، للإطار الذي رسمه ، مستعيناً بالمصادر المسيحية بنوع خاص للجزء الأخير من حياة القنبيطور ، ويمكننا أن نؤكد مقدما أن العالِم الإسباني لن يتعرض للخطر الناشيء من الثقة العمياء بهذا المصدر العربي عندما ينتفع منه في طبعته الجديدة لهذا الكتاب ، إذ أن هذا النص يعتبر دون أدنى شك على جانب عظيم من الأهمية ، وإن كان يعتبر بالتأكيد متحيزاً من بعض جوانبه .

ومع ذلك فإن منندث بيدال لن يفوته أن يدرك أن تاريخ هذه الحوادث كما هو مقرر على ضوء الفصل المذكور في البيان ، والنقول التي أوردها مؤلفه ، لا يتفق دائما مع التأريخ الذي اقترحه معتمدا في بعض الأحيان على مجرد الفروض .

وليس أدنى حسنات هذه الوثيقة الجديدة أنها تتضمن ، فيما يتعلق بهذا التأريخ ، عدة حقائق يحتمل جداً أنها صحيحة موثوق بها ، هذا فضلا عن أنه يحل بطريقة نهائية لا تحتمل الجدل المسألة التى تهم مؤرخى العصور الوسطى والمشتغلين بالدراسات الأسبانية على السواء ، ونعنى بها صلة القرابة المباشرة بين تاريخ السيد كما ورد فى المدونة الأولى للتاريخ العام وبين تاريخ بلنسية لابن علقمة .

* * *

تذيـــل

كان المخطوط الذى نشرنا منه الصفحات الســـابقة موجوداً فى المطبعة عند ما تفضل رامون منندث بيدال أثناء رحلتى بمدريد فى ربيع عام ١٩٤٨ فأعطانى مع المجلدين الجميلين للطبعة الأخيرة من كتابه « إسبانيا فى عهد السيد» (مدريد ، اسباسا - كلبى ١٩٤٧) وهما يؤلفان الجزء السابع والثامن من مجموعة مؤلفاته الكاملة ، فصلة من مقال ظهر وقتئذ فى الجزء التاسع عشر (رقم ٣٥—٣٦ ، مدريد ١٩٤٨) من مجلة الدراسات السياسية Revista de Estudios politicos عنوانه السياسة وحركة الاسترداد La politica y la Reconquista (هو نقد لآخر ما كُتب عن السيد) ، وفى هذا المقال يعرض العالم الأسبانى الجليل لبحث نشر فى نفس المجلة (مجلد ١٧ صفحات ١٠٩ — ١٤١) كتبه خوسى كامون آثنار José Camón Aznar عنوانه : « السيد : شخصية

مستعربة » El Cid : personaje mozárabe » يلى ذلك النص الحالى طبقاً للنسخة التى أرسلتها إليه مكتوبة على الآلة الكاتبة .

إننى أتفق تماما مع دون رامون على الأهمية العظمى للمصادر الجديدة عن السيد التى أتيح لى كشفها خلال هذه السنوات الأخيرة ، وإنى لسعيد ، إذ استطاع أن يستخدمها فى كتابه ، فقد ضمن الجزء الخاص بالنصوص من كتابه (ص ٨٩٢ – ٩٠٤) فى الوقت المناسب الترجمة الفرنسية لنص ابن عذارى ، وذيله به (٩٧٧ — ٩٧٩) .

ذيـــل «١»

« قطعة من كتاب لمؤرخ مجهول عن ابن جحاف والسبر »

ذكر دولة القاضى أبى أحمد جعفر بن جحاف بن عبد الله بن جعفر ابن عبد الرحمن بن جحاف بن يمن بن سعيد المعافرى البلنسى وذكر سببه:

« لما ملك القادر بلنسية أحدث فيها أحداثا وغير أحكاما وأظهر منكراً كثيراً وصادق ألفنش وهاداه وراسله ، فخاف أهل بلنسية منه أن يملكها للفنش كما ملكه طليطلة ، فاجتمعوا وعزموا على قتله وتقديم ابن جحاف ، فدخل عليه وقتله ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان كما تقدم ، وبويع ابن جحاف فى صبيحتها وهو يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة ودخل القصر فوجد فيه من الأموال والأثاث وذخائر الملوك شيئا كثيراً واحتوى على ذلك كله ، وتفقه بشاطبة على أبى عمرو بن عبد البر وسمع الحديث من أبى العباس العدوى وغيره وأقام بها ملكا إلى أن غزاه قمط من أقماط النصارى يقال له القنبيطور ومعناه صاحب الفحص ، واسمه لذريق ، فطمع فى أخذ بلنسية فضايقها مضايقة شديدة وحصرها حصراً عظيما. وقطع عنها المرافق، ونصب المجانيق، ونقب الأسوار، وعدم الناس الطعام ، وأكلوا الفيران والكلاب والجياف إلى أن أكل الناسُ الناسَ ؛ ومن مات منهم أكلوه ، فبلغ الناس من الجهد مالا يطيقون ، وقد ألف ابن علقمة كتابا فى أمرها وحصارها يبكى القارىء ويذهل العاقل .

فلمـــا طال عليهم البلاء ، وعدموا الصبر ، وكان المرابطون قد خرجوا من الأندلس إلى العدوة ، ولم يجدوا ناصراً ، عزموا على تسليمها للقنبيطور . فاستأمنوه على أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، واشترط على ابن جحاف أن يعطيه جميع ذخائر القادر فأجاب كل منهما إلى سؤاله ، وانعقد الصلح بينهما ، وفُتح الباب ، ودخل القنبيطور البلد ، ونزل فى القصر ، وتملك بلنسية وذلك فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . فكانت دولة ابن جحاف ثلاث سنين وأربعـــة أشهر وسبعة أيام . ثم إن القنبيطور قتل ابن جحاف ، وكان سبب قتله أن القنبيطور ، لعنه الله ، لما تسلم من ابن جحاف جميع ذخائر المقتدر ، كان ابن جحاف قد أمسك منها ذخيرة نفيسة ، فوقع عليها عند القنبيطور ، فسأله عنها ، فأنكرها فأمر بحلفه بحضرة الشهود وأعيان المسلمين وأعيان النصارى لحلف أنه ما رآها ولا هى عنده نخلى سبيله . ثم إنه عثر بعد ذلك عليها ، وقال أبو العباس أحمد بن علقمة فى تأريخه ، وهو ممن شهد الموطن ، وكان فى الحصار ، أن القنبيطور طلبه فى الأموال ، فأخرج له أسبابا كثيرة وأثاثا كثيراً ، فقال له القنبيطور ، ومن تكون عنده الأسباب ما يكون عنده مال ، فغضب وأمر بتعذيبه فعذب عذابا شديداً ثم أمر به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها . وأصير الحطب حوله ، وأوقدت فيه النار ، فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه ، ولم تزل بلنسية تحت يده إلى أن استخلصها منه مزدلى المرابط سنة خمس وتسعين » .

ذيـــل «ب»

«رواية ابن الخطيب عن ابن جحاف والسيد»

١ ــ مقتل القادر بن ذى النون فى بلنسية

«وانتقل حفيد ابن ذنون إلى بلنسية بمشايعة ملك قشتالة ووجه معه جيشا حتى دخلها واستقر بها إلى شهر رمضان من سنة ٤٨٥ وقد تملك ابن عائشة ، قائد يوسف بن تاشفين ، مرسية . فاستدعاه أهل بلنسية وعرضوا عليه مدينتهم فأقبل إليها نائبه بجيش من اللمتونيين ، وخرج القاضى ابن جحاف والفقهاء لتلقيه وإدخاله البلد، ففر ابن ذنون من القصر ولم يمكنه الخروج من المدينة ، فاختفى ببعض الدور الخالية، فظُهر عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة ، وسيق إلى القاضى ابن جحاف فأمر بقتله ، تولى ذلك فتى من بنى الحديدى القتيل بطليطلة ، وطيف برأسه ، واحتوى ابن جحاف على ما كان له ، وطرحت جثته فى سبخة ، فواراه رجل احتسابا وصدقة ، ودفن دون كفن ، فانقطعت مدته على هذه السبيل» .

* * *

٢ ــ أيام القاضى أبى أحمد بن جحاف رئيس بلنسية

«... وكان قاضى حضرة بلنسية وله فيها الأصالة الماجدة ، الناطقة بالقدم الشاهدة ، وكان قد سئم إضافة عدو الله الكنبطور بيلنسية ، وسومه أهلها خطة الخسف ،وسئم الذل ، وضاق صدره بحفيد ابن ذنون المنتقل إليه ، بعد تمكين النصارى من طليطلة ، فقوى بمكان دولة اللمتونيين وانثنل على أيديهم كشف المحنة والخروج من ذل

الكنبطور ، متعبد أهل بلنسية ، وحالب ضروع جباياتها بصرامته ، فاستدعى محمد بن عائشة قائد يوسف بن تاشفين ، فوجه إليه جمعاً من المرابطين ، وبرز الناس إلى لقائه ، وفر عند ذلك حفيد ابن ذنون من قصره ، وثار البلد به ، وعُثر عليه فقتل بأمر القاضى ابن جحاف كما تقدم ، وتمت بمقتله الرياسة فى البلد لابن جحاف ، فرتب الأجناد والخدمة ، واستشعر أبهة الملك ، وعين الألقاب ، وحذا حذو ابن عباد باشبيلية ، فلم تساعده الأيام ، وخاطبه عدو الله الكنبطور يهنيه على ماتهيأ له وفى قلبه من استظهاره بسلطان لمتونة النار المضرمة ، وأخذ يعرّض له بالحسنة التى اكتسبها فى شهر صومه من قتل سلطانه ، ويطلبه بالأطعمة التى كانت له بحصون بلنسية انتهبها رجاله فى حال الحادثة ، فراجعه أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين والأطعمة قد انتهبت ، فكتب إليه الكنبطور يقسم بمحرجات أيمان دينه ألا يبرح عن بلنسية حتى يظفر به ، ويأخذ ثأر ابن ذنون ، وخاطب من يجاوره من أهل الحصون الذى لاطاقة له يستمد الأقوات للمحلة .

ثم كاد الكنبطور عدو الله ابن جحاف وخدعه وداخله فى إقامة أوَده ، وتوطيد ملكه إذا صرف اللمتونيين وأزعجهم أنه يسوغ استبداده بالملك ويقيمه مقام ابن ذنون ويقاتل عنه من يريده ، وكان استثقل القوم وضاق بمؤنتهم ففعل ، وعند ذلك استبصر فى التضييق عليه ، فعظم الغلاء ، وتضاعف البلاء ، واستصرخ بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين فبعث إليهم جيشاً عظيما أتيح للكنبطور عليه الظهور ، فأيقن الناس بالهلكة ، واشتد عليه كلب العدو إلى أن استأمنوه

لأنفسهم ، وخرج إليه ابن جحاف وأحكم معه العقد ، ودخل العدو المدينة فى جمادى الأولى من سنة ٤٨٧ ، وتجهزت إليه جيوش المسلمين ثانية ، فما أغنت وفازت بها قداحه ، ولما تمكن فيها سام أهلها سوء العذاب واستخلص أموالهم وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف .

واعتقل القاضى أبا المطرّف جعفر بن جحّاف ، وعم بالنكبة جميع قرابته وأهله وطلبه بمال حفيد ابن ذنون ، فلما استصفى جميع ماله من ظاهر وباطن أمر بإضرام النار ، وسيق القاضى أبو المطرف يرسف فى قيوده بين أهله وولده ، وقد حشر الناس من أهل الملتين ، وقال الكنبطور للملأ : ماجزاء من قتل أميره عندكم فى شرعكم ؟ فصمتوا . فقال : أما نحن فجزؤه عندنا الإحراق . وأمر به وبجملته إلى تلك النار وقد لفحت الوجوه على المسافة البعيدة ، فضج المسلمون والنصارى وتضرعوا إليه فى ترك الأطفال والعيال إذ لاذنب لهم فأسعف الرغبة بعد جهد ومدة ، واحتفر للقاضى أبى المطرف حفرته وأدخل فيها إلى حجزته وسوّى التراب حوله وضمت إليه النار . فلما لفحت وجهه قال: بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم ضمها إلى جسده فاحترق رحمه الله ، ولم يكن غضبه عليه إلا لاجتهاده فى طلب النصر ودفعه إياه بالمطاولة رجاءً فى استمساك البلدة للإسلام واستبقاء الكلمة فيها ، وعمد بعد إحراقه إلى الجلة من أهل بلنسية فثقّفهم بحال تفرقة بين سجون الرجال منهم والنساء ، يتجاوب صراخهم أمام المحنــــة حتى استأصل جميع ماعندهم وجعل الناس فى الضغط أسرة على طبقاتهم ، وهلك فى الثقاف خلق كثير منهم ، رحمهم الله ، فى أخريات السنة ».

الفصل الثامن

خواطر عن دولة المرابطين
فى مطلع القرن الثانى عشر

ظهر هذا المقال فى ديوان جامع للدراسات التى نشرتها الجمعية التاريخية الجزائرية بمناسبة مرور خمسين عاماً على كلية الآداب بجامعة الجزائر، الجزائر عام ١٩٣٢

هناك حدود لم تتغير إطلاقا فى مجموعها ، تفصل منذ قرون عديدة المغرب عن بقية شمال أفريقيا ، وليست هـذه الحدود مجرد حاجز طبيعى أو سلسلة من الجبال أو مجرى للمياه ، وإنما هى ، شأنها فى ذلك شأن الحدود التى تقوم بين الدول ، سياسية بوجه خاص ، فهى تحدد على الأقل فى نطاقها الشمالى ، أقصى النقط التى بلغها التقدم التركى فى الجزائر فى العصر الحديث .

وتلمسان الواقعة فى الجانب الآخر من هذه الحدود مدينة مراكشية فى مظاهرها أكثر منها جزائرية ، فكثير من آثارها القائمة حتى يومنا هذا داخل أسوارها أو كثير من بساتينها ، من عمل سلاطين فاس ، وكذلك يوجد إلى الشرق فيما بين مراكش وبقية المغرب فاصل طبيعى ، ومن المستطاع بلا شك إدراك مابين القطرين من فوارق فى الكيان الجغرافى والمناخ ، وبالتالى فى نوع الحياة التى يحياها السكان ، أما الاختلافات الاجتماعية والسياسية فلا يمكن إنكار وجودها ، رغم الوحدة الدينية فى المغرب كله ، ولكن هذه الاختلافات لم يبدأ ظهورها فى التاريخ قط إلا منذ نهاية العصر الوسيط أى منذ اللحظة التى صارت فيها مراكش الدولة الوحيدة المستقلة فى شمال أفريقيا ، والدولة الوحيدة التى لم تقع تحت سلطان دول إسلامية أخرى ، والواقع أنه منذ القرن السادس عشر أخذت الظروف المختلفة ،

ولاسيما الريبة فى الأجنبي ، سواء فى ذلك المسيحى المواجه للبلاد أم المسلم الذى يجاورها ، تملى على مراكش منهجاً لن يتغير قط ، يدفعها إلى إغلاق حدودها فى البر والبحر ، وانعزالها عن الخارج انعزالا تاما . ومن هنا يمكننا أن نفسر تلك المفارقة لبلد كبير ، قريب من أوربا ، ولكن انعدم فيه كل تطور إلى بداية القرن العشرين ، بلد كان التقدم فيه أسطورة ، عاش منطويا على نفسه ، ورضى بأن يظل مغلقا فى عالم تقاليده الروحية والاجتماعية والسياسية الضيق ، بحيث لم يستطع أى سلطان مهما كان عليه من همة وقسوة كثيراً ما تذكر فى التاريخ الإسلامى ، ولا ملك رزق حصافة سياسية ، أن يباهى بأنه قد بسط سلطانه يوما واحداً على جميع هذه المساحة الشاسعة من أملاكه الاسمية . فالحرب الأهلية أو بعبارة أدق الثورة الصماء الخفيـــة فى نواحى الامبراطورية ، ثم المدن التى بقيت جامدة على حالتها فى العصور الوسطى ، والنظام الذى فقد قيمته بمرور الزمن ، كل ذلك كان يؤلف مجموعة من العناصر البراقة الموضوعة فى غير وضعها التاريخى . ولكن الحياة التى كان يحياها هذا البلد كانت بطيئة فى تقدمها بحيث تفضى بالمرء إلى التساؤل : هل عرفت مراكش المصائر العظمى التى يحكيها تاريخها القديم ؟ كل ذلك قد تغير اليوم . فإن مراكش ، مدفوعة برغبتها فى التآلف والوفاق ، قد أظهرت حماسا لا يرتاب أحد فيه ، فقد سلكت سبيل التقدم دون أن تشعر مع ذلك بأى دهشة ، ولم يعد المواطن يفكر فى الماضى ، وأقبل على الأخذ ببعض الأساليب الحديثة

لتطبيقها فى حياته بهمة لا عهد له بها من قبل ، ولكن هذا اقتصر على بعض الجوانب فقط ، فالتقاليد لا تزال بعيدة عن أن تنمحى فى مراكش . ولكن المغربى ، وخاصة فى المدن ، استطاع أن يسترد الزمن المفقود بخطى سريعة فى أغلب الأحيان مما دهش له العدد الأعظم من الذين طافوا بتونس والجزائر قبل الوصول إلى مراكش، فهم فى الغالب لم يقوموا بالتحرى العلمى الذى يتيح لهم تفسير الفروق التى يجدونها بين مراكش وجارتيها فى الشرق ، ووزن هذه الفروق وزنا حقيقيا ، فمراكش — عندهم — شىء آخر ، وهذا حق فى أغلب الأحيان ، ففى ماضى بلاد المغرب على وجه خاص تؤلف مراكش مجموعة منفردة بذاتها منذ أقدم عصور تاريخها .

كان يسيطر على هذا التاريخ فى العصر الوسيط دفع مزدوج من الفاتحين ومؤسسى الدول ، دفع المرابطين ، ودفع الموحدين، وقد كان لهذين اللفظين ، وعليهما مسحة قديمة بعض الشىء ، حق الذكر فى لغات أوربا منذ زمن بعيد ، ولا سبيل الآن إلى أن تذهب بهما أية صورة من صور الكتابة ، فهما ، كما يثبت ذلك استعمالهما فى القديم ، أظهر أمارة دالة على الدهشة التى أصابت أمراء النصارى وملوكهم فى شبه الجزيرة الأيبيرية حيال مالا سبيل إلى صده من سطوة أولئك البربر الذين راحت جماعاتهم الواحدة تلو الأخرى تنزل بهم الهزائم المدوية فى أوربا ذاتها . ومعرفة عدو باسمه الحقيقى حين يكون هذا العدو مسلما ، وتمييزه عن جمهرة السكان من أهل الملة النصرانية ، امتياز نادر جداً فى كتب التاريخ فى العصر الوسيط المسيحى بأوربا ،

فالمرابطون والموحدون يدويان كأنهما من أسماء الرعب فى مصنفات التاريخ اللاتينية التى تروى أخبار « الاسترداد » .

ومع ذلك فيجب الاعتراف بأن الجد الذى حظى به الموحدون لم يلبث أن كسف إن لم يكن قد ذهب بالضوء العابر لسابقيهم فى تاريخ المغرب ، وإذا كنا على علم لا بأس به منذ سنوات بفضل ما أورده المؤرخون العرب عن بداية حركة الموحدين وارتفاع شأنها ، فإن ما لدينا من أخبار عن المرابطين لايزال قليلا نسبياً يدعو إلى التأسف ، فهؤلاء الملثمون أبناء الصحراء الذين لم يلبثوا أن تهيأت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ، ثم لم يلبثوا أن « تأسبنوا » بمجرد الاتصال بالحضارة الإسلامية فى الأندلس ، برزوا حقاً فى العصر الوسيط المغربى ، ولم يكن هذا شأن الفارس البربرى العظيم يوسف ابن تاشفين وحده ، وإنما كان أيضاً شأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة طويلة من الرخاء والازدهار .

* * *

لقد ترك يوسف بن تاشفين لخلفه امبراطورية هائلة بعد وفاته فى سنة ١١٠٦ ميلادية (٥٠٠ هجرية) ولم يكن على بن يوسف قد تجاوز وقتئذ الثالثة والعشرين من عمره ، وكان اسمه منذ توليه إمارة المسلمين على ماذكر أحد المؤرخين يذكر على ألفين وثلثمائة منبر فى مساجد المغرب والأندلس ، قد امتد سلطانه من بجاية إلى السوس الأقصى ، ومن تفيللت إلى السودان ، كما كان يخضع له جنوب شبه جزيرة أيبيريا بأجمعه ،

وعماله يمتد حكمهم إلى جزر البليار ، فقد دان للمرابطين الجزء الغربي من المغرب ثم إسبانيا فى عدة سنوات بفضل الجهود التى بذلها يوسف ابن تاشفين ، وكانت دولة المرابطين فى أوجها ، والأسرة البربرية تزداد على مر الأيام رقة وترفا بحيث صدق ما قيل فى هذا العصر من أن الثقافة الأندلسية سادت فى مراكش . غير أنه لم يستطع أحد حتى ذلك الحين أن يدرك أن عناصر الضعف ، وقد راحت تتجمع خفية حول الأمير ، أخذت تعرض قوته أولا للضياع لتمحوها بعد قليل من الوجود . وكان لا بد للمحافظة على السلام فى مثل هذه الدولة المترامية الأطراف من جيش نظامى من الطراز الأول ، وقوات متحركة تجمع حولها فرق المجاهدين فى إسبانيا ضد المسيحيين ثم تحافظ على سلامة الأراضى المغربية وتحبط أدنى محاولة للثورة ؛ ولم يكن السهل لديهم بذى بال ، فقد أمضه القلق من رؤية كتائب الملثمين تنقض عليه وترده إلى الصواب بتدمير قراه والإتيان على زرعه وإعمال السيف فى ثائريه . أما الجبل فقد كان على الضد من ذلك أقل ضماناً لأن المغامرين كانوا يجدون فيه مأوى حصيناً ، ويغلب على الظن أن المرابطين مارسوا فى الأطلس سياسة تشبه إلى حد ما السياسة التى تبعناها نحن أنفسنا خلال أعوام طويلة : وهى أن يمنحوا الرؤساء المحليين وهم « الإمغارن » نفوذاً عظيما ، فهم مسؤولون عن أقوامهم أمام السلطان الأعلى ومكلفون بالبطش بأقل ثورة فى غير هوادة . وتتجلى هذه السياسة فى الوصية السياسية ليوسف بن تاشفين إذا أخذنا

بما ذكره مؤرخ مسلم ، وقد استطاع على أن ينتفع بها لنفسه ولخلفائه من بعده ، فقد كان مما أوصاه به فيما ذكر صاحب الحلل الموشية : « ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة »[1] . فهل كان يوسف يحس بأنه سيخرج من جبل جنوب مراكش فاتحون جدد يأتون ، وهم يمضون فى طريقهم كأنهم سيل بشرى ، على البنيان المجيد الذى أقامه يوسف ؟ ثم ألم يكن الباعث على اختياره لموقع عاصمته مراكش على ضفاف وادى تنسيفت التمكن من مراقبة هؤلاء الجبليين الذين تحوم حولهم الشكوك والريب ؟

لم تكن عاصمة جنوب مراكش بادئ ذى بدء فى الحقيقة إلا معسكراً حربياً كبيراً ومقراً لقيادة القوة اللمتونية ، هى فيه بالمرصاد لسكان الجبل الذين قد يهبطون من الأطلس الأعلى . وليس من شك فى أن مدينة عظمى مجاورة تقع على حافة هذه السلسلة نفسها كانت قد جذبت المرابطين أول الأمر ونعنى بها أغمات وريكة التى شهد جميع جغرافيى العرب برخائها فى هذا العصر ، إلا أن سكان هذه المدينة ومنطقتها كانوا أول من تمنى أن يرحل عنهم سادة البلاد الجدد . وفى هذا قال ابن خلدون : « وجعل يوسف مدينة مراكش لعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها فى جبل درن »

فلم تكن مدينة مراكش فى مبدأ أمرها سوى معسكر كبير ثابت ، حفرت فيه الآبار لاجتلاب المياه ثم بنى فيها مسجد وقصبة صغيرة

(١) الحلل الموشية ص ٦٧

اتخذت لحفظ الأسلحة وأسلاب الحرب ولم تأخذ عاصمة المرابطين مظهرها الحضرى إلا فى وقت متأخر وذلك فى عام ١١٣١ — ١١٣٢ م (٥٢٦ هـ) . ورأى على بن يوسف أن يقيها غزو الموحدين فأقام حولها الأسوار ، وشيد لنفسه قلعة جديدة مع قصر ومسجد ، وظلت قصبة أبيه مدة طويلة ، البناء الوحيد بالمدينة ، المشيد بالحجر بدلا من الآجر ، ومن هنا كان اسمها الذى حفظه لنا بعض المؤرخين وهو « دار الحجر » أو « قصبة الحجر » . وسرعان ما اتسعت المدينة فى يسر وسهولة حول هذا الحصن ، واستحقت فى عهد على بن يوسف أن تسمى بالعاصمة وذلك لعظم مساحتها وكثرة سكانها وتنوعهم ، إلا أن الموحدين عملوا بدورهم على جعلها حاضرة حقيقية رائعة ، فشيدوا فيها معظم الآثار التى تثير الإعجاب فى الوقت الحاضر .

والظاهر أن على بن يوسف كان يرضيه وهو فى مقر حكومته بمراكش أن يولى وجهه شطر الشمال حيث إسبانيا دون الجنوب حيث الجبل القريب منه الذى جهد فى إخضاعه لسلطانه وذلك بلا شك أمر يرجع إلى هواه الشخصى ، فثانى أمراء المرابطين لم يكن صحراويا قحاً كما كان أبوه من قبل ، فهو لم يولد كذويه فى الصحراء وإنما ولد على ضفاف البحر الأبيض المتوسط فى سبتة ، من أم نصرانية من السبايا رائعة الجمال ، وقد تلقى منذ نعومة أظفاره ثقافة أندلسية بحتة ، ولم يكن مثله الأعلى هؤلاء الأمراء المغاربة المستضعفين الذين قضى أبوه على سلطتهم الذابلة ، وإنما همه أن يتشبه بخلفاء قرطبة العظام

وحجاب بنى عامر الذين سبقوا ملوك الطوائف مباشرة فى شبه الجزيرة . وقد استطاع يوسف بن تاشفين بجوازه أربع مرات إلى الأندلس ، وبانتصار جيوشه فى واقعة الزلاقة عام ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) أن يجدد فى البلاد سنة الجهاد لمدافعة النصارى . وهكذا كان لعلى بن يوسف عند اعتلائه العرش برنامج سياسى مرسوم ، وضع كل همه لتحقيقه على الأقل فى الحقبة الأولى من حكمه ، فجاز إلى إسبانيا منذ نهاية سنة ١١٠٦ (٥٠٠ هـ) وهى السنة التى نُصِّب فيه أميراً للمسلمين لإعادة تنظيم حكومة المرابطين فيها وتحقيق مشروعاته فى الجهاد ، وكانت الممالك المسيحية وقتئذ فى ظروف متفاوتة للغاية من حيث تعزيز قوتها وسلاحها لصد هجوم المرابطين . ففى ليون وقشتالة كان ذلك آخر عهد ألفونس السادس إذ قدر له أن يموت فى العام التالى تاركا عرشه لابنته أراكه ؛ وفى البرتغال كانت الأميرة تيريز ، أرملة هنرى دى بورجونى هى التى تقوم بأعباء الحكم . أما الشمال الشرقى فكان أمره لأميرين قويين لهما سطوة هما ألفونس المحارب فى مملكة أرغون ورامون بيرينجر الثالث فى مملكة قطالونيا ، جعلا كل همهما محاربة المسلمين . ولما وصل على بن يوسف إلى شبه الجزيرة ولى أخاه تميما حكومة البلاد وقيادة الجيوش . واستطاع تميم سنة ١١٠٨ (٥٠١) أن يضيف مجداً جديداً إلى سلسلة أمجاد المرابطين ، فأنزل بالمسيحيين فى موقعة أقليش أو « الأقماط السبعة Sept Comtes » ، هزيمة منكرة لقى فيها الأمير دون سانشو ابن ألفونس السادس وزايدة المسلمة

المعروفة ، حتفه . وقد أفضى هذا النصر بعلى بن يوسف إلى أن يجىء بنفسه ليضطلع بأعباء الحرب على حـــدود بلاد الشرك . ففى عام ١١٠٩ — ١١١٠ (٥٠٣) جاز إلى إسبانيا على رأس جيش كثيف ، وقد جعل همه الاستيلاء على طليطلة التى كان ألفونس السادس ملك قشتالة قد دخلها بدون مقاومة فى العام السابق للزلاقة ، فدمر على أراضيها ، ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها بعد شهر واحد دون أى نتيجة تذكر ، وكان أحد أقاربه وهو الأمير سير بن أبى بكر ، أكثر توفيقاً منه فى حملة جردها فى العام التالى على البرتغال . فسقطت مدينة شنترين وبطليوس وبورتو ويابرة ولشبونة فى أيدى المرابطين ، ثم تتابعت الحملات التى قام بها قواد جيش على بن يوسف خلال أعوام كثيرة ، يحالفها التوفيق أحيانا وتمنى بالفشل أحياناً أخرى ، إلا أن وجود قوات المرابطين على الحدود كفل للأندلسيين أمناً لم يكونوا يعرفونه منذ أمد بعيد ، ووجدت إسبانيا الإسلامية وقتئذ فى السلام متعة الحياة وأحست بالرغبة فى التفوق فى جميع الميادين أمام أنظار العالم الإسلامى والاحتفاظ كذلك بهيبتها ونفوذها فى البلاد التى جاء منها ساداتها الجدد وأولياء نعمتها .

* * *

يعتبر حكم على بن يوسف شاهداً على الصبغة الإسبانية الشديدة فى تاريخ إمبراطورية المرابطين الإفريقيين ، فإن إسبانيا فى ذلك العصر

لم تؤثر فى مراكش من عدة نواح فحسب ، وإنما قصد مراكش عدد كبير من الأندلسيين ليقيموا فى بلاط الأمير بمدينة مراكش . وقد زودنا المؤرخ عبد الواحد المراكشي بمعلومات هامة فى هذا الشأن . قال : « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبي القاسم بن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة ، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبي عبدالله ابن أبي الخصال ، وأخيه أبي مروان وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبههم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله بن محمد بن أبي الخصال ، وحق له ذلك ، إذ هو آخر الكتاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى » . وقد اختار له المراكشي فصولا من رسالة جرى فيها على النثر المسجوع . وعلى هذا النحو تغير البلاط البربرى الصغير ليوسف ابن تاشفين دفعة واحدة ، ولا شك أن الأندلسيين وكانت كلمتهم مسموعة من السلطان فيما يشيرون عليه قد ساهموا بقسط كبير فى الإصلاحات الإدارية التى نهض بها . ومن المحقق أنهم لم يكونوا بمعزل عن القرار الذى اتخذه على بن يوسف بأن يحيط نفسه فى مراكش بفرقة من جنود النصارى وبتكليف بعض ضباط هذه الفرقة بأعمال هامة من بينها جباية الضرائب على حد قول أحد المؤرخين ، وذلك

أمر مألوف فى إسبانيا منذ عهد طويل [١] ، وقد اضطلع قائد قطالانى الأصل من برشلونة اسمه رڤرتر Reverter أو روبرتير كما يسميه مؤرخو العرب ، بعد ذلك بقليل ، بدور هام

ونختم هـــذا الموضوع ، ولعل ذلك هو أهم مظهر لهذا النوع من الأثر الذى أحدثته إسبانيا فى مراكش ، بالقول بأن ذلك النفوذ الهائل الذى كان يتمتع به العلماء والفقهاء فى الأندلس ومشاركتهم فى شؤون الحكم امتد إلى مراكش ، إذ سرعان ما اجتمع إلى على بن يوسف عدد غير قليل من هؤلاء الفقهاء ، وهم الذين استنزلوا اللعنات على ملوك الطوائف فى الأندلس عند قدوم يوسف بن تاشفين إليها فأفتوا بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم ، وأظهروا حمية وغيرة على الإسلام لما أصابه ، وكانوا ينظرون إلى سلطان المرابطين الأعظم على اعتبار أنه المنقذ ، واستحال ذلك التسامح الرائع الذى كان يتميز به الإسلام فى إسبانيا خلال القرن الحادى عشر إلى عداوة لمن لم يشاطرهم كل معتقداتهم . ويجدر بنا لكى ندرك المآخذ التى أخذها ابن تومرت والموحدون على المرابطين أن نرسم الخطوط الأساسية لإطار الإسلام المغربى فى مستهل القرن الثانى عشر ، ولدينا لحسن

---

(١) فى الحلل الموشية أن على بن يوسف « هو أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم وقدمهم على جباية المغارم » . الحلل ص ٦٩

الحظ دراسة رائعة بجملة عن هذا الموضوع قام بها جولدتسيهر. ومن الخير أن نثبت جوهر ما ذهب إليه:

لا يخفى أن أهل السنة سادت بينهم أربعة مذاهب ينسب كل منها إلى إمام المذهب، وهي: المالكية والحنفية والحنابلة والشافعية، هذا إلى جانب الشيعة الذين تختلف آراؤهم عما أجمع عليه أهل السنة. ومنذ القرن التاسع انتهى الأمر بالمغرب، ونعنى بهذه التسمية معناها الواسع أى المغرب الإسلامى كله ويشمل شمال إفريقيا والأندلس، إلى إيثار مذهب مالك ابن أنس بعد محاولات قام بها الأحناف لنشر مذهبهم، وأخرى قام بها الفاطميون لبث الدعوة الشيعية. وكان عام ١٠٤٨ (٤٤٠هـ) هو العام الذى تم فيه الانتصار الكامل لمذهب المالكية فى المغرب، وكانت وحدة المذهب التى حظى بها الفقهاء المغاربة فى جميع أنحاء البلاد مما أضفى على أحكامهم وعملهم ما يشبه الثبات، وسرعان ما أصبح هذا العمل قاعدة. ثم إنهم بدلا من أن يولوا دراسة الحديث المكان الذى تستحقه، نراهم قد انصرفوا عنه، ولم يعودوا يرجعون إلى الأصول يستنبطون منها الأحكام ويتخذونها مادة للدراسة وإنما اكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة فى كتب الفروع وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ. يقول عبد الواحد المراكشى: « ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علمَ علم الفروع، أعنى فروع مذهب مالك، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونبذ

ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء » . وكان من أثر هجر الفقهاء لدراسة الحديث وما يتصل به من مصادر أن ألغى علم أصول الفقه الذى تستنبط بمقتضاه أحكام قد تكون جديدة ، وأدى الاعتماد على الفروع التى تتضمنها كتب المذهب إلى تجريد الدراسة من روح الكشف الجذابة ، وانساق القوم وراء التقليد وانصرفوا عن النظر والاجتهاد ، وكان موقف الدراسات الكلامية فى موضعه من الجمود المشتهى عند ظهور دعوة ابن تومرت ، ومن هنا لم يلبث هذا الناقد البربرى حين عاد من المشرق أن صدمته العقيدة السائدة فى المغرب وراح يناهضها بأقصى قوة ، إلا أن ذلك لم يكن قط المأخذ الوحيد الذى أخذه المهدى المقبل على المرابطين ، بل كان هناك ما هو أشد خطراً فى رأيه ، ألا وهو التجسيم ، وكان منشأ هذا الخطأ فى نظره أن فقهاء المغرب فى عهد المرابطين ، خلافاً لزملائهم فى المشرق وقد بلغوا حينئذ من التطور غايته فيما يتعلق بمباحث علم الكلام ، ظلوا يلتزمون ، فى الآيات القرآنية التى فيها ذكر لصفات الله ، النص الحرفى لها مما يفضى إلى تجسيم للذات الإلهية وإلى إثبات صفات جسمانية له تعالى ، كانت هناك بطبيعة الحال عقبة كأداء بين هذه النظرية القائمة على التفسير الساذج لما تعبر عنه النصوص الأصلية ، وبين النظرية القائلة بالتنزيه المطلق على نحو ما تعلمه ابن تومرت من أساتذته المشارقة واعتنقها فى حماس كبير .

يذهب بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون إلى أن نجم على بن يوسف لم يأفل إلا فى اللحظة التى جرد فيها ابن تومرت وأتباعه الحملة على المرابطين ، ويرى آخرون على العكس من ذلك أن حال أمير مراكش اختلت اختلالا شديداً فى السنوات العشر الأولى عقب توليه الأمر. والظاهر أن عبد الواحد المراكشى ، وهو مؤرخ متأخر « مغترب » لا تخلو روايته تماماً من التحيز ، قد رسم مع ذلك لولاية على بن يوسف صورة دقيقة إلى حد ما جديرة بالثقة ، ويعتقد أن ضعف سلطان المرابطين ما لبث أن أذكى حول عرشه أطماع أقاربه ، وقد ولى كبار المرابطين مناصب هامة فى أنحاء الإمبراطورية فادعوا الاستبداد ولم يعودوا يقرون له إلا بحق إمارة المسلمين المبهم ؛ والواقع أنهم كانوا يباشرون السلطة التى خولها لهم الأمير فى استقلال كانوا يأملون أن يكون مطلقا ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح . فصار كل منهم يصرح بانه خير من أمير المسلمين وأحق بالأمر منه ، وتطلع النساء إلى أن يكون لهن دور المشيرات بل الآمرات فى البلاط ؛ وللنساء فى مجتمع لمتونة الصحراوى منزلة حرصن على أن يحتفظن بها فى بلاط المرابطين ، وأتاحت لهن حرية الحياة النسبية التى لم يفقدنها على الإطلاق عند رحيلهن عن الصحراء ، التدخل بشغف فى شؤون الدولة ، والتمتع بالسلطة التى استطعن الاحتفاظ بها ، وأن تكون كلمتهن مسموعة من الأزواج والأبناء . قال عبد الواحد المراكشى : « وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع

سبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين على بن يوسف فى ذلك كله يتزيد تغافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، ولا نشك فى أن المؤرخ قد غالى فى الوصف . ولكن من المحقق ، فيما يبدو ، أن الأمير ، رغم خصاله التى لا جدال فيها ، لم يكن فى هذه اللحظة أكثر من لعبة فى أيدى الفقهاء الذين فى خاصته ، وأنه ظل منعزلا مثلهم فى دراسات عقيمة وتبتل منقطع .

وفى هذا العصر الذى اختل فيه حال على بن يوسف ، وقعت حادثة لها مغزاها ، هى إحراق مؤلفات الغزالى المشهورة ، التى أثارت ثائرة فقهاء المغرب « وعداءهم » على حد تعبير جولدتسيهر . فقد راح العالم المشرقى الجليل فى كتابه الذى أسماه فأحسن تسميته « إحياء علوم الدين » يفضح نزعات الفقهاء فى دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم فى الحصول على المناصب الرفيعة وحسدهم للعلماء الزهاد . ولم يكن العلم فى نظره حرفة كالحرف الأخرى ، أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجل ، وإنما هو « عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى »(١) . وأثارت قراءة كتابه بالمغرب على الأقل موجة من الغضب ، ولم يكد فقهاء المغرب يعرفون أنفسهم

---

(١) الغزالى ، إحياء علوم الدين ج ١ ص ٤٥ طبعة مصر ١٣٠٢ هـ .

فى خضم القدح الذى رماهم به الفقيه الأكبر . وبقدر ما استهوى ابن تومرت فى المشرق غاظ هذا القدح علماء إفريقيا . ومن هنا كان القاضى الشهير عياض السبتى آخر من اعتنق عقيدة الموحدين فى الأعوام التى تلت ذلك ، وكانت قراءة نسخ كتاب الإحياء التى دخلت المغرب والأندلس شؤماً على نفوذ الفقهاء الهائل ، ولم يبق فى رأى هؤلاء إلا إجراء يجب اتخاذه وقد أملوه على على بن يوسف ، ففى مستهل سنة ١١٠٩ (٥٠٣) أمر أمير المرابطين بإحراق كتب الغزالى وكان قد تقدم إليه فى ذلك ابن حمدين قاضى قرطبة على ما ذكر المؤرخ ابن القطان ، وأحرقت نسخة مجلدة من الإحياء فى الميدان الصغير الذى يمتد أمام الباب الغربى لجامع قرطبة بعد أن سكب عليها الزيت ، فى جمع حضره الفقهاء ، وصدر الأمر فى جميع أنحاء الامبراطورية بإحراق جميع نسخ مؤلفات الغزالى التى يمكن العثور عليها ؛ ألا يدل هذا الأسلوب من أساليب التفتيش وحده على الحالة النفسية التى فرضت كأنها قاعدة على أنحاء إمبراطورية واسعة ، لا يحرص الفقهاء فيها على التدخل فى شؤون الحكومة فحسب وإنما يملون أيضاً على الأمير أكثر أحكامه ؟

وكان من الأعاجيب ألا تشتعل الثورة فى المغرب ، فقد كانت الفرقة المسيحية التى نقلت من إسبانيا إلى إفريقيا تضيق الخناق على السكان بتهديدها ، ولم يكن لديها هى نفسها أى مصلحة فى أن تثور بل إنها أثبتت

حتى النهاية ارتباطها الوثيق بسادتها المغاربة . أما فى إسبانيا فقد كان الأمر على خلاف ذلك ، فعندما ولى الموحدون وجههم شطر شبه الجزيرة كانت الأندلس فى ثورة منذ أمد غير قصير ، وخلعت سلطان المرابطين حتى يتم لها كما حدث على أثر سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، تأليف دويلات مستقلة توزعها الأندلسيون والبربر والمتأسبنون .

الفصل التاسع

مولد إمبراطورية

ابن تومرت وعبد المؤمن

« فقيه سوس » و « سراج الموحدين »

مقال ظهر فى كتاب Mémorial Henri Basset « فى ذكرى هنرى باسيه » ، الجزء الثانى ، باريس ١٩٢٨ صفحات ٢١ – ٣٧

تعرف السوس ومراكش فى العالم الإسلامى بأنها البلاد التى اختيرت للسحرة والمشعوذين ، كما يعتبر أهل الجنوب ، وهم بربر جفاة خشنون فى مظهرهم الخارجى كما فى طريقة حياتهم ، أساتذة علم العرافة والتنجيم والقوى الخفية : يأمرون الجن ، ويكشفون عن الكنوز المخفية ، ويخشاهم الناس ويحترمونهم ، إذ لا يستطيع أحد أن يلحق بهم أذى ، ثم هم قوم أولو فصاحة بسيطة إلا أنها أخاذة ساحرة ، جمهورهم الذى يخاطبونه طلعة ساذج ولكنهم يعرفون السبيل أكثر من غيرهم إلى التأثير عليه ، وجلهم يجيد الغنين ، يضمنون خطبهم سواء كانت بالعربية أم البربرية آيات من الكتاب العزيز أو عبارات دينية مأثورة تضفى على أعمالهم التى ينكرها الإسلام أحياناً صبغة من التمسك السطحى بالدين ، وقليل منهم من يرتفع إلى مستوى العلم الإسلامى الحق ، ويلم بالمسائل الكلامية على نحو يتبلور معه ذو العلم بها ، ويستحيل إلى آلة تسرد وتردد ، وإلى عالم يلتزم فى تفسيره الآيات النص الحرفى ، مما يحصر النفوس فى إطار ضيق جداً يجب عليها أن تتلاءم وإياه ، على أن هذه المباحث بجفافها ـ وربما أيضاً من أجل جفافها ـ تتجاوز مستواهم ولا رغبة لهم فيها ، فليس يلزم كون المرء عالماً من أجل أن يكون مسلماً صالحاً ، أو مؤمناً غيورا . وأصول السنة الواضحة على قدر وضوح نفوسهم ، يحاولون اتباعها دون أن تحب نفوسهم إعلان ذلك ، وبربر المغرب فى جملتهم أهــــل صلاح وتقوى ،

إلا أن الإسلام يقتصر عندهم على جانبه الدينى فقط ، والدين مكرم فى المدينة لكنه لا يتدخل فى حياتها الخاصة ونظمها وميولها والمثل الأعلى الغامض الذى تحاول أن ترسمه .

ويحق لنا أن نذهب إلى أن جبل الأطلس هو الذى يعكس الصور الاجتماعية لبلاد البربر فى العصور الوسطى ويحتفظ بها على أكمل وجه ، فقد كان دائماً بفضل موقعه الجغرافى وعزلته ، وبعده النسبي عن السهول ذات الحياة الميسورة ، وطرق المواصلات الكبرى ، المأمن الواقى ونواة الكتلة البربرية فى جنوب مراكش ، وربما حاول أقوام آخرون من البربر سواء من سكان الجبل فى بلاد الريف أو من الأطلس الأوسط أن يخلعوا فى خلال التاريخ نير وحدة قومية زائفة ، ولكنهم لم يوفقوا قط إلى إكساب حركاتهم الثورية سعة تبلغ فى مداها وشمولها الحركة التى اتسم بها فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى اندفاع الجبل الجنوبى لمدينة مراكش إلى أنحاء المغرب مستجيباً لنداء المهدى بن تومرت أحد أبنائه .

شخصية تستهوى من حولها إلى أقصى حد ، ونفس بسيطة ومعقدة فى آن واحد ، وعالم إن شئنا ، ومصلح دينى ، إلا أنه سياسى بلغ الغاية فى الألمعية والإخلاص ، يؤمن برسالته إيماناً يفضى به إلى الرغبة فى أن يحققها بقوة ضارية . قالوا خائن كذاب ، وكان فى الإمكان اتهامه بالجنون والدروشة والشطحات الصوفية ، ولكنه لم يتهم قط فى ذكائه ؛ ومجمل القول أنه كان شعلة ذكاء بربرية إذا جاز لنا ذلك ، هـــذا مع صفاء

فى النفس لا يخلو من الرقة الحضرية ، والريبة فيمن حوله وتقدير العواقب والخشونة والقسوة ، ولكنه كان فى مقابل ذلك لين العريكة فى الوقت المناسب ! فقد استطاع هذا البربرى القادم من الأطلس ، وعالم الإسلام ، أن يصبح لدى مواطنيه الأمغار مسموع الكلمة ، وينزع عن خطبه أسلوب الاحتجاج ولو لحظة ليتحدث فى بساطة دون أن يتشدق بالفصاحة ، على طريقة القوم ؛ وله فى الرسول أسوة حسنة ، يستن بسنته مع علمه بأنه لا يبلغ شأوه صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيه شيء من سجايا العربى الساكن فى شبه الجزيرة ، وكان يعلم أنه مهما فعل فإن اللغة التى يكتبها لغة غريبة عليه ، ومهما كان من بلاغة رسائله فإنه كان يفكر بالبربرية ، وبالبربرية كان يخاطب قومه أبناء تنملل ، وكانت العربية لغة المواعظ والخطب التى تزيد أتباعه الجدد إيماناً ، يؤثر فى نفوسهم إيقاع العبارات الجميلة التى تحدث فى أذنهم رنيناً عذباً ، ومع ذلك فكانوا لا يحيطون بها إحاطة تامة ؛ وكانت البربرية هى لغة كل يوم ، لغة السب واللعن ولغة الدعاة الذين يعلنون مقدم المعصوم من قرية إلى قرية ومن واد إلى واد .

أما عبد المؤمن فلم يكن منذ أول أمره فى مثل جفوة ابن تومرت . خرج من قبيلة كومية يطلب العلم ، وهو ليس بالحضرى ولا بالبدوى ، وإنما هو بين بين ؛ وقد قدر له أن يصرفه المهدى عن الدراسة التقليدية ، وعن الشرق الذى كان قد افتتن به وفتح عينيه على رسالته ! فعبد المؤمن بربرى من الطراز الثانى ، أقرب إلى التحضر وأدنى

إلى الأخذ بأسباب الحياة ، وربما أقل مثالية اصطبغت بقدر كبير من الواقعية ، وكان ذكاؤه من نوع آخر ؛ ويقول من ترجموا له إن مخايل ذكائه كانت تلمع فى وجهه ، قد جعلوا منه رجلا عبقريا ، طبيعته فيما يظهر أكثر تعقيداً من طبيعة أستاذه على الرغم من اندفاعه . ثم هو شديد الحياء ، الحظ يواتيه ، ومستشاروه يدفعونه إلى المجد ، قد أتاح له ما أصاب من نجاح أول الأمر الطمأنينة واليقين ، ولم يصرفه هذا النجاح عن الأخذ بأسباب الحيطة ، غريب بعثته العناية الإلهية ليكون دعامة فى بناء الموحدين ، قد اتفق القوم على توليته ، وارتضته مختلف القبائل ، لأنه لا يجر وراءه ذلك التراث الكبير من الأحقاد والعداوات القديمة شأن البربر من سكان الجبل ، وإن أجمل لقب من ألقاب المجد الذى يتحلى به ابن تومرت أنه أدرك كما أوحى إلى خلصائه ممن خدموا قضيته فى حياته ثم اقتتلوا بعد وفاته ، أن الدعوة التى قام بها ليست سوى خطوة نحو المستقبل ، وأن تحقيق الدعوة لا يتم إلا على يد مهاجر يفد من إقليم بعيد ، وبهذا ضمن أن يجتمع لديه جميع المشايعين لحزبه دون أن يضمروا سوءاً أو يخالجهم أدنى شعور بالعصبية القبلية .

* * *

وينتسب ابن تومرت إلى قبيلة هرغة ، وينبغى أن نحدد على الخريطة موضع الإقليم الذى كانت تحتله هذه القبيلة فى العصور الوسطى إلى جنوب مراكش فيما وراء الجزء الأعلى من وادى سوس ،

وكانت تحتل دون شك السفح الشمالى المواجه لجبال أطلس فيما بين قبائل هشتوكة المجاورة لساحل المحيط الأطلسى ، وبين سكتانة إلى الغرب من درعة ، وتقيم فى نفس المنطقة قبائل أرغن ، وهو الاسم البربرى الحقيق الذى عرب إلى هرغة ، وقد أتاحت لنا التغيرات التى أصابت على مر القرون المنطقة التى تسكنها القبائل الكبيرة فى جبال الأطلس ، وبقاء الاسم والإشارات الطبوغرافيـة التى يمكن استخراجها من كتب التاريخ فى العصور الوسطى ، أن نحدد مواقعها مع قدر كبير من الدقة ، ويتضح من ذلك أن قبائل هرغة تبعد عن قبائل هنتاتة بأكثر مما كنا نعتقده ، وأن المسافة الكبرى التى تفصل بين هاتين القبيلتين فى بلد متقطع الأوصال وصعب الارتياد ، تتيح لنا توضيح بعض نقاط غامضة فى بداية تاريخ الموحدين .

كان اسم السوس يطلق فى العصور الوسطى على جميع البلاد التى تمتد إلى جنوب مراكش بين المحيط ووادى نهر درعة ، وكان القسم الشمالى يسمى غالباً على وجه التحديد بالسوس الأدنى ، والآخر بالسوس الأقصى ، يضم كتلة جبال درن أى الأطلس ، وتسكن سفوح الوديان وبطونها بعض القبائل الكبيرة أو جماعات منها ، وهى فيما بين وادى تنسيفت ووادى سوس على النحو التالى بادئين من المحيط : قبائل رجراجة ، ومسكالة ومتيجة وهاهة ومسكينة ، وفى الوديان التى اتجاهها جنوبى شمالى وتهبط إلى سهول مراكش قبيلة ركدميوة (جدميوة) وكنفيسة ، وإلى الشرق من ذلك قبائل

سكتانة وهنتاتة ووريكة وقبائل هزرجة فى بلاد دمنات وإجلوان (اليوم جلاّوة). وأخيراً الشعبان الكبيران: بنو وازكيت (اليوم أوزجيتة) وهسكورة، ثم تقتسم أربع مجموعات كبيرة من القبائل فيما بينها المراعى والأراضى الزراعية من الغرب إلى الشرق فى الإقليم المواجه لجبال درن وهى: هشتوكة وهرغة وسكتانة وإزنجان. ولابن خلدون عبارة كثيراً ما ينقلها الباحثون، وصف فيها هذه البلاد المجدبة الشحيحة وصفاً غاية فى الدقة والواقعية. وكتب هنرى باسيه وهنرى تراس وصفا شيقا لهذه المناطق سنة ١٩٣٢ فى كتابهما «مساجد وقلاع الموحدين Sanctuaires et forteresses almohades» بعد رحلة قاما بها، وإلى هذا الكتاب نحيل القارئ؛ وليس هنالك ما هو أشد قسوة من هذه البلاد، فهذه المزروعات القليلة والخضرة النادرة التى ترى فى قيعان الوديان تبدو غريبة عليها، والحياة صعبة قاسية بالنسبة لساكن الجبل، المحروم فى كل مراحل عمره، والذى أنشأه وطنه نفسه فى أقسى أنواع المدارس، وكثيراً ما هاجر سكان هذه البلاد سعيا وراء حياة ميسرة فى السهول الشمالية، ولكن البربرى شديد التعلق بمسقط رأسه، يعز عليه ألا يعود إليه، وهنالك يقضى آخر أيام حياته، فالحنين إلى القمم والطرق التى تورث الترنح والدوار، مما يعود به إلى بلاده بعد رحيله عنها بقليل.

هل من الضرورى أن ننوه بما لسكان جبال الأطلس وسكان الجبال فى سائر مراكش، من احتمال جسمانى عجيب؟ هؤلاء البربر

قلما كانوا جميلي الصورة ، فالغالب عليهم الضمور وقصر القامة ، فالبلاد فقيرة جداً ولا يأكل المرء فيها ما يكفي لسد جوعه حتى يصبح الجنس سليما ويبقى قوياً فى هذه البلاد ، على أن قانون الاختيار يعمل عمله ، فالضعيف والهزيل لا يمكنه أن يقاوم البيئة التى تحيط به ، فسرعان ما تذهب به صعوبة المناخ قبل أن يبلغ سن الرجال ، أما من يبقى بعد هذه السن فإنه عرضة لكل مشقة ، يجوبون ، ركضاً لا مشياً ، طرقا وعرة لا يكاد يصدقها العقل ، ومسافات تثير الدهشة . وسيرهم فى الطريق مسافات طويلة أمر طبيعى بالنسبة لهم يقومون به كل يوم ، فإن هذا المران الذى هو حياتهم اليومية جعل منهم مشاة ذوى خبرة . وكثير من حجاج البربر قطعوا الطريق إلى مكة سيراً على الأقدام وعادوا إلى بلادهم على هذا النحو ، لا يخيفهم التعب الجسمانى ، وليس للزمن وزن فى حسابهم ، يحسنون السير فى جميع الأوقات تحت الشمس أو المطر ، بحيث لا يقفون إلى فى ساعات الصلاة أو عندما تنحدر الشمس للغروب ، كما أنهم يقطعون كل يوم مسافات شاقة دون كلل ، وفى المساء يأوون إلى ركن بمسجد ريفى ، ويعتمدون على الله فى رزقهم ، ويستأنفون يومهم على هذا النحو إذا اقتضى الأمر ذلك . هذه إحدى مميزاتهم التى قلما تتغير فى مظهرها على مر العصور ، إلا أن هناك عاملا جديداً للغاية ، استطاع أن يغير سريعا كل ذلك ، ألا وهو دخول الحضارة الأوربية .

وفى منازل هذه القبائل الجبلية ، تبعد القرى بعضها عن بعض

دون أن تنعزل فيما بينها . أما المساكن فتصلة جداً لأن الأمن غير دائم بحيث يتيح لهم الاستقرار فى الأراضى التى بها زرع ؛ والحياة بدائية تقوم على الزراعة أو على الرعى ، وهناك بيت لا يفترق عن غيره فى شىء فى أغلب الأحيان ، ذلك هو المسجد الذى يجتمعون فيه ، ويقيمون الصلاة ، ويتعلم فيه الصبية أجزاء من القرآن الكريم يحفظونها على يد معلم ، قليل الحظ من العلم ، ويجد فيه عابر السبيل مأوى يقضى فيه الليل ، ويتناول طعاما هزيلا ، وقد أصبح المسجد مكان الاجتماع فى القرية التى لم يغير فيها الإسلام شيئا ، فإليه يفد القوم ، كما كانوا يفعلون من قبل ، ليتحدثوا فى جناية يقترفها واحد منهم أو ثأر يأخذ به آخر ، ويؤمونه أيام الجمع والأعياد لأداء الصلاة ، وبالجملة لم تكن اجتماعاتهم بأقل عدداً من الصلوات . وبقدر ما يجدون مشقة فى فلاحة الأرض على السفوح المنحدرة انحداراً شديداً بحيث يقتضى الأمر حمايتها من الانهيارات الصخرية والسيول الجارفة ، فإن إجازاتهم الزراعية كثيرة طويلة الأمد ، وفى هذه الفترة تنشط النفوس من عقالها كما هو الشأن فى بقية أنحاء مراكش ، فمخازن الحبوب قد امتلأت بقدر ، ولم يفرغ كل ما فيها : هنالك يمنى ساكن الجبل الذى جنى الثمرة الضئيلة لعمله نفسه بحياة سهلة ميسورة ، ويعظم اعتزازه بنفسه ، وتقل الخصومات فى الوقت الذى ينتظرون فيه المحاصيل ، ولكن يكفى أن يصيبهم القحط فى سنة من السنين حتى تنطلق أفواج الجائعين إلى السهول بحثا عن ثروات البلاد المباركة .

ولا يلبث أقل حادث يقع فى هذه القرى الجبلية أن يزداد خطورة عنه فى غيرها ، وأقل خبر يذاع هنالك لا يلبث أن يسرى وينتشر بسهولة ، ولا يعرف الرجل أبناء عشيرته والأسر التى تسكن قريته فحسب وإنما يعرف جميع أقرانه من أصغرهم إلى أكبرهم سنا ، وهم يذهبون كل أسبوع إلى السوق المتواضعة التى تقام فى مفترق الوديان ، يدفعهم إلى ذلك ما يسمعونه عنها ، والبيع والشراء قليل جداً فى السوق ، وإنما يتناقلون فيها الأخبار عن الحوادث التى تقع فى كل أسبوع ، كالذى يقع فى القبيلة من حوادث القتل والسرقة والغصب كما يرددون ما يرد من المدينة من أخبار مشوهة ، كل ذلك كان يؤلف موضوعا لأحاديث كثيرة ، فإن فى البربر - شأنهم شأن جميع الشعوب التى ليست على حظ كبير من التطور - سذاجة فى بعض الأحيان ، إذ أن نفوسهم جبلت على التطلع البرىء مع قسوة جارفة .

* * *

وهكذا كان شأن نبأ سرعان ما انتشر دون شك فى الجبال ، ذلك هو رحيل ابن تومرت عن قبيله هرغة ، وكان مما ساعد على ذيوع هذا الخبر أن ابن تومرت لم ينحدر عن السهول ليعمل أجيراً ، وإنما رحل للدراسة فى الشرق ، نحو هذه الأرض الساحرة مصدر جميع العلوم ومهد الإسلام وأمجاده .

كان يتسمى باسم بربرى بحت لم يستبدل به اسم محمد إلا فى وقت

متأثراً تيمناً باسم الرسول ، وقد أراد أن يتأسى به فى كل أعماله ، وكانوا قد وضعوا له منذ ولادته لقبا محليا ، ولما عاد رأى أنه وقد تسمى باسم محمد يقتضى - كما تدل على ذلك الدلائل - أن يكون اسم أبيه عبد الله . ولعل أباه ، وكان رئيسا لقريته ، كان يعرف وقتئذ بالأمغار ويقابل الشيخ فى العربية ، كان يحمل اسما لا صلة له بتصوير نعت إسلامى ، ولا يخفى أن المؤرخين العرب يطلقون على والد المهدى اسم تومرت ويذهبون فى تفسير هذا الاسم إلى آراء لا غناء فيها . وتومرت اسم امرأة يدل على صيغة واضحة التأنيث ، وليس من شك فى أن اسم إحدى جداته غلب على نسبه ، ربما إحياءً لذكرى نظام الأمومة القديم شأن المهدى فى ذلك شأن غيره من مواطنيه فى ذلك العصر ، ولعله كان أيضا اسم أمه ، لأن أم الحسين ، وهذا اسمها ، ظاهر الوضع . وكان جد ابن تومرت لأبيه يسمى أجلد وجده لأمه وبوركان . وهذه أسماء لا شك فى أصالتها .

كانت أسرة ابن تومرت تعيش فى قرية من قرى هرغة على سفح جبل إجلّيز ، بيوتها تكاد تكون منحوتة ، وأكثرها امتداد الكهوف مهذبة لها نظائر فى جميع أنحاء مراكش ؛ وليس من شك فى أن كهف إجليز المقدس الذى صار فيما بعد مكانا يحج إليه الموحدون لم يكن فى أصله سوى جزء من مسكن أسرة المهدى .

وكان للمهدى ثلاثة إخوة لا بد أنهم تسموا بعد ذلك بأسماء عيسى وعبد العزيز وأحمد ثم أخت اسمها زينب ؛ ولا نعرف شيئا

عن صباه ، الذى لا شك فى أنه قضاه فى حفظ القرآن إلى أن كان يوم اتخذ فيه طريقه ليكمل تعليمه خارج بلاده ، سواء من تلقاء نفسه أو عملا بمشورة ذويه . وكان فى مقدوره أن يبلغ فى العلم مبلغا كبيراً دون الحاجة إلى أن يتجاوز مراكش . فقد كانت عاصمة المرابطين تتألق وقتئذ فى حلاها الجديدة ، وكانت مركزاً لا تزال فى نضارتها ، حيث ينشر جلة الشيوخ العلم فى ظلال القصر اللمتونى . كان ذلك هو العهد السعيد للعلاقات القائمة بين دولة المرابطين وإسبانيا الإسلامية ، فانتصار جيوش المسلمين فى الزلاّقة يتردد صداه ، ثم إن بعض مظاهر الحياة الميسرة السهلة فى الأندلس ، وما اتسمت به من أناقة ورقة وروح فيها سخرية لاذعة إلا أنها تنطوى على التسامح فى أغلب الأحيان ، كل ذلك قد انتقل فيما يظهر إلى الجانب الآخر من الزقاق ليمهد بلاط المرابطين ويجمله . ويغلب على الظن أن مراكش قد استبقت ابن تومرت بعض الوقت ، ولكن لا يمكن تأكيد ذلك ، ولسنا على ثقة كذلك ، رغم ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه أقام بعض الوقت فى إسبانيا ، وكل ما نعرفه أنه وجد نفسه ذات يوم فى المشرق ، ولكن لماذا لم يؤد فريضة الحج ؟ هذا سر مغلق ، ولو فعل لكان قد غلب عليه لقب الحاج ، مما لا يذكره من ترجموا له ، ولكنها بلا شك الظروف السياسية أو المادية هى التى عاقته عن ذلك . والرواية المفصلة التى تركها لنا البيذق ، رفيق ابن تومرت ، عن رحلته مبتورة من أولها فى المخطوطة الوحيدة التى تضمنتها وهى محفوظة بالإسكوريال ،

فبدايتها مروره بتونس أثر عودته من المشرق ، بحيث لا بد للوقوف على الفترة السابقة لذلك من الرجوع إلى ما كتبه المؤرخون المتأخرون قليلا ، وهم لهذا لا يكثرون من الأخبار فى هذا الباب ، ولا يوحى ما دونوه بالثقة التامة . والشىء المحقق أنه اكتسب أثناء إقامته - التى استطالت دون شك ، وإن كان من الصعب تحديد مدتها - أكثر معارفه الفقهية ، وأنه وضع أسس دعوته التى صارت فيما بعد دعوة الموحدين .

• • •

لا نشك فى أن ابن تومرت قد رحل من المغرب إلى المشرق فى الأعوام الأولى من القرن السادس الهجرى ، فيما يقرب من سنة ١١١٠ ميلادية . وعندما فكر فى العودة إلى وطنه ومسقط رأسه ماراً بمصر ، استبقاه هذا البلد فيما يغلب على الظن فترة من الزمن ، وكانت العلوم الإسلامية مزدهرة فى مصر ، ومن المحتمل أنه قضى فيها على الأقل جزءاً من عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) . ونجد فى كتاب الأنساب فصلا غريبا ، وإن كنت أميل إلى أنه غير موثوق به . وفى هذا الفصل قائمة تتضمن أسماء رفقاء المهدى فى مصر نقلها كاتب مجهول اسمه أبو القاسم المؤمن المصرى ، وتتخذ الأسماء الواردة فيه مظهراً مصريا بحتا ، وينهى إحصاؤهم بعبارة لا تخلو من ادعاء إذ يقول : « هؤلاء رجاله وخدامه الذين هم بالديار المصرية والرباطات الشامية » . ثم نفقد أثره بعد ذلك إلى أن يبلغ شمال تونس .

هل يجب الاعتقاد حقاً أن ابن تومرت اتخذ منذ هذه الفترة صفة شيخ لمدرسة ؟ وهل كانت دعوته قد ارتسمت إلى هذا الحد فى ذهنه لدرجة أنه رأى ضرورة تنفيذها وتطبيقها عمليا ؟ الجواب على ذلك هو النفى قطعا ، فإن اتصاله بأرضه فى بلاد البربر حيث وجد نفسه بين قومه هو الذى فتح عينيه ، فأبصر ذات يوم أن المصلح الروحى الذى رضى أن يكونه يمكن أن يصبح أيضاً مصلحا سياسيا ، ولم يصبح عند عودته لا المهدى ولا الإمام المعصوم ، وإنما كان ، كما كان غيره من قبله ومن بعده فى هذه البلاد التى لا تفقد فيها الروح المحافظة شيئا من حقوقها ، مجرد الناقد للعادات أو ذلك الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مناديا بمبادئ الاحتساب ، وكانت لديه حماسة المقتنع الملهم ، ولم يكن طموحه قد تشكل بعد ، كما لم يكن حتى ذلك الوقت فى حاجة إلى التماس المعونة الإعجازية التى زودته بها فيما بعد نظرية المهدوية ونظرية الإمامة دون عناء .

ويذكر بعض المؤرخين أنه قطع رحلته من الإسكندرية إلى المهدية بحراً ، وسرعان ما عملت الأسطورة على استغلال هذا النبأ ؛ فيقول المؤرخ ابن القطان أن عصمته تجلت فى رحلته هذه ، فقدكسر جرات الخمر التى كانت موجودة على ظهر السفينة التى أقلته ، وصاح فيهم عندما أبصر أن أوقات الصلاة كانت تمضى دون أن يهتم أى شخص بأدائها . وكان القوم يهزون أكتافهم حين يسمعونه يدعوهم فى غير رفق إلى الصلاة معه ؛ وكان لا بد أن تحدث معجزة ، فهبت

عاصفة ، واستطاعت دعوات الناقد وحدها أن تهدئ من هياج البحر ، وتمت الرحلة بسلام بفضل هذا الولى الذى وجد منذ هذه اللحظة من يصغى إليه بانتباه على ظهر السفينة ، مكبرين له نادمين على ما بدر منهم نحوه . وذهب بعض المؤرخين إلى أن ابن تومرت نزل بالمهدية ، وهذا ممكن جداً ؛ وبعد ذلك بقليل يقيم بعض الوقت فى تونس ، وفى هذه المدينة يمكننا حقا البدء فى تتبع أثره أثناء عودته إلى غرب بلاد المغرب ، وكان قد اجتمع حوله ثلاثة من أتباعه رافقوه فى رحلته ، وكانوا ألزم له من ظله بعد أن عرفوا فيه الوطنى ، فمنهم حاجان هما الحاج يوسف الدكالى والحاج عبد الرحمن وثالثهم أبو بكر بن على الصنهاجى ، الذى كتب فيما بعد أخبار هذه الرحلة وكان يكنى بالبيذق أى الجندى فى لعبة الشطرنج ، ويروى البيذق أن الطلبة فى جميع مدن المغرب التى مر بها ابن تومرت كانوا يفدون إليه من جميع الأنحاء رغبة فى سماع دروسه . وينبغى أن نحسب حساب مغالاة هذا التابع المتواضع فى إعجابه بأستاذه ، إلا أن رسائل المهدى وعهوده لا تشهد على أصالة كبيرة فى روحه فحسب ، وإنما تدل أيضا على معرفة كاتبها باللغة العربية وإلمامه بدقائقها ، وكل ذلك يوحى بأن ابن تومرت لم تكن تعوزه البلاغة ، وهى بلاغة نقية مؤثرة لا تقوم فقط على حسن التقسيم بين العبارات ، والسعى لإكمال الصورة اللفظية ، وإنما تقوم أيضا على ايراد عبارات الوعد والوعيد حسبما يقتضى المقام ، فهو يذكر سامعيه بالعذاب الذى توعد الله به العصاة فى الآخرة ،

والنعيم الذى أعده للمؤمنين فى الجنه والبلاغة الدينية فى الإسلام كما فى الأديان الأخرى لم تزل أسلوباً مزدهرا من أساليب الدعوة ، فهذه الخطب والمواعظ التى صيغت فى عبارة سهلة جدا لتنفذ إلى القلوب روائع تبلغ أحياناً حد الإعجاز بما تتضمنه من الدعوة إلى الجهاد وإنذار العصاة ، ولعل المغرب لم يكن فيه عدد كبير من الوعاظ الذين يفوقون ابن تومرت . فلا بد لمن يستولى على القلوب من أن يرزق موهبة خطابية ينثنى لها الشك سواء كان الكلام ترغيبا وإطراء أو ترهيباً وتخويفا . ولقد كان علماء المغرب يرمون المهدى بالجنون إذا سئلوا عنه ، ولكنهم يردفون ذلك بأنه « عفريت » فى تمكنه من اللغة وإلمامه بغريبها .

وخرج ابن تومرت مع رفاقه الثلاثة من تونس ومضى إلى قسطنطينة ، وهناك استقبل الأستاذ بمثل ما كان يستقبل به إذا أخذنا بما ذكره صاحبه الأمين وكاتب أخباره . وكان على المدينة وال من بنى حماد ببجاية هو ابن سبع بن العزيز ، ولا نشك فى أنه قد عبرها خفية وإن كان قد عمد فيها إلى حمل الناس على احترام تعاليم الإسلام ، فهو لا يجيز أن يعاقب اللص بضربه بالسوط دون أن يقام عليه الحد المنصوص عليه بقطع يد السارق ، إلا أنه لا يريد كذلك أن يقام عليه هذا الحد إذ لا يجوز جمع حدين فى ذنب واحد . كل ذلك صحيح من الوجهة الشرعية : فابن تومرت هو الناطق باسم الشرع والحريص على الأخذ به ، ولكن كل ما هنالك أنه امرؤ لا تعوزه الحكمة

والبصر بالعواقب ، ذلك أنه لما ظهر على هذا النحو ، وأحس بأن تقريعه يثير الريبة ، لم يتلبث وأمر جماعته الصغيرة بالرحيل . وكانت القافلة على أهبة المسير ، وما لبثت أن اتخذت طريقها من قسطنطينة متجهة صوب المدينة الكبرى التى تليها وهى بجاية ، وكانت وقتئذ مركزاً هاماً ، فهى حاضرة أمراء بنى حماد تنافس إلى حد ما مدينتى تونس ومراكش . وكان يسود فيها كما فى المدن المغربية الأخرى فى ذلك الحين قدر من الحرية فى العادات دون أن تبلغ مبلغ الأمر الجائز المصرح به ، ولكن كان لا بد أن يكون الحاكم رحيما حتى يعفو عن ذلك ، إذا أريد إعادة تكوين المجتمع الإسلامى فى صورته المثالية . وكانت بجاية إلى جانب ذلك مدينة بربرية ، فهى الميناء الطبيعى لبلاد قبيل . وكانت علاقاتها مع إسبانيا عديدة منتظمة ، ولأهلها عناية بالتأنق فى الملبس وفى طريقة الحياة ، ولو ترك لابن تومرت الأمر فيها لكان قد سارع إلى تغيير كل ذلك ، وما كاد يصل إلى بجاية حتى استقر به المقام فى « مسجد الريحانة » ، وظهر فى الميادين والأسواق وأخذ ينهى الناس عن الأقراق (النعال) الزرارية وعمائم الجاهليـــة ولباس الفتوحيّات للرجال والنساء . ولكنه أباح الطِّيب الرجال والنساء أسوة بما كان يفعله الرسول فى الحدود التى لا إثم عليه فيها . ثم كان شهر رمضان وأعقبه عيد الفطر ، فعمت الغبطة ونسى الناس الحرمان الذى عانوه طوال الشهر ، وهناك خرج القوم رجالا ونساء وقد اختلط بعضهم ببعض يتنزهون فى الميدان الذى يطل على المزارع . فأقبل

الأستاذ ، فيما يؤكد البيذق ، يفرقهم بعصاه . فهل نصدق البيذق في ذلك ؟ كان هذا التصرف منه إذ ذاك تهوراً جنونياً ، ولم يمكث الناقد بعد ذلك في العاصمة بناء على مشورة أبناء أمير بجاية ، فمضى إلى ملاّلة وهو ربض بعيد عن العاصمة قد يتاح له فيه النجاح ولا يتعرض له أحد ، ولم يمنعه ذلك من القدوم إلى المدينة بين حين وآخر ، يعظ الناس ويرشدهم ويهرق جرار الخمور التي تقع تحت بصره . وأقام ابن تومرت طويلا في ملاّلة ، وكان يعيش في زاوية ، نهاره يقضيه في التدريس والعبادة وذكر الله والتفكير ، والظاهر أنه أخذ يدرك شيئا فشيئا دوره كمصلح ، وعلم أنه لن يصل إلى نتيجة صريحة بتقريعه العصاة أو بجعل الناس يتهمونه بالسفه والجنون ، وفي المساء حين ينفض من حوله الطلاب الذين يقبلون على الاستماع لهذا الأستاذ ذي الحدة في منطقه ، ينطلق من خلوته ويمضي إلى مفترق من الطرق قريب، وهنالك يجلس تحت شجرة خرّوب ويستأنف أدعيته ، ويحرك شفتيه بالذكر دون انقطاع وهو ينظر أمامه . ولا شك أن قوة غامضة كانت تستثيره ، فهو يحس برسالته تتحدد شيئاً فشيئا ، ويحس بأنه يستطيع باعتماده على مريديه من الأتقياء ، أن يعيد إلى حظيرة الإسلام جميع الأغنام الضالة في ذلك المغرب الذي تزداد فيه الزندقة وعدم الاكتراث الديني يوما بعد يوم ، فلماذا لا يكون هو نفسه مجدد هذا الدين ورجل الإصلاح والعقاب ؟ وذات يوم سمعه أصحابه يحمد الله بصوت عال ، فقد أضاء النور في نفسه !! هنالك قام ودخل

المسجد وصلى فيه ، ثم قال فيما يروى البيذق : « الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت الصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . يصلكم غداً طالب ، طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره » . إلام يعزى هذا الإلهام المفاجىء وهذا الإعلان باقتراب وصول نائب المصلح ؟ لاشك أنه من السهل جداً أن يكون لقاء ابن تومرت وعبد المؤمن بمحض الصدفة وأن القدر وحده جمع بينهما ! ولكن هذه الرواية على ضعفها ، ليست بأقل أهمية . فهى تفسر وحدها روح المهدى الذى كان يرسم مشاريعه تحت شجرة الخروب بملالة ، ويرى مستقبلا باهراً خلال الحجب ، ولم يكن ابن تومرت شاباً ، فقد قضى حياته فى الدراسة والاغتراب ودنت منه الشيخوخة ، فلماذا إذن يزيد فى مشاريعه والموت له بالمرصاد ؟ لقد غادر بلاده منذ أعوام ، ولم يستطع ، وهو دائم التنقل ، أن يقيم فى مكان بحيث يؤلف أسرة له ، فليس له ابن ولا بنت كما كان الرسول بنت . وإذاً كان لا بد له أن يتخذ ولداً أو أولاداً يعتمد عليهم ويحلون محله فى يوم من الأيام . وظهر عبد المؤمن فى طريقه .

* * *

وهنا نتابع رواية البيذق خطوة فخطوة ، فإن بساطتها وإخلاصها مع السذاجة الشديدة فيها لمما يدل على أنه تعوزها الدقة ، على أنها شيقة تستهوى النفس . لقد وردت أخبار أخرى موجزة غير

اصيلة ، فيها ذكر لاجتماع ابن تومرت وعبد المؤمن ، وإنما ينبغى أن نرفضها ونكتفى بالثقة فى الشاهد العيان .

بين تلمسان والبحر الأبيض المتوسط تمتد بلاد جبلية غنية بغاباتها ، أهم مراكزها العمرانية اليوم ندرومة ، وكانت هذه البلاد فى العصور الوسطى تشمل أرض كومية وهى قبيلة بربرية الأصل ولكنها تعربت منذ فجر الإسلام ، ولا شك أنها تخلت فى عهد ابن تومرت عن الثنائية اللغوية منذ زمن بعيد ، ومما يسترعى النظر حقا أن قبيلة كومية تتميز بمفردها من بين سائر جماعات الموحدين ، المذكورة فى كتاب الأنساب ، بأن الأسماء العربية لبطونها لا تقترن بما يقابلها من الأسماء البربرية ، وينبغى الرجوع فى شأن أصولها إلى ما كتبه وليام مارسيه . وفى القرن الثانى عشر كانت هناك عدة قرى منها قرية تاجرا التى ولد فيها عبد المؤمن .

وكان عبد المؤمن ، كما يذكر بعض المؤرخين ، ابن قاضى هذه القرية ، أو ابن فخّار فيها كما يذهب إلى ذلك البعض الآخر . وهناك مايبعثنا على الافتراض بأن قروىّ «تاجرا» ما كاد يواتيه الحظ ، حتى أشاع هو أو أحد أقاربه ، أن أباه كان أديباً وقاضيا ، ويحسن أن نحتفظ له بمهنة الفخّار : ويغلب على الظن أنه كان فلاحا صغيرا ينتفع بأوقات فراغه التى تتأتى له من زراعته للحقول الصغيرة ، شأن كثير من مواطنيه فى وقتنا هذا ، فى صنعه للأوانى الفخارية الشائعة الاستعمال

فى المغرب ، بحيث يمكن أن تستبدل بغيرها فى المنزل بسهولة بقدر ما يمكن كسرها ، وكان يحملها إلى السوق المجاورة أو إلى تلمسان . وكان يسمى على بن علوى بن يعلى ، وزوجته تدعى تعلو بنت عطية ابن الخير ، فهل نحن بحاجة إلى القول بأن أبوى عبد المؤمن لم يدّعيا رفع نسبهما إلى النبى (ص) بواسطة الإدريسيين ، وأن سلسلة الأنساب الشريفية التى ألحقت بهما بعد ذلك لم تكن إلا موضوعة اقتضتها حاجات الدعوة ؟ وقد ولد لعلى وتعلو ثلاثة أبناء هم : يوسف ومحمد وعبد المؤمن ، ولما مات على بعد ذلك ، تزوجت تعلو آخر من نفس القبيلة ، فأنجبت منه بنتاً ، اسمها فُنْدة . وكان لعلى أخ على الأقل اسمه يعلو ، ويروى البيذق كيف أن الحظ قد حالف عبد المؤمن منذ ولادته وكتب له المجد ، وتلك أسطورة شيقة جديرة بأن تروى ؛ وقد ردد ابن الأثير صداها فى تاريخه ، قال : « رأت أم الخليفة ـ وكانت حاملا به ـ كأن النار تخرج منها فتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، فقال لها المُعَبِّر بتلمسان : لا بد لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف . وكذلك كانت تعلو تحصد الزرع مع زوجها ، وأمه به حامل ، فجاءت للفدّان واضطجعت نائمة ، فأقبل بندان من نمل فنزلا عليها ، فلما ولد ابنها أتت الفدان فلقطت السنبل وتركته نائما فنزل أيضاً عليه النمل أكثر مما كان نزل على أمه وهو فى جوفها ، ثم قام النمل عنه وافترق فرقتين ، واحدة للمشرق وأخرى للمغرب . فقال على : الله أكبر ، هذا هو الذى قال الفقيه

بتلمسان . فلما رجعوا من الفدان ، قال الأب لزوجته : « احفظيه فإنه لا بد له من الأمر الذى ذكر الفقيه المفسر » .

وشب عبد المؤمن حتى بلغ مبلغ الرجال ، وأرسل منذ صغره إلى المكتب فى تاجرا ، ونشأ الغلام على الحفظ والقراءة ، وليس من شك فى أنه ذهب إلى جامع تلمسان ليتلقى العلم ، ثم عزم على الذهاب إلى المشرق ، مركز الدراسات الإسلامية ، عندما تبين له أن التعليم فى المغرب لا يشفى غلته ، وكان والده قد مات وتزوجت أمه بعد ذلك ورأى عمه أن يرافقه ، فقصدا بجاية ليركبا منها أول سفينة تمضى إلى المشرق ، ويمكن أن نتمثل هذا الشاب المجد ، فلا شك أنه كان فى منظره الخارجى ميسور الحال ، نصف متحضر ونصف قروى ، من أمثال من تكتظ بهم فى وقتنا هذا أزقة الأحياء القديمة بمدينة فاس ، وقد جمع التواضع والحياء اللذين يتسم بهما من كان فى مثل سنه ، وكان ذا نفس يقظة طلعة ، متعطشاً للمعرفة ، يقوم عمه منه مقام المرشد . وهكذا انطلق عبد المؤمن فى الطريق الذى رسمه له القدر .

* * *

نزلا بادئ ذى بدء فى بلاد متيجة حيث أقاما بها عدة أيام ، ثم ارتحلا حتى وصلا بنى زلدوى فى سلسلة جبال قبيل . ووصلا أخيراً إلى بجاية ، ونزلا فى مسجد الريحانة ، « فلما صليا الصبح سمعا الناس يقولون سيروا بنا نحو الفقيه ، فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضه :

ومن الفقيه ؟ قالوا له : السوسي ، هو عالم المشرق والمغرب وما مثله إنسان » . كان ذلك هو الاسم الذى أطلق على ابن تومرت وا كتسبه من رحلته البعيدة . وقصد عبد المؤمن إلى ملّالة رغبة فى سماع هذا الأستاذ الذى أثنوا عليه لفصاحته وعلمه ، وتركه عمه ، ولم يكن طلعة مثله ، يذهب ، وأوصاه بأن يسرع ولا يتمهل . ورواية البيذق عن مقابلة ابن تومرت للخليفة المقبل ضعيفة فى بعض النقط ، وما إن شاهد الأستاذ تلميذه الجديد حتى عرف فيه « المختار » فقربه منه وأنبأه باسم قريته واسم أبيه ، فتعجب الناس من ذلك تعجبا بالغاً . ثم ختم الفقيه كلامه بقوله : « العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب » . فلما انصرف الناس من القراءة أراد عبد المؤمن أن ينصرف ، فقال له المعصوم : « تبيت عندنا ياشاب » فقضى ليلته فى ملّالة . ولندع هنا الكلام للبيذق ، قال : « فلما جن الليل أخذ الإمام المعصوم بيد الخليفة رضهما ، وسارا ، فلما كان نصف الليل نادانى المعصوم : يا أبا بكر ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الأحمر . فدفعته له ، وقال لى : « أسرج لنا سراجا . فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لا يقوم الأمر الذى فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن ابن على ، سراج الموحدين ، فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال : يافقيه ، ما كنتُ فى شىء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى . فقال له المعصوم : إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك ، ثم دفع له الكتاب وقال : طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم

وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم . أكثر من ذكر الله يبارك الله لك في عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر .

هل هذه الرواية صحيحة ؟ على أى حال فإن المؤرخين الآخرين قد نقلوا ما يقرب منها ، ولعلهم قد أخذوا عنها مباشرة ، ولم تكن روايتهم بمثل تلك الدقة ، والشأن فى عبد المؤمن أنه طالب تعلق بأستاذ قد استهوته بلاغته وتحمسه ووضوح أفكاره وحرصه الدائم على التمسك بالدين . وليس ذلك محالا ، هذا إلى أن عبد المؤمن جندى وقع عليه الاختيار ولكنه لن يكون وحده ، فقد أفضى به أستاذه إلى الدور الذى أعده له ، ولم يدع له فرصة للراحة ، وطال المقام فى ملالة ، ومضت شهور كثيرة ، وفى كل يوم كان ابن تومرت يفكر ويحسب ويعدّ فرص النجاح لحركته السياسية التى يرغب فى تنفيذها معتمداً على الإصلاح الدينى ، ترى ماذا يحدث فى منبته الجبلى ومسقط رأسه بمراكش ، تلك المدينة التى أفسدها تساهل المرابطين ، أولئك الجبليون الملثمون ، والمجسّمة المفسدون ؟

وذات مساء حضر رجلان ، فهل كانا رفيقين أو رسولين أوفدا إليه ؟ لقد زعما أنهما فى طريقهما إلى المشرق قادمين من الأطلس ، لا يعرفان من العربية شيئا ، وفقيه سوس وحده هو الذى تولى مخاطبتهما بلغتهما ، يسألهما ويدور الحديث حول بلاد درن ، ولا شك أن حديثهما يبعث على الرضى ، ثم يذهبان ويجىء الليل ، فيأمر ابن تومرت بالرحيل فى اليوم التالى ، وتأخذ آلة الموحدين فى الانطلاق إلى غايتها .

الفصل العاشر

الشعر العربى فى إسبانيا وشعر أوربا فى العصر الوسيط

هذه محاضرة ألقيت فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٨

بالمعهد الفرنسى بمدريد

أود أن أستعرض هنا المشكلة التي أثيرت منذ سنوات عديدة بشأن العلاقات التي قدر لها أن تقوم بين الشعر الأندلسي الشعبي والشعر الذي ظهر منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي في جنوب ووسط فرنسا أولا ، ثم في شمال شبه جزيرة أيبيريا وإيطاليا بعد ذلك ، ويعرف هذا الشعر باسم شعر التروبادور Troubadours إن ورد في لغة الجنوب ، وشعر التروبير Trouvères إن ورد في لغة الشمال ، أو شعر الشعراء المنشدين Juglares إن ورد في اللغة القشتالية .

وهذه المشكلة من المشاكل المستعصية ذات الجوانب المعقدة ، وسأحاول بقدر المستطاع أن أحدد وضعها في وضوح ، وسأبين بعد ذلك النتائج التي انتهيت إليها بعد أن قابلت بين الحجج اللغوية والتاريخية التي تساق تأييداً للنظرية التي تسود اليوم بين بعض علماء الدراسات الرومانية ، ومقتضاها وجود صلة القربى بين هذا الشعر وذاك . ولكن يحسن قبل كل شيء ، أن نذكر بإيجاز الخصائص الأساسية للشعر العربي الشعبي بإسبانيا . لقد ولد هذا الشعر في شبه جزيرة أيبيريا منذ نهاية القرن التاسع ، وكان ظهوره بلا شك نتيجة لخضوع الشعر العربي الفصيح لقوالب عروضية صارمة ، فالقصيدة تخضع لقواعد معينة ثابتة فيما يختص ببحرها الذي لا يتغير من مطلع القصيدة إلى آخرها مهما طالت ، وكذلك فيما يختص بالقافية التي لا تتغير أيضا من البداية إلى النهاية ، على حين أن الشعر الشعبي الذي اخترعه أعمى

قبرة مقدّم بن معافى ، فى رأى بعض المصنفين الأندلسيين ، يجوز فيه للشاعر أن يستخدم بحوراً أخرى غير بحور العروضيين ، ويخالف بين القوافى فى القصيدة الواحدة ، وقد تكون لغة هذا الشعر فصيحة ، وهذا شأن الموشحات . وقد تكون دارجة ملحونة وهذا شأن الأزجال . فالموشحة والزجل لا يختلفان من حيث تركيبهما اللفظى فى اللغة المستعملة ، ثم هما يختلفان فى شىء آخر هو أن الموشحة تنتهى فى الغالب ببيتين يعرفان بالخرجة ، يصوغها الوشّاح فى لغة دارجة أو لغة رومانسية .

وإذا أخذنا مثلا نقف منه على تركيب الموشحة والزجل رأينا أنهما يتألفان أولا من مطلع يسمى «المركز» وهو يشتمل على غرض الموشحة . وتلتزم فى جزأى المركز قافية واحدة ، ثم تلى ذلك أبيات يتباين عددها ، فالأمر فيها موكول إلى الشاعر ؛ وكل منها يتألف من أربعة أجزاء ، الثلاثة الأولى منها متحدة القافية والجزء الرابع تتفق قافيته مع قافية المطلع ، بحيث ينتج عن هذا التركيب الصورة التالية :

ا ـ ا ؛ ب ـ ب ـ ب ـ ا ؛ ج ـ ج ـ ج ـ ا وهلم جرا . والأجزاء الثلاثة الأولى فى كل بيت تسمى «الأغصان» ، أما الرابع الذى تتفق قافيته مع قافية المطلع فيعرف «بالسمط» : وللوشاح أن يعمد إلى صور أخرى ، بأن يؤلف المطلع مثلاً من ثلاثة أجزاء على النحو التالى ا ـ ب ـ ج ، والأبيات من ستة أجزاء على الوجه التالى : د ـ د ـ د ـ ا ـ ب ـ ج . أما الزجل فليس إلا انتاجاً شعرياً يقصد به الغناء ، الأمر الذى يفسر تقطيعه الموسيقى ، ويمكننا أن نتصور الاجتماعات

التي كانت تنشد فيها هذه الأشعار ، فهى فرقة موسيقية مؤلفة من عوّاد وزامر فى الناى وضارب على الدف أو ضارب بالصنوج ، تصحب المغنى أو المغنية التى تبدأ بالمطلع ثم تستمر فى إنشاد الأبيات ، فإذا بلغت الجزء الرابع من كل بيت ، وهو يذكّر من حيث القافية بالمطلع ، رددته معها البطانة .

وإذن فالزجل يمتاز قبل كل شىء بتكرار القافية الواحدة فى نهاية كل بيت ، وهو نوع ولد من تلقاء نفسه فى إسبانيا ، ويذهب عالم الدراسات الرومانية الكبير مننذث بيدال ، فى تعليل ازدهار هذا النوع بشبه جزيرة أيبيريا فى العصر الوسيط ، ثم انتشاره العجيب فى الشرق العربى ، مذهباً يدل على أصالة فى التفكير ، فالزجل يعد فى رأيه حلقة الاتصال التى ربطت الموسيقى الأيبيرية فى التراث اللاتينى واليونانى بالموسيقى الإسبانية الحالية . وفى هذا يقول : « يخيل إلينا أن الراقصات الأندلسيات اللائى نراهن اليوم ينشرن فى الآفاق الأدوار الغنائية المعروفة فى إشبيلية ومالقة ورندة وغيرها على دقات الصنوج لسن إلا سليلات لفتيات قادس Puellae Gaditanae ، اللائى استطعن ، على ما ذكر چوڤينال Juvénal أن يحملن ، برقصهن وصلصلة صنوجهن البرنزية ، صيت الأغانى العذبة الأندلسية Cantica Gaditana إلى آفاق بعيدة حتى بلغت روما فى عهـــد تيتوس وتراچان . وكان الشباب الرومانى المترف لا يكف عن التغنى بها وترديدها » .

ومما لاشك فيه أن هذا الزجل الإسبانى قد دخل إسبانيا المسيحية ،

ولكنه دخلها فى وقت متأخر بعض الشىء فى صورة إنتاج أدبى كتب باللغة القشتالية ، فنجد فى ديوان بايينا Cancionero de Baena أزجالا قشتالية التزم واضعوها الصورة اللفظية للزجل العربى . وهذه المجموعة من الأغانى لا تتجاوز القرن الرابع عشر ، وفى نفس الوقت نجد أن للاصطلاحات العربية التى تطلق على العناصر الرئيسية للزجل ما يرادفها باللغة القشتالية من ألفاظ تحمل دلالتها ، «فالمركز» أو المطلع يسمى Estribillo ، والأغصان أو الأجزاء الثلاثة الأولى من الأبيات تسمى La Mudanza ، والسمط يسمى la Vuelta .

ولنعرض الآن للشعر الغنائى المكتوب باللغة الجنوبية واللغة البروفنسية لننظر فى إمكان وجود علاقات بينه وبين الشعر الأندلسى من وجهة النظر اللفظية .

وإلى المستشرق الإسبانى خليان ريبيرا يرجع الفضل فى وضعه لأول مرة منذ ١٩١٢ النظرية القائلة بأن التماثل فى تركيب الأبيات وتعاقب القوافى كما نجده فى النتاج الأصلى للشعر الشعبى الأندلسى ، وفى أغانى التروبادور الأكيتانية والبروفنسية فى العصور الوسطى ، لا يمكن أن نفسره بكونه ثمرة المصادفة البحتة ، ثم ذهب المستعرب الجليل فى الخطبة التى ألقاها بالمجمع الملكى الإسبانى إلى أنه كان يوجد فى إسبانيا الإسلامية مع اللغة العربية لغة دارجة لاتينية يتكلم بها السواد الأعظم من الناس سواء فى المدن أو فى القرى ، وهذا الذى جزم به ريبيرا كان ينظر إليه فى إسبانيا وغيرها منذ خمس وثلاثين سنة

على اعتبار أنه خطوة جريئة ، ثم ثبت اليوم ثبوتاً يقينياً ، بعد الوقوف على قرائن وأدلة ترجع إلى ذلك العصر ، وبعد الذى ذكره ابن حزم فى القرن الحادى عشر ، فقد أشار فى كتابه « جمهرة أنساب العرب »[1] إلى أن جماعة كانت تقطن فى عصره بشمال قرطبة ، فى ناحية أجيلار حالياً وهم من بنى بلى من قضاعة لا يتكلمون إلا العربية على عكس سائر مواطنيهم ، قال : « ودار بلى بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم »[2] .

وهذه العشرة الدائمة التى اتصلت قروناً بين لغة الأندلسيين واللغة الإسبانية ، وكانت وتمتد فى طريقها إلى الثبات والاستقرار ، هى إحدى الملامح البارزة فى وجه إسبانيا الإسلامية . فقد كان إحساس المسافر القشتالى أو الليونى أو البشكنسى بالغربة وهو فى إسبانيا الإسلامية أقل من إحساس المسلم الوافد من الشرق ومن شمال إفريقيا أيضاً ، وذلك للاتصال القائم فى الحياة اليومية . ويمكننا أن نمضى فى هذا الطريق إلى حد التساؤل : ألم يزدهر فى الأندلس مع الزجل الأندلسى ، زجل آخر رومانسى مكتوب بالعربية ؟ لكن الافتقار إلى النصوص والوثائق قد ينتج عنه عكس ما نريد إثباته ، وقد عمد ريبيرا من جهة

---

(١) نشر المؤلف هذا الكتاب بالقاهرة ط . دار المعارف ١٩٤٨ ، ولم يكن قد ظهر عندما ألقى هذه المحاضرة

(٢) جمهرة أنساب العرب ص ٤١٥ .

أخرى إلى البحث فى المصادر العربية أيضا وخاصة التاريخية منها ، عن آثار دالة على وجود شعر للملاحم على نحو ما وجد الشعر الغنائى والوصفى فى الأدب الأندلسى ؛ وأفضت به استنتاجاته إلى القول بوجود شعر شعبى أندلسى للملاحم ضاع ولم يبق له اليوم أثر ، ثم انتقل إلى دراسة التأثيرات الممكنة بين شعر الملاحم الفرنسى وشعر الملاحم القشتالى ، فخلص منها ، وكان فى ذلك رائداً للباحثين . إلى أن تركيب الشعر الغنائى الذى اخترعه أعمى قبرة وصوره ابن قزمان بعبقرية « يزودنا بمفتاح السر الذى يفسر تركيب الصور الشعرية فى مختلف النظم الشعرية الغنائية التى عرفها العالم المتحضر فى العصور الوسطى » . وعمد ريبيرا بعد ذلك فى دراسات متأخرة حول نصوص وموسيقى أناشيد سانتا ماريا Cantigas de Santa Maria وأشعار التروبادور والتروبير والمنسنجر ، إلى إثبات أن الأشكال العروضية الأندلسية قد سلكت نفس السبيل الذى سلكته النظم الكلاسيكية الأخرى التى انتقلت دون انقطاع من اليونان إلى روما ، ثم من روما إلى بيزنطة ففارس وبغداد ، وبعدئذ إلى إسبانيا ومنها إلى سائر أوربا .

وظهر فى الأعوام الأخيرة حول هذا الموضوع المثير عدد من الدراسات التى قام بها متخصصون ، يميل بعضهم إلى الأخذ بنظرية الأصل العربى ، ويعمد الآخرون إلى دحضها بقوة . ومن الفريق الأول عالمان فى الرومانيات لم يتناولا شعر ابن قزمان بالتحليل إلا ليلتمسا فيه الاحتجاج الذى يؤيد نظريتهما : وهما أ . ر . نيكل التشيكى

والمرحوم و. ج. توليو ـ تلجرن الفنلندى ، ثم ظهر فى فرنسا من نحو ثلاث سنوات كتاب قيم عنوانه : التروبادور والشعور الرومانسكى Les Troubadours et le sentiment romanesque بسط فيه مؤلفه م. روبير بريفو آراء نيكل وتوليو تلجرن دون أن يضيف إليهما حججاً جديدة قاطعة .

أما النظرية الأخرى فأول من ينبغى ذكره من دعاتها العالم البرتغالى رودريجيس لابا . فى كتابه الذى ظهر عام ١٩٢٩ عن أصول الشعر الغنائى فى البرتغال ساق أمثلة لأبيات متحدة القافية تتألف من ثلاثة أجزاء وجدها فى شعر القرن الثانى عشر اللاتينى ، وراح يثبت أن « التركيبات العروضية كانت معروفة فى أوربا قبيل عهد الشاعر القرطبى ابن قزمان » . ومن ثم فمع إقرار أبيل الألمانى وچانروى الفرنسى ، وهما أجل عالمين فى الدراسات البروفنسية من المعاصرين ، بأن نظرية التأثير العربى لا يجوز نبذها واطراحها جملة ، يذهبان إلى أنها لا تثبت بالصورة التى أيدت بها حتى الآن ، ثم يذهبان إلى أن كل ما فى الأمر هو أن شعر التروبادور ، ربما ارتبط ببعض الآثار الشعرية التى تجرى على قافية واحدة من الشعر اللاتينى فى العصر الوسيط .

وأخيراً كان من أهم الأبحاث التى كتبت فى هذا الموضوع ، البحث الذى عقده اللغوى والمؤرخ الإسبانى الكبير دون رامون منندث بيدال . وعنوانه : « الشعر العربى والشعر الأوربى » La Poesia árabe y poesia europea وقد ظهر فى سنة ١٩٤١ ، والنظرية

التى بسطها على الضد من نظرية ابيل وچانروى ، فقد تجاوز المؤلف الشعر المكتوب بلغة الجنوب والتمس أمثلة للقرض من الشعر العربى فى الشعر الجليقى وفيما تضمنه كتاب الأرثبرست دى هيتا المعروف ب Buen Amor

ولا يخفى مننندث بيدال اعتقاده أن الزجل الأندلسى قد انتشر فى الغرب الأوربى بقدر السرعة التى انتشر بهـا فى الشرق العربى ، والدليل على ذلك ، فى رأيه ، أن أول شاعر غنائى معروف كتب بلغة لاتينية حديثة دارجة وهو جيوم التاسع دوق أكيتانيا ، قد استعمل على وجه التحديد الإطار العروضى للزجل ، إلا أن هـــذا الرأى يناهضه أصحاب الدراسات البروفنسية للسبب الآتى ، وهو أن جيوم التاسع ومن سلك سبيله من تروبادور اللغة الجنوبية القدامى وهم جوفرى رُديل ، وماركابرى ، وبيرفيدال وسيركامون وبيركاردينال ، استخدموا تراكيب عروضية تتألف من ثلاثة أبيات ، مع جزء رابع تتردد قافيته فى جميع الأبيات ، لكنهم يهملون استعمال المركز أو Estribillo ، وهو عنصر ثابت فى الزجل الأندلسى ، وهذا شأن الأنشودة الشهيرة لجيوم التاسع التى نسوقها توضيحاً للآراء التى بسطناها ، وهذه الأنشودة هى الحادية عشرة من ديوانه ومطلعها :

"Pois de chantar més pres talenz,
Farai un vers, don sui dolenz,
Mais non serai obedienz,
et Peiton ni en Lemonzi."

« ما دمت أقدر على الغناء فسأنظم أغنية في آلامي وأنا المحب ، لن أتعلق بعد اليوم بطاعة المحبوبة لا في بواتو ولا في ليموزان » .

وتشتمل هذه الأغنية على عشرة أبيات يتألف كل منها من ثلاثة أجزاء متحدة القافية ، ثم جزء تتردد قافيته وهي حرف « i » في جميع أبيات القصيدة . وانعدام البيت المؤلف من جزأين قافيتهما متحدة ، في الشعر البروفنسي ، لا يعد في نظر منندث بيدال دليلا قاطعاً لتأييد نظرية المنكرين للتأثير العربي ، وتبريراً لهـــذا الوضع عمد العالم الإسباني إلى تدليل لا يفضي إلى الاقتناع الكامل . فهو يرى أن هذا البيت قد سقط من الشعر البروفنسي ، خلافاً الزجل الأندلسي ، لأن هذا الشعر لم تكن تصحبه الموسيقى أثناء إنشاده ، وإنما كان من شعر البلاط ، وينشده تروبادور يحمل آلة موسيقية دون أن يردد البيت أحد من الحاضرين ، وكانوا يقتصرون على عدد قليل من الناس هم السيد والسيدة وبعض الأقارب والأتباع . وهناك مشكلة أخرى ترد على الخاطر بمجرد أن يذكر المرء أن التروبادور أو الشاعر الشعبي كان موسيقياً أيضا . وأصحاب الدراسات البروفنسية ، وهذا مما يجب الإقرار به ، لم يمحصوا هذا الجانب من المشكلة ، فهم يلامون على أنهم تعمقوا في دراسة الشعر الغنائي للتروبادور دون أن يحاولوا في نفس الوقت تحديد الموسيقى التي بنى عليها هؤلاء الشعراء أشعارهم ، فالواقع أننا لا نعرف فيما يتعلق بهذه النقطة شيئا كثيراً على الأقل فيما يختص بفرنسا ، ومن المحتمل مع ذلك أن أشعار التروبادور كانت ترتكز

أثناء إنشادها على دور بسيط جداً ، يردد عند كل بيت ، فهل كان هناك ارتباط بين هذا الدور البروفنسي والأوكتاني وبين غناء الزجل الأندلسي ؟ هذا مما لا يحتمل أن نعرفه قط .

ومهما كان الأمر ، فإن الاتفاق في التراكيب العروضية ليس بأقل جوانب المشكلة اضطراباً ، ثم لا يكاد يمضي قرن على عصر قدامى التروبادور البروفنسيين حتى نشهد انبثاق شعر خفيف في أوربا الغربية وفي فرنسا يتألف من مقطوعات وقصائد مبنية على قافيتين . يعود فيها إطار الزجل مع الدور إلى الظهور . وبعض هذه القصائد يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر ، ولكن جلها يرجع إلى القرن الثالث عشر ، ذلك شأن قصيدة la Belle Aëliz أو القصيدة الواردة في "Jeu de Robin et Marion" للشاعر آدم دى لاهال [1] .

أما في إسبانيا ، فقد كتب لهذا البيت الأندلسي أن يذيع ذيوعاً عظيماً سواء في شعر البلاط أو الشعر الشعبي ، فنراه في خمس وثلاثين وثلثمائة قطعة شعرية من أربعمائة قطعة يتألف منها مجموع أناشيد الفونس العاشر ، كما نراه في عدة أغان تضمنها الديوان الذى جمع في نحو سنة ١٥٢٠ وأطلق عليه الديوان الموسيقى .

وهكذا يتبين لنا المكان الذى يحتله موضوع الفرض ، التحليلى ،

---

(١) آدم دى لاهال Adam de la Halle تروبير من شعراء القرن الثالث عشر ، و "Jeu de Robin et Marion" تعد أقدم أوبرا كوميدية معروفة

إن صح هذا التعبير ، وحتى إذا كان التشابه بين الشعرين من حيث التركيب اللفظى لم يتقرر بصورة تدعو للاقتناع المطلق ، فليس أقل من أن يوجد بينهما نوع من صلة القربى التى تعد الرغبة فى إنكارها مظهراً للحس البليد . ولكنى ، فى سبيل إضفاء قيمة الحقيقة التى لا نزاع فيها على هذه القربى ، أقر أنى ربما كنت أميل إلى الحجج التاريخية وإلى التوافق بين الأغراض المستعملة ، منى إلى الحجج اللغوية . ولذلك فإلى هذا التماثل فى الأغراض ثم إلى الحجج التاريخية بالذات ، أود أن ألفت النظر الآن .

* * *

لا بأس أولا من أن نعرض لجانب من المشكلة لم يتناوله أحد من قبل ، فيما نظن ، وبالتالى لم يحله أصحاب الدراسات الرومانسية الذين مضوا فى كشف الشعر الشعبى الأندلسى : ذلك أن هذا الشعر ، شأنه فى ذلك شأن شعر التروبادور الذى يرجع إلى أقدم العصور ، لم يكن يميل ، كما كان الظن غالباً ، إلى تمجيد الحب الشريف وحده . والحب الشريف أو الروحى أو الأفلاطونى مرادف لما كان يسميه العرب فى إسبانيا « حب المروءة » . وكانوا ينعتونه فى الشرق الإسلامى « بالعذرى » ، وإذن فكل ذلك يوحى بأن هذا التمجيد للحب الروحى الذى اصطبغت به آثار شعرية كثيرة فى العصور الوسطى قد استعارته أوربا المسيحية من إسبانيا الإسلامية ، ولا بد لنا فى هذا المقام من أن نشير إلى الكتاب القيم الذى صنفه أبو محمد على بن سعيد بن حزم

الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ أى القرن الحادى عشر الميلادى . فى الألفة والألاف وهو الموسوم « بطوق الحمامة » ، إذ بسط فى هذه الرسالة وقد كتبها سنة ١٠٢٢ م ، نظرية المثالية فى العشق التى تتفق وما نستخلصه من الدراسة المقارنة لموضوعات الحب عند بعض الشعراء التروبير ، وابن حزم فى كتابه هذا عن الحب ، وقد نقل إلى عدة لغات أوربية وكانت الترجمات سقيمـــة فى الغالب ، لم يأت والحق يقال ، بالجديد الأصيل فى هذا الباب . فرائد النظرية القائلة بالحب الروحى ، وأبطاله من قبيلة بنى عذرة التى تسكن شمال المدينة ، مما أفضى إلى إطلاق اسمها على ما يرادف فى العربية (الحب الشريف) شرقى لم يقتصر على الشعر وإنما كان فقيهاً من فقهاء بغداد ونعنى به أبا بكر محمد بن داود الظاهرى الأصبهانى المتوفى سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) ، فإليه يرجع الفضل ، على ما ذكر ماسنيون فى وضع « أول تأليف شعرى فى الحب الأفلاطونى » ، ولعل كتابه الذى سماه « الزهرة » قد انتشر فى إسبانيا أكثر مما انتشر فى المشرق ، وأتى فيه على تحليل بارع للنظرية التى شاعت فى بنى عذرة سواء من تلقاء أنفسهم أو بحكم تأثيرات لم تتضح بعد ، طرأت على أبناء هذه القبيلة . ولقد أحسن غرسية جوميث فى وصفه إياهم حين ذكر أن مذهبهم فى الحب يقوم على « الدوام الممض للرغبة » فكذلك كان شأن الشاعر جميل وصاحبته العفة بثينة ، عرفا ، فيما تروى الأسطورة العربية ، رهبة الشهوة وأحسا بها . لكن لعل الذى لم يتبين بجلاء ، ولم يُعرض بوضوح فى الدراسات الحديثة عن الشعر

الشعبي الإسبانى والشعر فيما وراء جبال البرانس هو أن الزجالين وتروبادور أوكتانيا وپروفنسة قد احتفلوا إلى جانب والحب الشريف، بالحب الحسى ، وعمدوا فى ذلك إلى أساليب من التعبير ، فجاجتها لا يمكن أن تحتمل أية ترجمة إلى لغة حديثة ، وأمثال أزجال ابن قزمان التى لا يمكن ترجمتها إلى لغة ، لا تستهين بالشرف ، لها نظائرها فى بعض الأشعار المصطبغة بالصبغة الواقعية ، وخاصة قصائد التروبادور ماركارى ، وعلى هذا فإذا كان التماثل فى الاحتفال بموضوعات الحب فى كلا هذين الشعرين يعتبر دليلا ، لا سبيل إلى إنكاره ، على الصلة المتبادلة بينهما ، فإن التماثل الآخر فى طرق موضوعات مبتذلة أحياناً من موضوعات الحب الحسى وليست من الحب الروحى ، مما يؤيد أيضا النظرية التى عمل على دحضها أصحاب الأدب البروفنسى ولاسيما ألفريد چانروى .

فلقد عمد فى كتابه الجليل عن الشعر الغنائى عند التروبادور La poésie lyrique des Troubadours، وقد ظهر فى ١٩٢٤، إلى تحليل الأسباب المختلفة التى أدت إلى ازدهار الحب الشريف فى المجتمع الإقطاعى، أثناء العصر الوسيط الأعلى ، وتأصيل قواعده ، مما كان له أعمق الأثر فى تكوين أنواع الأدب كله من شعر إلى قصص فى الحب إلى قصص فى الفروسية ، وربما كانت هناك علاقة ، غير واضحة ، بين تطور الحب الشريف وتطور التصوف فى العصر الوسيط .

وأياً ما كان الأمر فلا معدى من تقرير أن الحب الشريف هذا كما نصوره فى إسبانيا الإسلامية ، وأحسن ابن حزم تحليله فى طوق الحمامة ، واحتفل به الشعراء الذين ينظمون شعراً معرباً أو الذين ينظمون شعراً ملحوناً ، لم يتناوله قدامى التروبادور على نحو يختلف اختلافاً كبيراً عن أسلوب هؤلاء . وخلقت الشاعرية من حول العاشق ومعشوقته وهما يلعبان الدور الرئيسى ، مجموعة من الشخصيات الدائرة فى فلكهما ، وهى فى الجملة شريرة ، تحتل الجانب الخلفى من المسرح . والعاشق فى الأزجال وفى أغانى التروبادور عرضة لصنوف واحدة من الآلام والمذلة والخديعة ، وفى كثير من الشعر التولوزى والبروفنسى يتكرر مثلا لفظ gardador أى الرقيب على المرأة يحرسها الزوج أو الغريم ، وكذلك الشأن فى الشعر الأندلسى وفيه شخصية يطلقون عليها اسم « الرقيب » . ولم يكن ذلك من خلق العصر الوسيط ، فبلوته وأوفيد يشيران فى الأدب اللاتينى مراراً إلى من يسميانه Pediosus custos Puellae أو Vigil custos . ولكن يمكن أن يقال إن التروبادور فى هجائهم الرقيب بدورهم ، لم يجروا على تقليد دارس فى الأدب القديم ، بل على العكس من ذلك توحى القرائن بأنهم استعاروا الشخصية من الشعر الشعبى الأندلسى . ومع ذلك فليست هناك شخصية سوى الرقيب gardador تعكر صفو المحبين فى هذا الشعر أو ذاك ، ثم نراهم يضيقون ذرعا بطائفة من الثقلاء ، كالنمامين lauzangies عند التروبادور ويسعون فى الوقيعة بين المحبين ، ثم الحساد encojos

والزوج الغيور Gilos ، وفى الشعر العربى ما يماثل ذلك كالنمام والحاسد والعاذل .

ولابن قزمان قطعة من زجله الثانى والثلاثين يقول فيها :

احتفظ ياعاقـــل
ما يقول العـاذل
قولو قول باطل
فالرقيب والنمام
هم يقيموا الشر
على ســـاق .

ومن أسباب توفيق العاشق تبعاً لنظرية الحب الشريف ، سواء فى إسبانيا الإسلامية أو فى فرنسا الجنوبية ، طاعته التامة لمعشوقته ، وفى هذا نوع من « العبودية الغرامية » صيغت فى كلا الشعرين بنفس الصورة ، وقد نقل صاحب كتاب Disciplina Clericalis الكلمة المشهورة « إن المحب لمن يحب مطيع » qui amat obedit ، وكانت هذه الطاعة للشخص المحبوب موضع تحليل نفسى دقيق أجراه ابن حزم ، كما نجد هذا المبدأ نفسه عند جيوم التاسع الذى يستعمل لفظة المطيع obedienz للدلالة على العاشق ، ويسمى سلوكه حيال محبوبة قلبه باسم الطاعة Obedienza . وهناك أمر آخر جدير بالاهتمام ، ذلك أن المحب عندما يخاطب محبوبته فى الشعر العربى ، يسميها بصفة عامة « سيدى ومولاى » فى صيغة المذكر لا فى صيغة المؤنث « سيدتى ومولاتى » . والشعراء التروبادور يسلكون هذا السبيل فيقولون

« سيدى Midons » بدلا من « سيدتى Madonna » . ثم إن التروبادور والزجال يغترفان من بحر واحد فيما يتعلق بموضوعات الحب ، ويدلان على أنهما يستقيان من مصادر متقاربة جداً ، وقد لا يجد الشاعر جزاء على « طاعته » ، والشاعر يعرف ذلك ويأسف له أو يلتمس العزاء عنه ، ثم إن العذاب الذى يسببه الحب الذى لا يشفى نفسه ، يتيح له نوعاً من اللذة ، لكنها « لذة ممضة » . وهذا التفانى فى الحب الذى يسميه التروبادور « الفرحة Joy » له نظيره فى الشعر العربى الشعبى فيما يعرف « بالطرب » ، وقد ذهب البعض ممن نتحفظ فى الأخذ برأيهم ، إلى حد إقامة الصلة اللغوية بين هذه الكلمة العربية « طرب » وبين كلمة تروبادور Trobador على اعتبار أن هذه مشتقة من تلك ، وهو أمر لم يأت أحد فيه إلى الآن بحجة مقنعة . ومن الممكن أن نمضى إلى أبعد من هذا فى التنظير بين الأغراض المستعملة فى كلا الشعرين اللإتيان بحجج جديدة ، تؤيد النظرية القائلة بوجود صلة قربى بينهما . وهنالك إلى جانب موضوعات الغزل والحب بمعنى الكلمة ، أغراض أخرى طالما تحكمت فى اتجاه الشعراء ، وأوحت إليهم بقصائد تعد من أجمل ما جادت به قرائحهم ، ومن ذلك وصف الطبيعة عند استيقاظ الربيع ، على أن الجمع بين موضوع وصفى أو يتعلق بالأزهار ، وبين موضوع غزلى قد يكون من غير شك ثمرة لمجرد التوافق فقط ، ومما ظفرنا به فى هذا الباب على الأقل ، ما فى الشعر الأوكتانى وفى الشعر الأندلسى من لوحات رائعة نرى فيها الزهر يتفتح على سوقه ،

ونسمع البلابل تغرد ألحاناً شجية كأنها تشجع العاشق المعذب .

ومن الأغراض المشتركة بين الشعرين المدح ، فالشاعر — فيما عدا جيوم التاسع — شريد بائس . وقد كان ماركابرى وجوفرى روديل وكذلك ابن قزمان من الشعراء الصعاليك ، فكان لا بد لأحدهم إذ يطمع فى ضيافة أو عطاء من ممدوحه من أن يتغنى بمدحه . على أنه قد يحدث أيضاً ـ وهذا مما يعزز الحجج التى تساق لبيان صلة القربى بين المدرستين الشعريتين ـ أن يبدأ الشاعر أندلسياً كان أو بروفنسيا فى إنشاد قصيدته فى المديح ، ثم يذكر اسمه فى البيت الأخير منها ، وقد كانت هذه سبيل سيركامون وماركابرى وابن قزمان فى أغلب الأحيان .

والمديح عند هذا وعند ذاك تغذيه بواعث واحدة كرغبة الشاعر فى أن يظفر بإعجاب الناس على قدر ما رزق من موهبة ، ويقينه بخلود شعره ، وإعلان كماله الفنى .

° ° °

ونصل الآن إلى آخر مراحل هذه الدراسة وهى أكثر ما فى الموضوع صعوبة وأهمية : تلك هى أنه إذا كان الشعر الغنائى لأقدم شعراء التروبادور قد استعار بالفعل من نظيره فى الشعر الشعبى الأندلسى ، كما ترجح ذلك صلة القرابة اللفظية فى النتاج الشعرى ، والتماثل الكبير بين الأغراض المطروقة ، فكيف نفسر إذن هذا الأخذ ؟ وكيف نستطيع أن نفسر بصفة خاصة أن هذا الأخذ لم يسلك السبيل الطبيعى الذى كان مقدراً له أن يتبعه ولم يظهر ما يدل على وجوده أولا فى إسبانيا المسيحية ، وعلى نفس الجانب من جبال البرانس ،

وكذلك فى قرطبة أو الحواضر الأندلسية الأخرى ، وإنما على العكس من ذلك ازدهر هذا النوع من الزجل المكتوب بلغة رومانسية ، إن صح هذا التعبير ، فى جنوب فرنسا أولا ؟

على أننا لا نعدم لحسن الحظ ما يمكن أن نفسر به هذه الظاهرة الغريبة ، فأقدم تروبادور من الفرنسيين — وهو جيوم التاسع دوق أكيتانيا — لم يكن ، كما نعلم ، الشاعر الشعبي المتجول الذى يصور حياة غيره من الشعراء ، وهم صعاليك لا همّ لهم إلا البحث عمن يرعاهم ويغدق عليهم العطايا ، ثم هم على استعداد ، شأنهم فى ذلك شأن زملائهم من شعراء الأندلس ، أن يمدحوا الرجل الذى يعطيهم دريهمات قليلة ، أو يهبهم ثوباً ، أو يقدم لهم طعاما .

ولعل جيوم ، وهو أمير ينحدر من سلالة رفيعة ، ويحكم دولة شاسعة ، يعم فيها الثراء والرخاء ، يعد ، فيما نرى ، الشاعر المسئول عن أول ما كان من استعارة الصور والأغراض من الشعر الغنائى الأندلسى . وأكاد أقطع ، على ما قد يبـــدو فى ذلك من غرابة ، أن جيوم التاسع كان يعرف العربية ، فمن آثاره الضئيلة التى بقيت له ، وهى لا تعدو بضع قصائد ، قصيدته الخامسة التى يحكى فيها بأسلوب لاذع ، أنه لقى أثناء رحلته فى مقاطعة أوفرنى سيدتين هما آنيس وإرمسن ، وبعد أن حيته كلتاهما فى أدب جم توجهت إحداهما إليه بالخطاب « فى لاتينيه » فقالت : « رعاك الله من مولى وحاج

ـ إنك فيما يخيل إلى قادم من مكان كريم ـ ولكن ما أكثر من نراهم يمشون فى هذا العالم من الحمق ». ثم قال الشاعر : « وهذا جوابى ـ لم أتكلم عن السلاح ولا عن السنان ـ وإنما قلت لها ... » .

ثم يلى ذلك أربعة أبيات لم يجد فيها العلماء حتى اليوم إلا « تخليطاً » ، ولما سمعت إحدى هاتين الثرثارتين تلك الرطانة التى استعصى عليهما فهمها ، مالت إحداهما على الأخرى وقالت : « لقد اهتدينا إلى ضالتنا ـ بالله عليك يا أختاه ، انضيفنه ـ فهو أبكم ـ وحالنا لن ينكشف له قط » . ويمكن أن يتنبأ المرء بباقى القصيدة ، وهى من جنس شعر ابن قزمان أو فرانسوا ڤيون .

ولقد أعمى هذا التخليط وقتاً طويلا إلى أن كان يوم تبين لى فيه وأنا أقابل بين القراءات المختلفة لمخطوطات جيوم التاسع ، وأضع مكان السقط ألفاظاً أخرى ، دون أن أغير منها حرفاً واحداً ، أن هناك أربعة أجزاء من بيت فى لغة أندلسية يكاد يمكن فهمها ، لكن ترجمتها عسيرة ، وفيها يعلن الشاعر إلى محدثته كيف يستطيع أن يصمد لرعونتها وطيشها .

ونستطيع أن ندرك فى هذا الاكتشاف شيئاً لا يخلو من إثارة التفكير ، ذلك أن جيوم التاسع لم يكن يجهل شيئاً يتعلق ببلاد الإسلام سواء فى المشرق أم فى المغرب ، فنحن نعلم بنوع خاص أنه اشترك عام ١١٠١ ـ ١١٠٢ م فى حملة صليبية بالمشرق ، وأقام فى الشام حقبة من الزمن ، فهل ألف هناك العربية وتعلم شيئاً منها ، وهل سمع بعض

الأزجال الأندلسية التي قدر لها منذ ظهورها، وهذا مما لاشك فيه، الانتشار العظيم في المشرق والمغرب على حد سواء؟

ومما يغري بهذا الرأى ما نعلمه من أن جيوم التاسع قد بلغ أرجون ليساعد الملك ألفونس المحارب في معركةكتندة سنة ١١٢٠ .

ويجب أن ندخل في اعتبارنا ذلك التأثير الكبير لإسبانيا المسيحية والإسلامية طوال العصور الوسطى على بقية أوربا الغربية حتى يتهيأ لنا محاولة تفسير مشكلة التماثل الشعرى، وهى مشكلة ما زلنا فى سبيل تحديد مراميها الأساسية، وليس من شك أن التروبادور النورمندى الذى وضع ملحمة رولان كان على علم بالأندلس، بحيث أن إحدى شخصياته وهى براميموند زوجة الملك المسلم مرسيل، تشهد حفل استقبال السفارة الفرنجية وتشير على زوجها، ولا يصورها الشاعر فى صورة الجمال المختفى فى أعماق الحريم. ولا غرابة فى ذلك فقد ثبت أن المرأة فى إسبانيا الإسلامية كانت تتمتع بقدر من الحرية، وكان لها فى حياة الأسرة والمجتمع دور أهم بكثير مما كان لبنات جنسها فى بقية العالم الإسلامى، بل إن المرابطين فى العصر الذى ازدهرت فيه الموشحات والأزجال، قوّوا فى إسبانيا، الشعور باحترام المرأة، ربة الدار، ولها القول الفصل فى المناقشات العائلية، وذلك طبقاً لما يقتضيه المثل الأعلى البربرى الذى ظل متعلقا بنظام اجتماعى أولى يقوم على الأمومة .

ولا نشك فى أن التروبادور ماركابرى الذى ذكرناه آنفا، ويعد

مع جيوم التاسع نموذجا بين شعراء اللغة الجنوبية ، قد رحل أيضا إلى إسبانيا . وقد عاش هذا الشاعر الصعلوك ، تلميذ ميركامون فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، ومع قلة ما نعلمه عن حياته فإنا لا نشك فى أنه قضى حياته يطوف فى بروفنسة قبل أن يقرر اجتياز البرانس فى سنة ١١٣٧ . ولعله ألف ، وهو فى قشتالة ، قصيدته "Le chant du Lavoir" فى الدعوة إلى الحرب الصليبية، وطلب حماية ألفونس السابع ، واشترك معه فى حملة واحدة على الأقل ضد إسبانيا الإسلامية ، فهل أقام فيها زمناً ، وتف فيه على صناعة الوجل ؟ هذه تقديرات يصعب المضى فيها والتعلق بها .

لكن الذى لا شك فيه أنه منذ السنوات الأخيرة فى القرن الحادى عشر ظهر تيار من العلاقات المباشرة والاتصالات الوثيقة بين إسبانيا المسيحية وفرنسا . ولما أخذت حركة الاسترداد الإسبانى تؤتى أكلها وقت سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ فى يد ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، هوت إلى عاصمته الجديدة أفئدة كثير من الرهبان الفرنسيين ، وتزوج ألفونس آنذاك الملكة كونستانس شقيقة جيوم التاسع وأرملة دوق بورجنى ، ومنذ ذلك الحين أخذ دير كلونى الشهير يمد إسبانيا بعدد كبير من رجال الكنيسة ، ولم ينقطع تدفق البعوث الدينية وقوافل التجار بين طليطلة وبورجنى عن طريق تولوز وبواتيه ، وكانت طليطلة إذ ذاك مدينة طابعها أندلسى بحت ؛ وفى علاقاتها الدائمة مع تولوز ودير كلونى فى بورجنى وغيره من أديرة

المقاطعات الفرنسية الأخرى المفتاح الذى يهدى إلى سر ذلك الأخذ.

ثم يتزوج جيوم التاسع إسبانية هى ابنة راميرو الراهب ملك أرغون، ولا ينبغى أن ننسى أيضاً أنه منذ ذلك العهد البعيد، كان الحج إلى سنتياجو دى كومبستيلا (شنت ياقب) يعدل فى شهرته الحج إلى روما، وهناك اقى ابن جيوم التاسع حتفه فى حادث وقع له يوم الجمعة المقدس من سنة ١١٣٧ فى كنيسة جليقية الشهيرة، وكان قد ذهب إليها حاجا.

بقى أن نقول أيضا كلمة عن حملة بربشتر الصليبية، وكان لها دوى عظيم فى بلاد المسيحية والإسلام على السواء، وسبقت فى الأراضى الإسبانية أولى الحملات الصليبية إلى المشرق ببضع سنين، فقد اجتاز جيش مؤلف من النورمنديين والسادة الفرنسيين جبال البرانس سنة ١٠٦٤ وانتزع من المسلمين حصن بربشتر على حدود مملكة أرغون، وكان من رؤساء هذه الحملة دوق أكيتانيا جيوم الثامن وهو بالذات والد التروبادور جيوم التاسع، وعاد الجيش الفرنسى النورمندى من بربشتر بعدد هائل من الأسرى يقدر بعشرات الألوف من النساء والرجال، أرسل منهم على ما ذكر ابن حيان نحو من سبعة آلاف إلى القسطنطينية، واستبقى رسول البابا لنفسه لا وكان قد قاد الحملة ألفاً وخمسمائة أسير، وفى العام التالى عز الإسلام برجوع هذه المدينة إلى حظيرته، وتبودل كثير من الأسرى، وتم فداؤهم، ولكن يمكن

أن يقال إن عدداً كبيراً منهم بقي في فرنسا ذاتها ، وكان لوجودهم هناك أثر في الأوساط الاجتماعية التي ألقتهم فيها المقادير .

* * *

ويمكن أن يقال بوجه عام ، وهذا ختام البحث ، أن العلاقات التي أمكن أن تنشأ بين الشعر الشعبي الأندلسي وشعر قدامى التروبادور ستظل بسبب الافتقار إلى حجج قاطعة لعدد من السنين لا ندريها ، مبنية على الفرض ، ولكنه فرض يقوى يوماً بعد يوم . هذه العلاقات ليست إلا مظهراً من المظاهر الغريبة الشيقة للدلالة على ما كان للثقافة الأندلسية من أثر عميق لا ينكر في حياة العالم المسيحي الغربي منذ القرن العاشر ومن المسلم به اليوم ، إذا استثنينا العلاقات الثقافية البحتة ، أن إسبانيا الإسلامية ، كانت تعتبر بالنسبة لبلاد البحر المتوسط الأوربية مركز الحضارة المترفة والحياة المتمدينة الناعمة . وأشبه شيء بمعهد لآداب السلوك والذوق الحسن . ولا ننسى أن كثيراً من قطع النسيج الثمينة ، والحلى والتحف التي كانت تزدان بها المقاصير الدينية أو تملأ علب سيدات المجتمع الإقطاعي في العصر الوسيط الأعلى ، إنما كان يأتي من الأندلس أو فارس أو العراق ، وحسبنا في هذا الرجوع إلى وثائق المستعربين في طليطلة وقد نشرها جنثاليث بلنسية ، أو الرجوع إلى المحفوظات المعاصرة للأسرة الأشتورية الليونية إذا شئنا أن نقف على عصر أقدم من ذلك العصر ، فأغلب أسماء النسيج تظهر في صورها العربية ، وبعضها ، وهو أغناها ، يوصف بأنه قرطبي

او شامى أو عراقى ، فلماذا إذن ينفر المجتمع الإقطاعى من أن يأخذ من الحضارة الأندلسية الإطار والأغراض التى أوحت إليه بمحاولاته الشعرية الأولى ، وهى أشبه شىء بألف باء شعره الغنائى الذى كان حينئذ يتلعثم به ؟ لماذا ينفر وقد أعارته هذه الحضارة طرق قص الشعر ، والثياب والعاج والحلى ، ولم تكن الخلافات السياسية والدينية التى كان من شأنها أن تفصل المسيحية عن الإسلام ، من القوه بحيث تقيم بين العالمين حاجزاً غليظاً لا يمكن قهره والتغلب عليه [1] ؟



(١) يمكن مقارنة ما ذكرناه آنفاً بمقال الأستاذ هنرى بيريس عنوانه : الشعر العربى الأندلسى وعلاقاته الممكنة بشعر التروبادور .

La Poésie arabe d'Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des Troubadours.

وهو مستخرج من كتاب الإسلام والغرب L'Islam et l'Occident فى سلسلة Cahiers du Sud ، سنة ١٩٤٧ صفحات ١٠٧ — ١٣٠

محتويات الكتاب

صدر من كتب العلوم الإنسانيه فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع اقتصاد . تربية . علم نفس . تاريخ وتراجم . جغرافيا)
(رحلات . دين . سياسة . فلسفة . قانون . معارف عامة)

١ — حضارة الإسلام	تأليف جوستاف جرونيباوم
٢ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة	« إميل برهييه
٣ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم	« ريجنالد موريش
٤ — سكتلنديارد	« سير هارولد سكوت
٥ — فلسفة الخير	« لويس دكنسن
— حركات الشباب	« الصاغ الدكتور محمد فتحى
٧ — بلاد ما بين النهرين	« ل . ديلابورت
٨ — بسمرك	« إميل لدفيج
٩ — آثار حضارة الفراعنة	« الأستاذ محرم كمال
١٠ — الحياة الناجحة	« أوستاس تشسر
١١ — كيف تقرأ الجريدة	« إدجار ديل
١٢ — الحياة اليومية فى مصر القديمة	« ألن شورتر
١٣ — الديانات فى إفريقيا	« ه . ديشان
١٤ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة	« أرنولد جزل
١٥ — علم نفسك الإقتصاد	« إيفلين توماس

١٦ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠ تأليف دافيد تومسون
١٧ — نحو مجتمع أفضل « برتراند رسل
١٨ — الأحلام والجنس « فرويد
١٩ — تاريخ طابع البريد « يوجان فابيه
٢٠ — تاريخ الجيوش « جورج كاستلان
٢١ — مصر القديمة « جان فركوتيه
٢٢ — صحوة إفريقيا « بازيل دافيدس
٢٣ — الجريدة « جورج فيل
٢٤ — الحرب بين الماضى والحاضر « الأميرالاى محمد عبد الفتاح إبراهيم
٢٥ — الانقلاب الصناعى « ت . س . اشن
٢٦ — الحضارة العربية « ى . هيل
٢٧ — مدخل إلى علم الآثار « السير ليونارد وولى
٢٨ — الجغرافيا والسيادة العالمية « جيمس فيرجريف
٢٩ — الرحالة العرب « الدكتور نقولا زيادة
٣٠ — تاريخ العلم وصلته بالفلسفة « وتهام تامبير
٣١ — طبقات المجتمع « أندريه جوسان
٣٢ — بذور الشر « إيفان هنتر
٣٣ — فجر الضمير « برستيد
٣٤ — قصة التجارة الدولية « فيليس دين

٣٥ـ السلام العالمى فى العصر الذرى تأليف اسكندرهاروو برتراند رسل
٣٦ـ تاريخ الصحافة « اميل بوافان
٣٧ـ الاستعمار فى الخليج الفارسى « الدكتور صلاح العقاد
٣٨ـ علم الاجتماع « موريس جنزبرج
٣٩ـ الصحافة فى العالم « ب . ديوانيه
٤٠ـ النجاح « لورد بيفربروك
٤١ـ سبل الحرية « برتراند رسل
٤٢ـ فجر الضمير « برستيد